جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



وحاجة الإنسانية إليه

تأليف
الدكتور محمد يوسف موسى

القاهرة
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



وحاجة الإنسانية إليه

تأليف
الدكتور محمد يوسف موسى

القاهـرة
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

افتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، آمين .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين من بعثه الله بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا ، أرسله رحمة للعالمين ، بعد أن انطمس وجه الحق وعميت السبل وضل الناس ، فأنقذ الله به العرب ، وهدى به العالم كله ، وجعل دينه وشريعته خالدين الى آخر الزمان ، هدى للناس على مر العصور .

وبعد : هذا بحث عن « الاسلام وحاجة العالم والانسانية اليه » وهو يحتاج فى رأينا الى أن يكتب فيه كثير من العلماء المختصين الذين عرفوا العالم قبل ظهور الاسلام ، وعرفوه بعد أن جعلت للاسلام قيادته ، ثم عرفوه بعد ذلك الى هذه الأيام التى نحياها ومن ثم يكونون على علم بأسباب المجد والعزة والرفاهية ، وبأسباب الحيرة والقلق والاضطراب ، ثم بطريق الخلاص مما يشقى به هذا العصر .

وقد التزمت فى هذا البحث القصد والاعتدال : فلم أجنح الى الإطالة فى غير ضرورة ، ولا إلى الايجاز الذى يفوت به بعض المطلوب .

ونسأل الله العون والتوفيق والسداد .

روضة القاهرة

المحرم سنة ١٣٧٩ هـ

أغسطس سنة ١٩٥٩ م .

القسم الأول

الإسلامُ هو الدينُ الحق، الحاجةُ إليهِ، خصائصهُ

الفصل الأول

الإسلام هو الدين الحق

شغلت مسألة الدين وتعريفه العلماء فى قديم الزمن وحديثه ، ومن ثم نجد له تعريفات شتى تتقارب حينا وتتباعد حينا · فقد يراد منه النظام الاجتماعى الذى تأخذ به أنفسها طائفة من الناس يجمع بينها القيام بضروب خاصة من الشعائر والأعمال المطردة الدائمة والاعتقاد فى قوة روحية مطلقة أعلى من البشر جميعا وهذه القوة ان كانت متوحدة تسمى حينئذ « الله » ·

ويعرفه بعض الغربيين بأنه ـ أى الدين ـ مجموعة واجبات الانسان نحو الله وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه ·

ويقول آخر : الدين هو جملة العقائد والوصايا التى يجب أن توجهنا فى سلوكنا مع الله ، ومع الناس ، ومع أنفسنا ·

ويرى « الشهر ستانى » فى كتابه « الملل والنحل » أن الدين هو الطاعة والانقياد ، وانه قد يرد بمعنى الجزاء والحساب ·

ويذكر « التهانوى » فى كتابه « كشاف اصطلاحات الفنون » ، أن الدين هو وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم الى الصلاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ويطلق على ملة كل نبى ، وقد يختص بالاسلام · والدين يضاف الى الله لصدوره عنه ، والى النبى لظهوره منه ، والى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له ·

هذا والدين اذا لم يقيد بأنه من الله تعالى ، أى إذالوحظ من الناحية اللغوية وحدها ، يشمل الدين الحق والأديان الباطلة ايضا ما عدا من لا يقر بالبعث والجزاء منها ، وذلك لأن معنى الجزاء ملاحظة فى أصل اشتقاق كلمة « دين » ، من « دان » أى جازى ·

والقرآن العظيم حين يقول ، « لكم دينكم ولى دين » يفيد شمول كلمة « دين » للباطل من الأديان أيضا ، فقد سمى ما كان عليه العرب فى الجاهلية من الوثنية دينا ٠

لكن الدين الحق ليس فى رأى الشرع الا ما كان وحيا من الله للمصطفين من خلقه لهداية الناس الصراط المستقيم وهذا بما يجىء به من العقائد والأصول التى لاتختلف فيها الرسل عليهم الصلاة والسلام ٠ ويدل لذلك قوله تعالى ، « شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَاوَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ، أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ » ٠الشورى ١٣ أى أوحينا اليك يامحمد والى سائر الأنبياء دينا واحدا ٠

ويجب أن يلاحظ فى الدين الحق ، شعور المرء واحساسه بقوة عليا ، أو كائن أعلى ، علوا مطلقا ، وهو الذى خلق العالم ويعنى به ويدبر شئونه وفق ارادته وكذلك شعوره بعاطفة تدفعه للإيمان بهذا الكائن الأعلى وتجعل بينه وبينه صلة وثيقة تلزمه بعبادته بمظاهر وشعائر متعددة وبعد هذا وذاك ، يجب أن يوقن المتدين بأن هذا الكائن الأعلى ، وهو الاله ، سيدينه ويجازيه فى الحياة الأخرى بما فعل فى هذه الحياة الدنيا ٠

***

والدين مع الاختلاف فى تحديده وتعريفه ، قديم قدم البشرية ، فما من جماعة انسانية كانت تعيش فى تلك الأزمان القديمة الا كان لها دين ومعبودات تتجه إليها ، رهبا حينا ورغبا حينا آخر ولعل الرهبة والرغبة هما الطابع المميز الذى يلازم كل دين من أول عهد البشرية بالحياة حتى هذا العصر الذى نعيش فيه ٠

ويكفينا هنا أن نشير الى الأديان العديدة التى عرفتها البشرية فى العصور العريقة فى القدم ، أى منذ آلاف وآلاف من الأعوام قبل ميلاد المسيح عليه السلام فى مصر وبابل وآشور وما بين النهرين وفى الهند وما حولها ، وفى الصين وما والاها، وفى فارس ، وفى سائر بلاد ذلك العالم القديم ٠

ذلك بأن الانسان مدنى بطبعه ، وربما كان لنا أن نقول أيضا ، انه متدين بطبعه · فليس هناك فيما نرى جماعة انسانية عاشت فى أى زمن من الأزمان إلا كان لها تفكيرها فى تعليل ظواهر الكون وأحداثه ، وفى مبدأ الإنسان والمصير الذى ينتهى إليه ·

ومن ثم يكون لها رأى حق أو باطل فى هذا وذاك كله ، ويكون لها تصورها للقوة التى تهيمن على تلك الظواهر والأحداث ، وحينئذ ، تخافها وترجوها ، وتقدم لها القرابين والعبادات رجاء خيرها وتجنب شرها ،، وليس هذا كله الا الدين فى بعض معانيه وصوره (١)·

نعم ! قد توجد ، كما يوجد فى كل عصر ، أقلية من الناس فى أمة أو أمم مختلفة لا تأبه للتفكير فى الدين ومسائله وتنساق فى حياتها بتيار المادية الجارف ، وتكاليف الحياة الدنيا الثقيلة المرهقة وتأخذ الحياة على انها لهو ولعب ولا شأن للدين بها ·

ولكن هذا لا ينفى أن هذه الأمة أو الأمم لم تخل فى عصر من عصورها من اتخاذها دينا لها ، أو على الأقل ليس هناك ما يدل على ان نشأة الدين تأخرت عن نشأة الانسان والجماعات الانسانية ·

ومن الحق لهذا أو مع هذا أن نقرر أن الانسان قد يكون قد عاش فترة من حياته ، فترة قصيرة أو طويلة ، من غير علوم وفنون وصناعات ، ولكن لا يعرف التاريخ جماعة انسانية عاشت بلا دين ·

وفى ذلك نجد فى معجم « لاروس » للقرن العشرين ان العاطفة أو الغريزة الدينية شائعة وعامة فى كل الأجناس البشرية ، فقد لوحظت فى صورتها البدائية لدى أكثر الشعوب همجية وأقربها الى الحياة الحيوانية ·

وهذه الغريزة لا تضعف ولا تنقص ، أو لا تختفى تماما ، إلا فى أزمان الحضارة المتطرفة المسرفة ، وعند عدد محصور جدا من الناس · وان الاهتمام

---

(١) من الخير فيما يتصل بالشرق وحده ، الرجوع الى « الفلسفة فى الشرق » تأليف ماسون - اورسيل ، ترجمتنا من الفرنسية للعربية ونشر دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٤٦

بالنواحى الإلهية وبما فوق الطبيعة ، يعتبر من النزعات العامة العالمية والثابتة الدائمة للإنسانية ·

واذن فالدين أمر طبيعى أوغريزى فى الانسان ، أصيـل فى أعماق شعوره واحساسه وفطرته · فان الاعتقاد فى شىء ، أو كائن ما ، أو قوة من القوى ، والتدين به أمر طبيعى فى الانسان ، وحاجة من حاجات النفس تهيمن على المرء طول حياته ، ومن ثم لا يكون بد من اروائها واشباعها كسائر حاجات النفس الطبيعية الأخرى ·

واذا كان الشعور الدينى أصلا هكذا فى الانسان ، فى أى زمن وعصر يعيش ، مهما تكن درجة ثقافته وحضارته ، لأنه نابع من نفسه الطلعة كما قلنا ، والتى تخاف المجهول وترجوه دائما ـ تقول بأنه اذا كان الأمر كهذا ، فان الأديان ستبقى ما بقيت الانسانية ، وان كنا نرى أنها ـ فى بعض نواحيها ـ تتطور بتطورها ، وذلك لتكون على وفاق مع ما تبلغه الجماعات الانسانية من الثقافة العقلية ·

ولو لم تكن الغريزة الدينية هكذا ، لعز على الأنبياء والمرسلين تبليغ الوحى الإلهى لمن أرسلوا اليهم ، أو ـ بعبارة أدق ـ لكان تثبيت هذا الوحى فى قلوب من يبشرونهم به أمراعسيرا كل العسر عليهم ·

ولكن الواحد من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، كان لا يجد أن عليه أن يحدث هذا الشعور الدينى فى قلوب من أرسله الله تعالى اليهم اذ أن هذا الشعور غرزى وفطرى فى الانسان كما عرفنا ولكنه كان يرى أن الناس قد ضلوا السبيل الى الدين الحق والى المعبود الحقيقى بالعبادة

وذلك اذ يجد منهم من يعبد الأوثـان والأصنام ومن يعبد النجوم والكواكب ، ومن يعبد شيئا من الأشجار أو الحيوانات · وحينئذ ، تكون رسالته أن يهديهم جميعا الطريق المستقيم ، وأن يبين لهم الدين الصحيح ، حتى يصل بهم الى

الاعتقاد فى الله الواحد الأحد ، الأزلى الخالد ، والذى يستحق وحده العبادة والطاعة والانقياد .

ومن أجل ذلك كله ، يكون لنا أن نقرر أن نشر الدين الصحيح ليس معناه خلق الميول الدينية التى لم تكن من قبل ، بل معناه توجيه هذه الميول الوجهة الصحيحة لتصل الى الدين الحق ، ولهذا يكون الوحى الإلهى رحمة بالناس جميعا ، إذ يهدى النفوس الضالة ويساعد العقل على الوصول إلى الحق من أقرب الطرق وأيسرها

هذا ، ولسنا فى حاجة بعد ما تقدم الى أن نشير الى أن الإنسانية عرفت كثيرا من الأديان غير السماوية ، كما عرفت الأديان السماوية التى حملتها رسل الله الى البشرية فى العصور والأزمان المختلفة ، ومن هذه الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام ، وهذا الدين الأخير هو خاتم رسالات الله جل وعلا لعباده ، وهو الدين الذى ارتضاه الله للناس جميعا فى كل عصر وزمان ومكان ، وهو الإسلام الذى يحس العالم وتحس الانسانية ، الحاجة الماسة اليه فى كل حين .



الفصل الثانى

الحاجة إلى الإسلام

هذا الانسان ، وهو ذرة من ذرات العالم ، يعجز عن ادراك سبب وجوده فى هذه الحياه ، كما يعجز عن ادراك الغاية وما فيه الخيرله ، لو وكل الى نفسه . ولهذا لم يتركه الله سدى ، بل زوده بالعقل يهديه سبيل الخير ويقفه على النهج الواضح .

وبهذه الأداة الربانية حاول أن يعرف الكون ، ومركزه منه ، والغاية التى ينبغى أن يستشرف لها . ومن ثم ، كان تراث الانسانية ، قبل عهد النبوات ، ومن النظم والآراء والأفكار ، فى الدين والاجتماع والطبيعة ونواحى المعرفة الأخرى .

الا أن العقل يضل ، ويضل كثيرا ، حين يحاول الوصول لإدراك ما ليس فى طاقته ، وبخاصة العالم الأعلى وما يتصل به . ومن أجل ذلك ، كان ما نعرف من الفلسفات الإلهية للأمم والأجيال التى حرمت نور الوحى الإلهى ، فى بلاد الشرق واليونان وغيرها ، هذه الفلسفات التى هى فى مجموعها ليست الا سخرية بالعقل السليم اذ تجعل من البشر ، بل من الحيوان والجماد ، آلهة ، وتجعل الآلهة تتحاسد وتتحارب فى سبيل حطام هذا العالم الفانى !

ولكن الله عادل حكيم ، يعلم أن الانسان لا يكون شيئا ان تركه الى نفسه وعقله وأن من العدل ــ ليكون الانسان مسئولا عما يفعل ، وليحقق الغرض من وجوده ــ أن يبين له الرشد من الغى ، ويفصل له بين الحق والباطل . وقد كان هذا ، وكان على ألسنة من اصطفاهم من خلقه ليكونوا حاملى رسالاته ، هذه الرسالات التى رأيناها متدرجة لتتفق كل منها وعقلية الشعب أو الأمة التى جاءت لها .

لهذا ، رأينا الدين يجىء فى أثر الدين ، والرسول يتبع الرسول ، وكل دين

له ناسه المحدودون ، وزمنه الموقوت ، حتى بعث محمد عليه الصلاة والسلام بدين للناس جميعا والانسانية عامة ، وذلك حين قضت الضرورة المطلقة بارساله وكان لا معدى عن بعثته ، ليخرج العالم كله مما كان يتخبط فيه من ظلم وضلال وباطل .

ولولا هذه الضرورة المطلقة ، ما اتصلت السماء بالأرض برسالة جديدة ، هذا الاتصال الذى هو خرق لقوانين الطبيعة ، فلا يكون إلا عند حاجة البشرية الملحة المتلهفة لدين جديد .

نعم ! كان العالم فى حاجة ملحة لدين جديد بعد أن خفت صوت الرسل السابقين ، وضاعت معالم الرسالات الإلهية التى أرسلها الله لعباده ، لا فرق فى ذلك بين بلاد العرب حيث بيته المحرم ، وبلاد الروم المهد الثانى للمسيحية ، وفارس حيث كانت المانوية والزرادشتية والمزدكية ، وغير هذه البلاد وتلك من أقطار العالم المختلفة .

١ - ففى بلاد العرب ، كانوا يعبدون ما ينحتون ويصنعون من تماثيل وأصنام وأوثان ، ويتخذونها أربابا من دون الله ، حتى كان الرجل منهم - كما يروى ابن هشام فى السيرة النبوية - اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فجعل أحسنها فى نظره ربا له ، وجعل الثلاثة الباقية أثافى لقدره .

وبلغ من تعظيمهم للأصنام أن اتخذ أهل كل دار صنما يعبدونه فاذا أراد الرجل منهم سفرا تمسّح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يعمل حين يتوجه إلى سفره ، واذا قدم من سفر تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالتوحيد ، قالت قريش : « أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ » سورة ص - ٥ ! كما جاء فى القرآن .

٢ - وفى فارس كانت الديانات الثنوية - فضلا عن المجوسية - التى يجمع فرقها المختلفة القول بإلهين ، النور والظلمة ، أحدهما للخير والآخر للشر ، متعامين عن أنه ليس هناك إلا إله واحد هو الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور .

وكانت الديانة المزدكية ، من هذه الديانات الضالة ، تدعو الى الاباحية المطلقة ، اذ ذهب مؤسسها « مزدك » الى أن « **أحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها ، كاشتراكهم فى الماء والنار (١) والكلأ** »

ومع هذا الضلال فى العقيدة والدين ، بلغ الظلم الاجتماعى فى هذه البلاد حدا لا يطاق . فقد كان الأكاسرة يزعمون أن دما إلهيا يجرى فى عروقهم ، فكانت الرعية تنظر اليهم كأنهم آلهة ولهذا كانت تكفر لهم وتتحمل ما لا تطيق فى هذه السبيل .

وبجانب هذا ، كان المجتمع الفارسى يقوم على نظام الطبقات وكانت الطبقات تقوم على اعتبار الأنساب والحرف وكان على كل أحد أن يقنع بمركزه الاجتماعى ولا يتشوف لما فوقه ، ولهذا كانت الهوة بين الطبقات لا قرار لها ، وكان بعضهم يتخذ من بعضهم أربابا .

ولذلك لما جاء المغيرة بن شعبة للقاء القائد رستم الفارسى ، أيام الحرب بين المسلمين وفارس وحاول الجلوس معه على سريره أنزلوه بالقوة ، فقال كما يروى ابن جرير الطبرى فى تاريخه :

« **إنا معشر العرب سواء ، لا يستبعد بعضنا بعضا ، إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكنكم دعوتمونى . الآن علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وان ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول** » .

ومن أجل ذلك ، نرى « توماس أرنولد » المؤرخ الإنجليزى يؤكد أن سوء حال فارس الدينية والاجتماعية كان « علة ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى ، وجعله يظهر فى صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه . وما ان تم للمسلمين ما ارادوا على هذا الوجه ، حتى تنفس الفرس الصعداء ورحبوا بالعرب » (٢)

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى . نشر الشيخ أحمد فتحى محمد جـ ٢ : ٨٥ .

(٢) الدعوة الى الاسلام . ترجمة الدكتور حسن ابراهيم واخرين ص ١٦٩ .

وهذا الذى يزعمه من أن ذلك فقط كان سبب انتصار العرب هو زعم باطل جارى فيه غيره من المستشرقين · ان الواقع الذى أشار المؤلف نفسه اليه فى مواضع أخرى من كتابه ، هو أن الاسلام دين الفطرة الطبيعية السليمة ولهذا تتقبله القلوب والضمائر متى تفتحت له . وأن المسلمين كانوا يقاتلون بكل قلوبهم رجاء الحسنيين · وشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله ، وبين من يقاتل دفاعا عن عقيدة فاسدة ، ودولة عاتية ، ونظام اجتماعى ظالم مقيت !

٣ ـ وفى بلاد الروم والشرق الأدنى ، الشام ومصر ، كانت المسيحية ، هذه الديانة السمحة فى أصلها ، والتى تدعو أول أمرها الى عبادة الله وحده ، وترى أن المسيح عليه السلام ليس إلا كلمة الله وعبده ورسوله . ولكنها استحالت فيما بعد الى دين معقد ليس الى فهمه من سبيل ·

لقد انقسمت الكنيسة المسيحية على نفسها الى « أرثوذكسية » فى الامبراطورية الشرقية ، و « كاثوليكية » فى الامبراطورية الغربية بروما ، وكان هذا الانقسام من الخطر وبعد الأثر ان صار كل مذهب من هذين المذهبين ديانة قائمة بنفسها ، وأن صار كل من هاتين الديانتين عدوا شديدا للديانة الأخرى ، اذ كان انقساما فى المبادىء والأصول ، لا اختلافا فقط فى الفروع ·

ومن ثم ، اعتبرت كل كنيسة كل من لم يذهب مذهبها خارجا عن الدين يجب عقابه واضطهاده · وكان من هذا أن شعر الناس بأن الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المنشودة ، فأخذوا يجاهدون فى سبيل الإفلات من عالم لا يحتمل فى نظرهم ،، وامتلأت جنبات صحارى مصر بطالبى العزلة الذين يبغون الوصول الى الله (١) ·

وكان من الطبيعى أن يستتبع هذا الفساد فى العقيدة ، وتلك الفرقة فى الدين والاضطهاد للخارجين على المذهب الرسمى للدولة ، الانحلال فى الأخلاق والفساد فى الإدارة ، والظلم فى المجتمع ، هذا الظلم الذى كان الغنى يتقيه بفضل جاهه وماله ·

---

(١) وراجع الامبراطورية البيزنطية تاليف نورمان بينز وترجمة الدكتور حسين مؤنس وأخر ص ١٠٧ ـ ١٠٨

وهذه الوجوه من الفساد التى ذكرنا بعضها وأشرنا إلى بعضها الآخر ، كان لها بلا ريب أثرها فى تقبل الاسلام فى كثير من نواحى الامبراطورية الرومانية بقبول حسن بين المسيحيين انفسهم ، اذ وجدوا فيه متنفسا لهم ، ومخلصا مما كانوا فيه من عنت وكرب .

وفى هذا يقول « توماس أرنولد » السابق ذكره ، « كان أئمة اللاهوت فى افريقية والشام ـ وفى سائر البلاد المسيحية طبعا ـ قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة .. وكان الناس فى الواقع مشتركين ، يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة . كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب ، ولا أمل للعبيد فى حاضرهم ولا مستقبلهم فأزال الاسلام هذه المجموعة من الفساد والخرافات .

لقد كان الاسلام ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى ، وقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته (١) .

كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس الى الامتثال له ، والإيمان به وتفويض الامر اليه وحده ، وأعلن ان المرء مسئول عما يعمل ، وأن هناك حياة أخرى ويوما للحساب .

وفرض الصلاة والزكاة وفعل الخير ، ونبذ الفضائل الكاذبة ، والجدل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة ، وسفسطة المتنازعين فى الدين ، وأحل الشجاعة محل الرهبة . ومنح العبد رجاء ، والانسانية إخاء ، ووهب للناس ادراكا للحقائق الاساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية ..

والآن ، بعد أن شهد أكثر من شاهد من أهلها ، نعتقد انه أصبح واضحا تماما أن الحالة الدينية ، فضلا عن الحالة الاجتماعية الظالمة ، التى كانت عليها البلاد المسيحية قبل الإسلام ، كانت تتطلب انقاذا سريعا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الظلم الى رحابة العدل . فكان هذا المنقذ هو الاسلام ..

---

(١) الدعوة الى الاسلام . ص ٦٧ ـ ٦٨

هكذا كانت الانسانية تتطلع زمنا طويلا الى دين جديد عادل رحيم ، وكان هذا الدين هو الاسلام آخر الاديان السماوية ، فليس لنا أن ننتظر دينا آخر تأتى به السماء . كما كان رسوله صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل المصطفين الأخيار فليس لنا أن نتوقع رسولا آخر من لدن الله العليم الحكيم .

ما الذى نرجوه اذاً لإصلاح هذا العالم الذى نعيش فيه بعد أن أفلست كل نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وبعد أن نجمت فيه فلسفات تدعو لانكار وجود الله والتحلل من المسئولية وفاضل الأخلاق ؟

انه لا شيء غير هذا الدين الاسلامى نؤمن به حقا ونفهمه حقا ، ويكون له منا دعاة وزعماء مخلصون ، دعاة وزعماء يجعلون حياتهم وقفا على الدعوة اليه ، ويرون سعادتهم في القيام به ، ويكونون فى سرهم وعلانيتهم مثلا طيبة وقدوة صالحة تدعو وحدها الى الإسلام .

هذا الدين لا يزال العالم فى حاجة شديدة اليه ، ولا خلاص للانسانية مما تعانيه إلا بالإيمان به واتباعه ، فهو الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، والداعى الى الحق والى الصراط المستقيم .

الفصل الثالث

من خصائص الإسلام

لكل دين خصائصه التى يتميز بها عن الأديان الأخرى ، فما هى خصائص الاسلام الذى ندعو اليه جاهدين ، والذى لا خلاص للعالم إلا به بعد أن انقسم الى معسكرات يتربص بعضها ببعض الدوائر ، وبعد ما انتابه من محن وويلات لا يدرى طريق الخلاص منها ؟

ليس من اليسير ، ولا مما يقتضيه هذا البحث المحدود النطاق والصفحات ، أن نستقصى كل خصائص الإسلام التى صار بها خاتم الرسالات الإلهية ، كما صار الدين الحق الذى ارتضاه الله للعالم والناس جميعا حتى تقوم الساعة .

ولذلك نكتفى هنا أن نتحدث بإيجاز عن بعض هذه الخصائص ، وهى أنه دين الوحدة الدينية والوحدة السياسية ، والوحدة الاجتماعية ، ودين العقل والفكر ، ودين الفطرة والوضوح ، ودين الحرية والمساواة ، ودين الإنسانية ، وهو لذلك كله دين ودولة ، وهو الذى قرر حقوق الإنسان .

١ ـ الوحدة الدينية

نعم ! الإسلام دين الوحدة لا التوحيد فقط ، فقد أخذت كلمة التوحيد معنى خاصا لا تعدوه ، وهو القول بإله واحد خلق السموات والأرض وما بينهما ، واليه وحده يرد الأمر كله ، وذلك فى مقابلة القول بإلهين اثنين أو آلهة متعددة .

على حين لا يدعو الاسلام الى توحيد الخالق فحسب ، بل انه قام على « الوحدة » فى كل أمر وشىء ، فى الناحية الإلهية ، والناحية السياسية ، والناحية الاجتماعية ، الى غير ذلك كله من نواحى العالم والحياه .

فقد جاء الإسلام والناس فى العالم كله يعبدون آلهة شتى ، فكان أول ما عنى به رفض هذه الآلهة جميعا وتقرير أنه ليس الا إله واحد له هو ما فى السموات وما فى الأرض فليس هناك آلهة كثر كما يرى المشركون بعامة ، ولا إلهان اثنان واحد للخير وآخر للشر كما كانت عليه الديانة الثنوية لفارس ، ولا آلهة ثلاثة على ما يعتقد النصارى بعد أن حرفوا التوراة والانجيل .

وقد قرر القرآن هذه العقيدة فى آيات كثيرة ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : « **قل هو الله أحد** » الأخلاص ١ « **وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا** » الجن ١٨ . « **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** » البقرة ١٦٣ . « **قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** » . الأنعام ١٩ .

ومن تلك الآيات أيضا قوله تعالى مخاطبا الذين كفروا من النصارى بالمسيحية الصحيحة : « **وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ** » النساء ١٧١ وقوله فى آية أخرى : « **لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** » المائدة ٧٣

ومن العجيب حقا ، الدال على فساد العقل وعدم التمييز بين الحق والباطل ، أن أولئك المشركين ـ وقد جاءهم الاسلام بعقيدة التوحيد وأقام عليها الأدلة العقلية والحسية التى لا ريب فيها ـ كانوا يقولون كما حكى القرآن عنهم : « أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشىء عجاب » ص ٥

يقولون هذا وهم يرون أن ما زعموهم آلهة لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنهم شيئا ، وأنها لن تستطيع أن تخلق ذبابا ولو اجتمعت له وكان بعضهم لبعض ظهيرا ، ولكنه ضلال العقل ، وفساد الحس ، وسلطان التقليد !

ولم يكتف الاسلام بتقرير هذه « الوحدة » فى الإله الذى يستحق العبادة ، بل بين لنا أنه وسائر ما سبقه من أديان سماوية « وحدة » واحدة ، ورسالة من الله تعالى للبشرية عامة بعضها يكمل بعضا طبقا لسنة التدرج فى التعليم والتربية ، وكلها تهدف الى غاية واحدة ، وان اختلفت وسائل الوصول اليها باختلاف الأزمان والناس .

ولنسمع فى هذا الى ماجاء فى سورة الشورى من القرآن : « شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ » . الشورى ـ ١٣ . ثم أمر رسوله أن يقول : « وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ » الشورى ـ ١٥ أى بالقرآن وسائر الكتب الإلهية السابقة عليه .

ولنسمع كذلك الى قوله تعالى فى سورة البقرة : « قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ، وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ » . الآية ١٣٦

ومثل هذا قوله تعالى فى أواخر هذه السورة نفسها : « ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ » البقرة ـ ٢٨٥

ففى هذه الآيات ـ ولو شئنا لآتينا بالكثير أمثالها فى هذه الناحية ـ دليل ، أى دليل ، على أن الاسلام يعتبر رسالات الأنبياء جميعا « وحدة » لا تحتمل التفرقة ، وأن من لم يؤمن باحدها لا يكون مسلما قط ، وأنه ـ نتيجة لذلك ـ يكون الناس جميعا أمام هذه الديانات والشرائع وأمام الله سواء بلا تفرقة بين أتباع هذا أو ذاك من الرسل ، ما داموا جميعا يؤمنون برسالة خاتم الأنبياء والرسل ، عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام .

وإن الإسلام لم يقل ، كما قال أتباع موسى وعيسى عليهما السلام : « لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ » سورة البقرة الآية ١١١ بل رد هذه المقالة التى تنصح بالتفرقة بين الأديان وأصحابها ومتبعيها ، فقال : « بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ » سورة البقرة الآية ١١٢ .

كما قال قبل هذه الآية : « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ، مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ » (١) سورة البقرة الآية ٦٢

(١) من البدهى ان الايمان بالله يقتضى ان يؤمن بكل رسله وما جاءوا به ومنهم طبعا خاتم الأنبياء والمرسلين .

وهذا الاصل الذى تضمنته هاتان الآيتان الأخيرتان ، يقرر صراحة ما جاء به الاسلام من « الوحدة » فى الدين ورسالات الله لأنبيائه ورسله ، وما يتبع ذلك من « الوحدة » فى الحقوق والواجبات ، وفى المسئولية والجزاء فى الدنيا والآخرة .

ومن هنا ، نرى الإمام الشاطبى يلاحظ فى كتابه « الموافقات » أن السور المكية من القرآن قررت من الأصول والتشريعات الأمورالكلية العامة ، يعنى الأمور التى لا تخص فردا دون فرد ، أو فريقا من الناس دون فريق ، والتى تبقى دائما أبدا ، لأنها كلية عامة ، اذ لا يخالف فيها دين دينا ، ولهذا يكون من صالح العالم كله أن يظل متبعا لها فى كل زمان ومكان .

٢ ـ الوحدة السياسية

ذلك من الناحية الدينية الإلهية ، ومن الناحية السياسية نرى أن الله تعالى قد من على العرب بالاسلام ، وهم قبائل متفككة الروابط ، متقطعة الوشائج والأوصال ، فبعضهم لبعض عدو ، وبعضهم على بعض حرب ، وكان من هذا ما عرفه التاريخ باسم « أيام العرب » أى حروبها فى زمن الجاهلية .

وكان لبعض البلاد العربية « إمارات » عليها أمراء يحكمونها ويلون أمورها ، وكان لبعضها نوع من الاستقلال ، وان كانت تتبع سياسيا دولة الفرس أو دولة الروم ، فماذا صنع الاسلام بأولئك القبائل وهؤلاء الأقوام المتفرقين ؟

كان أن صنع منهم أمة واحدة حقا ، لها رئيس واحد ، وتتبع سياسة واحدة ، وتستهدف غاية واحدة ، هى نشر الدين الحق للانسانية جميعا ، ليكون هاديا إلى الخير فى الدنيا والآخرة .

وكان من أوائل ما صنع الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الناحية ، أن عمل على ازالة ما كان بين الأوس والخزرج بمدينة « يثرب » من عداوة ظلت زمنا طويلا مشبوبة الأوار ، وذلك بأن وحد بينهم وجعلهم « الأنصار » له على أعدائهم من المشركين ، وهذا على ما هو معروف فى تاريخ فجر الاسلام .

ثم كان ، بعد أن هاجر الى « المدينة » أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، فصاروا إخوانا فى الدين وفى كل شىء ، ويدا واحدة فى الجهاد فى سبيل الله ودينه الذى رضيه للناس جميعا .

وكان من أثر هذه « الوحدة » السياسية ، التى جاء بها الإسلام وعمل لها الرسول والمؤمنون ، أنه لما لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، واجتمع المسلمون فى « سقيفة بني ساعدة » لاختيار خليفة لها ، رأى الأنصار أن لهم حقا فى أن يكون الخليفة منهم لسابق نصرتهم للاسلام ورسوله ، ولكن « أبا بكر » والمهاجرين جميعا ــ مع عرفانهم فضل الأنصار ومآثرهم ــ ذهبوا الى أن يكون الخليفة من قريش لما أثر عن الرسول .

وهنا قال « الحباب بن المنذر » من الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فقال عمر الفاروق : هيهات ، لا يجتمع اثنان فى قرن ! وكان ان انتهى الأمر بتولية أبى بكر الخلافة .

وهكذا مضى الأمر في أيام مجد الإسلام ، فلم يكن إلا خليفة واحد للأمة كلها ، على اتساع الدولة الإسلامية وامتداد أطرافها ، وكان هذا محافظة على « الوحدة » السياسية للأمة كلها .

وفى هذا السبيل ، سبيل المحافظة على وحدة الأمة السياسية يرى فقهاء الاسلام أنه لا يجوز أن يكون هناك خليفتان فى الأمة الواحدة ، حتى أنه ليجب قتال من يخرج على « إمام » العصر طالبا الخلافة لنفسه بغير وجه حق .

فأين هذا مما نحن عليه اليوم من تجزئة الأمة الاسلامية الى دول ، حتى صار فى كل بلد سرير ومنبر وعلم ، مع الحاجة القصوى الى الاتحاد وجمع الكلمة وتوحيد القوى !

٣ ـ الوحدة الأجتماعية

واذا تركنا الجانب السياسى الى الجانب الاجتماعى ، نرى « الوحدة » التى قررها الاسلام فى هذه الناحية بلغت من الروعة والجلال حد الاعجاب ، وصارت لهذا مضرب المثل تتحدى التاريخ كله والأمم جميعا .

ففى الهند مثلا ، وهى موطن ديانة من أقدم الديانات العالمية ، نرى الديانة البراهيمية نفسها هى التى تفرق بين متبعيها ، اذ تقسم الأمة الى طوائف أربع ، وتجعل البراهمة أو الكهنة فى القمة ، والسفلة أو الأنجاس فى الحضيض .

ويكفى لتدرك ظلم هذا النظام الطبقى الصارخ وقسوته البالغة ، أن تعرف أنه جاء فى قانون « ماتو » أحد مشرعى هذه الديانة أن البراهمى يجب احترامه واجلاله بسبب نسبه وحده ، وأن أحكامه هى وحدها الحجة ، وأن له حين الحاجة أن يمتلك مال الواحد من السفلة لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

وكان محرما ، حسب هذه الديانة ، على هذه الطبقة المنكودة أن يتصل أحدهم بشىء من الدين أو العلم به ، والا حل به عذاب غليظ ، مثل صب الرصاص المصهور فى أذنيه ، وشق لسانه ، وتقطيع جسمه ! (١)

واذا كانت الديانة البراهيمية قد فرقت هكذا بين متبعيها ، فأقامت المجتمع على نظام طبقى مقيت ، فان اليهود والنصارى ، وكلاهما أصحاب دين سماوى ـ قد حجروا من رحمة الله الواسعة حين زعموا أنهم وحدهم « أبناء الله وأحباؤه » وحين قالوا : « لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ » [البقرة الآية ١١١ .

وحين فرق اليهود فى تشريعاتهم بين من هو منهم وبين الأجانب عنهم ، ومن هذا تحريمهم الربا بشدة بين بنى اسرائيل ، وجعله تجارتهم الحلال الرابحة بالنسبة لغير الاسرائيليين ، مع استحلالهم خيانتهم أيضا ، وذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ، وهم يعلمون أنهم كذبة مفترون على الله !

ومن هذا أيضا ، اباحتهم استرقاق من سواهم من عباد الله ، على حين أنه ليس لاسرائيلى أن يستعبد أحدا من بنى جلدته بحال ما ، بل إن عليه أن يحسن عشرته ويساعده على الحياه (٢) .

---

(١) يرجع فى هذا ونحوه الى ما كتب عن الهند وحضارتها ومن هذه المراجع كتاب « حضارة الهند » للدكتور جوستاف لوبون وترجمة عادل زعيتر طبعة الحلبى سنة ١٩٤٨ م ص ٢٩٥ وما بعدها والى جـ ٣ ص ١٦٦ من كتاب او قصة الحضارة » تاليف « ول ديورانت » وترجمة الدكتور زكى نجيب محمود .

(٢) يرجع فى هذه التفرقة الى التوراة التى بين ايدينا . سفر التثنية ١٥ ، ٧ ـ ٨ وسفر اللاويين ٢٥ : ٣٢ ـ ٣٩ على ان هذا معروف من تاريخهم وحاضرهم .

وتجاه هذه النزعات الأصيلة الطاغية عند هؤلاء وأولئك ، المفرقة للأمة الواحدة من جانب والناس جميعا من جانب آخر ، نرى الاسلام يقرر فى صراحة لا لبس فيها ، وفى قوة لا هوادة معها ، « وحدة » الناس جميعا من الناحية الاجتماعية التى تقتضى المساواة فى الحقوق والواجبات ، لا فرق بين جنس وجنس ، ولا بين فرد وفرد آخر .

لقد محا الاسلام من أول الأمر النعرة الجاهلية ، وحرم التفاخر بالأحساب والأنساب ، اذ أبان أن أصل الناس جميعا واحد ، وهذا اذ ينادى كتابه الأول : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ » سورة الحجرات ١٣

وهذا أيضا ، اذ يقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه :

« كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

واذن ، فلا تفاضل بالأجناس ، أو الأنساب ، أو الغنى ، أو الجاه ، أو غير هذا وذاك مما تعارفه الناس مقياسا للقيم وأساسا للتفاضل .

ومن أجل ذلك ، ليس هناك طبقات فى الاسلام سببها الجنس أو الجاه مثلا ؛ وليس فيه تشريعات للعربى وأخرى لغير العربى ، كما كان الأمر عند اليونان والرومان ، بل المسلمون جميعا فى نظر الدين الاسلامى « وحدة » واحدة من هذه الناحية أيضا ، تحكمهم شريعة واحدة ، لا فرق بين الحاكم والمحكوم ، ولا بين الشريف وغير الشريف ، أو الغنى والفقير .

وكلنا نذكر فى هذا ما كان من الرسول صلى الله عليه وسلم حين استشفع اليه فى المخزومية التى سرقت حتى لا يقيم عليها الحد الشرعى وهو قطع يدها ، اذ قال : « أتشفع فى حد من حدود الله ! والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، أو كما قال .

بل إنه لا فرق فى هذا كله بين المسلمين وبين غيرهم من المقيمين بدار الإسلام وتحت لوائه . وفى هذا يقرر الرسول أن لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات . وإن كان لهم — إن أرادوا — أن يتحاكموا الى شرائعهم فى مسائل

الأحوال الشخصية » ، فقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بتركهم وما يدينون به .

وكذلك نجد الاسلام يسوى بين هؤلاء وبين المسلمين فى وجوب أن تعين الدولة من يحتاج منهم الى العون ، لعجزه عن العمل أو لأنه لا يجد الى العمل سبيلا ، وقد كان من عمر بن الخطاب أنه أمر ـ فى كتاب عام له ـ أن يعطى المحتاج منهم ما يكفيه هو وعياله ، ما أقام بدار الاسلام .

وقد كانت للعبادات المفروضة في الاسلام أثرها القوى في تدعيم هذه الوحدة الاجتماعية ، وزيـادة قوتها ، وامدادها بعوامل الدوام والخلود ، فصلوات فى أوقات واحدة للجميع ، وصوم فى شهر واحد وزمن واحد للجميع ، وحج فى أشهر معلومات ومكان واحد للجميع ، وزكاة يحكمها قانون واحد للجميع .

ويتصل بهذه الناحية الاجتماعية ، ما فرضه الاسلام وتحث عليه الاخلاق التى ترجع اليه وتستمد قيمها منه من وجوب الانسجام بين الجسم والروح من جانب ، وبين النظرة للدنيا والآخرة من جانب آخر .

فان هذا الدين الحنيف ، دين الفطرة السليمة ، أعطى لكل من الجسم والروح حقه ، فلم يقل مع « الأبيقوريين » ، وغيرهم من أصحاب مذهب اللذة ، بأن اللذة هى الخير الأعلى الذى يجب طلبه ، ولم يقل مع « الرواقيين » بأن هذا الخير الأعلى هو فى كبح الشهوات ، ان لم نقل فى استئصالها ، وفى اطراح اللذات عامة حتى ما كان طيبا منها .

وكذلك لم يدع الاسلام الى الرهبانية التى ابتدعها المسيحيون ولم يرعوها حق رعايتها ، والى ترك الدنيا جملة رجاء ما في العالم الآخر من ثواب ، قال كتابه العظيم : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ » ! الأعراف آية ٣٢

وكانت الحكمة كل الحكمة فى هذا الذى جاء به الاسلام فى هذه الناحية ، ففى اتباعه ما يصون المجتمع عن الافراط فى الشهوات والترف واللذات بعد الكبت والحرمان . وحسبنا أن نشير الى الدين المسيحى وقد جاء بالزهد البالغ

واطراح الدنيا وطيباتها جملة ، فلم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ـ كما يقول الشيخ محمد عبده (١) وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله .

فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال ، وانحراف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا اليه ما شاء الهوى من الأباطيل .

٤ ـ دين العقل والفكر

والاسلام دين العقل والفكر ، ما فى هذا من ريب ، وبذلك يشهد القرآن الكريم الذى يشيد بالعقل فى كثير جدا من آياته، والرسول العظيم فى كثير من أحاديثه ، كما يدل لذلك أيضا عقائده التى جاء بها ، وأصوله التى قام عليها .

فما أكثر الآيات التى تحض بشدة على نبذ تقليد الأسلاف والآباء ومن اليهم من ذوى الرياسات . ففى سورة « لقمان » يعيب الله تعالى من يجادل فى الله وما جاء به الرسول الصادق الأمين عنه ، بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبين ، بل جمودا على ماكان عليه أسلافهم ، وذلك بقوله تعالى : « **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ** » لقمان ٢٠ وقوله فى سورة البقرة « **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ** » البقرة ١٧٠

وفى آية أخرى : « **أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ** » سورة البقرة الآية ١٧٠أى يتبعون آباءهم ولوكانوا لايعقلون شيئا ولايهتدون الى حق !

وما أكثر الذين حال الجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد ، وتقليدهم لهم فيه ، بينهم وبين الايمان بما أنزل الله من الحق على لسان رسول من رسله ! بل انهم كانوا يقولون كما جاء فى سورة الزخرف : « **إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ** » الآية ٢٢

---

(١) رسالة التوحيد ، الطبعة الثامنة سنة ١٣٥٧ هـ ص ١٦٨ .

ولهذا يقول الله تعالى بعد هذه الآية : « وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ، قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ » الزخرف ٢٣ ، ٢٤ .

واذا كان الله فى كتابه الكريم ينعى هكذا على التقليد ويعيب على المقلدين ، فانه يأمر فى كثير من آياته باستعمال العقل واعمال الملاحظة والفكر ، ليكون هذا طريقا للوصول الى الحق ، والى الايمان الحق بالخالق الواحد وبسائر ما جاء به رسوله المصطفى .

ولنسمع الى قوله جل وعز فى سورة البقرة : « إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » سورة البقرة الآية ١٦٤ .

وبجانب هذه الآية الدالة على وجوب الملاحظة والنظر العقلى للوصول الى الإيمان بإله واحد خلق العالم من عدم ، وهو الذى يدبر أمره ويحكمه كما يريد ، نجد آيات أخرى كثيرة تختم بهذه الجمل التى لها دلالتها : لعلكم تعقلون ، لعلكم تذكرون ، لعكم تهتدون ، لقوم يعقلون ، لقوم يتفكرون ، لقوم يعلمون .

واذا كان الاسلام ، فى كتابه المقدس الأول، يحض هكذا على ملاحظة الكون ومظاهره وظواهره ، وإعمال العقل والفكر فى كل ما يحيط بالانسان وسائر ما خلق الله من العوالم والكائنات والأشياء ، فما هذا الا لأنه يريد منا أن نطلب العلم بكل سبيل وأن نسلك اليه كل طريق ، لنفهم الكون وقوانينه ونظامه ولنعمل على أن نفيد منه ، وبهذا نكون مؤمنين ونحيا حياة طيبة .

ولذلك نرى الله العليم الحكيم يأمر رسوله أن يقول : « وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا » طه آية ١١٤ وأن يقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » سورة الزمر الآية ٩ ! كما نسمع فى سورة البقرة قوله تعالى : « يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ » البقرة الآية ٢٦٩ .

وبجانب القران ، نسمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :
« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، ويقول : « يؤتى بمداد طالب العلم ، ودم الشهداء يوم القيامة ، فيرجح مدادِ العلماء » .

هذا ، وربما يأتى لهذا الكلام الخاص ، بأن الاسلام دين العقل والفكر والعلم تفصيل فى مكان آخر من هذا البحث ، ولهذا نكتفي هنا بالقول بأن الاسلام قد أدى رسالته نحو العقل والعلم كما ينبغى ، وأن العلم الاسلامى العربى كان من الأسباب القوية لنهضة أوروبا فى العصور الوسطى

انه لا يزال كثير مما عرفه العلماء المسلمون وكشفوه واخترعوه . فى سائر فروع العلم والمعرفة . وبخاصة فى الطبيعة والكيمياء والفلك والصيدلة والطب والجراحة ، موضع الاعجاب والفخر على مر الأزمان ، ولا يزال حتى اليوم مقدرا كل التقدير من العلماء الغربيين .

٥ ـ دين الفطرة والوضوح

والإسلام مع ماتقدم كله يتميز أيضا بأنه دين الفطرة والوضوح ، الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ولم يعتورها التواء أو انحراف ، والوضوح الذى يجعل العقل يقف حسيرا عاجزا عن فهم بعض ماجاء به وإدراكه ، وبهذا وذاك يخاطب العقل والقلب والوجدان معا .

وحسبنا فى بيان هذا أن نشير الى أن الاسلام فى ناحية العقيدة لا يأمر إلا بعبادة الّه واحد لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك . فلم يقل بإلّهين اثنين متشاكسين كما قالت « الثنوية » حين زعم دعاتها أن الحياة صراع دائم بين إلّه الخير وإلّه الشر .

وليس فيه شىء من « الأسرار » المسيحية (١) هذه الأسرار التى لا يصل أحد من رجال المسيحية أنفسهم أن يدركها إدراكا عقليا صحيحا ، ولهذا يطلبون من أتباعهم الإيمان بها دون محاولة فهمها ، ولكن هيهات !

---

(١) مثل سر التثليث . وسر القربان وتحوله الى لحم المسيح ودمه .

وفكرة « الوساطة » فى المسيحية بين الله وعباده ، فكرة لا يستسيغها العقل ، ولا يرى لها ضرورة ، ولا يعرف لها غاية ، فإنه لا معنى لتوسط رجل من رجال الدين بين الله وبين أحد من الناس . والله هو العليم بكل نفس ، ولا حجاب بينه وبين أحد من خلقه .

ولهذا ، يرى الإسلام أن لكل أحد أن يتجه لله مباشرة بعقله ، ويرفع اليه رجاءه بلا وسيط من رجال الدين . وفى هذا جاء فى القرآن : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » البقرة ـ ١٨٦

وكذلك فكرة أن الانسان ولد وجاء الى هذه الحياة مثقلا « بالخطيئة الأصلية » التى لا يستطيع منها فكاكا ، وتقول بها المسيحية ونعرفها نحن من كتبها التى بين أيدينا . وهم يعنون بها أن الانسان يولد وعليه وزر خطيئة آدم عليه السلام جده الأعلى حين خالف عن أمر ربه ، وأكل من « الشجرة » التى حرم الله عليه قربانها .

وبذلك يحملونه وزرا لم يجنه ، ويجعلونه يعيش طول حياته وهو رازح تحت أثقال هذه الخطيئة المزعومة . ومن ثم يطلبون من الإنسان أن يؤمن بالعقيدة « الصلب والفداء » ، أى صلب « المسيح ـ الاله » ، تفدية للبشر مما لحقهم من هذه « الخطيئة » الأصلية !

وكيف يستطيع عقل أن يؤمن بأن « الاله » كما زعموا ، يتمكن منه أعداؤه فيصلبونه ، وهو يستغيث ولا مغيث له !

على حين يقول القرآن كتاب الإسلام عن سيدنا آدم عليه السلام : « وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ، ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » طه ـ ١٢١ ـ ١٢٢ كما يقرر أنه ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأنه لاتزر وازرة وزر أخرى .

كما يقرر من ناحية أخرى ، أن الانسان يولد بريئا من كل ذنب أو خطيئة ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وأن الله تعالى أمره هو القوى العزيز ، فلا يمكن أن ينال أحد منه .

وأخيرا ، إنه ليس بين المرء وبين أن يكون مسلما إلا أن يعتقد بإله واحد لا شريك له من أحد من خلقه ، ويؤمن برسله جميعا لا يفرق بين أحد منهم ،

ولا شيء أبسط ولا أوضح من هذا ! كما لا شيء يحول بين العقل العادى وبين الإيمان بهذه العقائد ، وما اليها من العقائد الأخرى التى يقوم عليها الإسلام !

بل إن المسلمين ، الا قليلا ممن لا ينظر الى خلافه ، متفقون على تقديم نظر العقل الصحيح على ظاهر الشرع الذى ورد به النقل إذا تعارضا ، مع التسليم بصحة المنقول وتفويض المراد به لله العليم الحكيم ، أو تأويله تأويلا وفق قواعد اللغة بما يتفق مع ماأثبته العقل (١) .

وهذا ما يتفق مع ماذهب اليه الإمام الغزالى فى كتابه « معارج القدس » ، من أن العقل كالأساس والشرع كالبناء ، ولن يغنى أساس مالم يكن بناء ، ولن يثبت بناء مالم يكن أساس .

هذا ، ونختم البحث فى هذه الناحية بذكر أنه بفضل أن الاسلام هو دين الفطرة السليمة ، وأن كل ماجاء به عقائد وعبادات معقول وواضح ولا عسر فى فهمه ، لم يتعرض هذا الدين الحنيف لهزة من الهزات الكثيرة العنيفة التى تعرض لها الدين المسيحى ، بسبب مافيه من عقائد وأسرار يعز على العقل إدراكها .

وكان بفضل تلك الخاصية أيضا أنه ــ كما يذكر « كيتانى » المؤرخ الإيطالى المعروف ــ لما أهلت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية التى اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، ونزعت عقائدها الأساسية ، واستولى على رجالها الريب والشكوك ، لما صار الأمر هكذا ، لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك ، وقدم مزايا جليلة الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لاتقبل الجدل . وحينئذ ، ترك الشرق المسيح ، وارتمى فى أحضان نبى العرب (٢) .

ونقول بعد هذا بأن ذلك كان فى أول الزمان ، بفضل تلك الخاصية التى يتميز بها الإسلام ، وسيبقى الأمر كذلك الى آخر أيام هذه الحياة الدنيا ، وسيجد

---

(١) راجع الاسلام والنصرانية للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . ص ٥٦ ــ ٥٧ . وقانون التاويل للامام الغزالى فى مواضع مختلفة . ونحو رسالة لطيفة .

(٢) حوليات الاسلام . جـ ٢ : ١٠٤٦ .

الناس دائما وأبدا وفى كل مكان أن الإسلام هو الدين الوحيد الخالد الذى يجتذب إليه الناس بفضل مافيه من وضوح بجانب خصائصه الأخرى .

٦ - دين الحرية والمساواة

ومن خصائص الإسلام أيضا أنه دين الحرية بكل ما لهذه الكلمة من معان ومدلولات عند الغربيين وعند العرب على السواء . ذلك بأن « أوجست كونت » ، الفيلسوف الاجتماعى المعروف ، يقول : إن أحسن مايكون لنا من حرية هو أن نعمل بقدر استطاعتنا على سيادة الميول الطيبة على الميول السيئة .

كما يرى « هيمون - Hemon » أن الحرية هى سيطرة الإنسان على نفسه ، وهذا يكون بعمل العقل المفكر والإرادة ضد الشهوة والهوى .

وقبل هذين يقول « ابيكتتوس » ، الفيلسوف الروائى المعروف ، إن على من يريد أن يكون حرا ألا يخاف أو يرجو شيئا يملكه غيره ، وإلا فلن يكون حتما الا رقيقا .

ونعلم بجانب هذا وذاك كله ، أن الحرية تشمل فيما تشمل أيضا تحرير العقل من الضلالات والتقاليد الباطلة ، وتحرير الضعيف من سلطان القوى وجبروته ، وتحرير الفكر والإرادة والعمل ، مادام هذا لا يضر بالغير ولا بالصالح العام .

تلك هى المعانى الجديرة بالذكر لكلمة « حرية » فى التفكير الغربى والشرقى ، والاسلام قد جاء بتقرير هذه الحرية فى كافة ضروبها وألوانها .

إنه حرر الانسان من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تحس ولا تملك لأحد نفعا ولا ضرا ، ومما كان عليه الآباء والأسلاف من ضلالات وتقاليد ليست من الحق فى شىء ، ولا تتفق والتفكير الحق للعقل السليم .

وفى هذا نراه ينعى بقوة على الذين كانوا يقولون إذا دعوا الى الايمان الصحيح : « **هذا ماوجدنا عليه آباءنا** » ويقيدون بذلك أنفسهم وعقولهم بما كان عليه هؤلاء الآباء والأسلاف من العقيدة الباطلة والتفكير الضال ، غافلين عما ينبغى أن يكون لهم من حرية الفكر والاعتقاد ، وفى اتباع الحق متى هدوا اليه .

وبعد هذا ، نجد الاسلام يلفتنا بقوة الى أنه ليس من العقل أن يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، وفى ذلك يأمر الله تعالى رسوله أن يقول للكتابيين الذين صموا آذانهم عن دعوته : «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » آل عمران ٦٤ .

وفى هؤلاء الكتابيين : اليهود والنصارى ، يذكر الله عنهم أنهم « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » التوبة ٣١

وبعد ذلك نرى الإسلام يحرر الضعيف من القوى وسلطانه ، فقد كان العرب ، وغيرهم من الأمم السابقة ، يحرمون من الميراث الضعيفين : المرأة والأولاد الذكور الصغار ، كما كانوا لا يورثون الزوجة ، بل يعتبرونها نفسها من جملة ماتركه الزوج من ميراث .

ويعلل العرب ذلك بأن الميراث لايكون إلا لمن « يطيق القتال ويحوز الغنيمة » ، ولهذا عجبوا أشد العجب عندما جعل القرآن لكل من هذه الأصناف : الزوجة ، والبنت ، والصغار من البنين نصيبا مفروضا فى الميراث . ولكن الاسلام عنى هكذا بإبطال ماكان عليه العرب فى هذه الناحية ، وبذلك حرر هؤلاء الضعفاء بفطرتهم أو بسبب سنهم من عسف الأقوياء .

واذا تركنا ناحية الميراث ، نجد القوى بصفة عامة يعتز بقوته وأسبابها على تنوعها ، ويندفع بحكم طبيعته الى الاعتداء على الضعيف بغير حق حتى أنه ليستذله ويستعبده ، ونجد هذا فى قديم الزمن وحديثه ، وفى الأفراد والجماعات والأمم على السواء .

فجاء الإسلام عاملا قويا لتحرير الضعفاء من سلطان الأقوياء وعسفهم وجبروتهم ، ونجد هذا واضحا تماما فى كثير من آى القرآن وأحاديث الرسول ، وفى سيرته صلى الله عليه وسلم ومعاملته لأصحابه .

وها هو ذا خليفته الأول ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى أول خطبة له بعد أن اختاره المسلمون للخلافة : الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ

له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ·

وبجانب هذا ، نذكر كلمة الخليفة الثانى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، هذه الكلمة التى ستبقى مجلجلة أبد الدهر ، وهى : ياعمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! وقد قالها لعمرو بن العاص والى مصر حين ضرب ابنه رجلا قبطيا مستضعفا ، فذهب شاكيا للخليفة فأمر باستحضار المعتدى واقتص منه للمصرى الضعيف ·

وقد ذهبت هذه القولة مثلا سائرا ، حتى اليوم والى الأبد ، فى المساواة بين الناس جميعا بلا فرق بين قويهم وضعيفهم ، ولنا من هذا أن نقرر أن الإنسانية مدينة بمبدأ « الحرية والإخاء والمساواة » للاسلام ، لا للثورة الفرنسية كما يزعم الجاهلون بالإسلام وتاريخه ، أو المغرضون المتحاملون على الدين الذى رضيه رب العالمين للناس جميعا ·

ولم يكن هذا الصنيع فلتة من سيدنا عمر لا ثانى له ، بل إن مبدأ المساواة بين الناس والاقتصاص من القوى للضعيف كان من المبادىء التى قام عليها حكمه ، ولا عجب ! فان هذا ما يأمر به القرآن ، وما سار عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفة الأول من بعده ·

لقد كان الفاروق اذا بعث واليا أو عاملا على بعض المسلمين يقول : اللهم إنى لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ، ولا ليضربوا أبشارهم (١) ، من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى ·

وكان من خطبته يوم جمعة أن قال : اللهم أشهدك على أمراء الأمصار أنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وأن يقسموا بينهم فيئهم ، وأن يعدلوا ، فان أشكل عليهم شىء رفعوه الى ·

وفى بعض خطبه فى مناسبة من هذه المناسبات ، قال : فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه الى ، فو الذى نفس عمر بيده لأقصنه منه · فوثب عمرو بن العاص فقال : ياأمير المؤمنين ! أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على

---

(١) اى اجسامهم ·

رعية ، فأدب بعض رعيته ، إنك لتقصنه منه ؟

قال عمر : اى والذى نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه ، وكيف لا أ قصنه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه !

وبعد هذا نجد الاسلام ينعى بشدة على من يتبع هواه فيما يميل به اليه ، ويجعل شهواته تسيطر على عقله وهو أكرم عنصر فيه ، ويحذر من سوء عاقبة من كان هذا شأنه ، هذا المصير الذى قد يؤدى به الى الضلال وعذاب السعير.

وفى هذا ، يقول الله جل شأنه فى سورة الجاثية : « أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » الآية ٢٣

ان من الحرية الحقة ألا يستعبد الانسان هواه وغرائزه وشهواته ، وألا ينزل فيما يأتى ويذر إلا على حكم عقله الرشيد ، وهذا مما ألح عليه الاسلام فى القرآن وعلى لسان الرسول والصحابة والتابعين.

فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ما أكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه الى هدى ويرده عن ردى** » أى عن هلاك ، اذا تحرر صاحبه من هواه ، واتبع دائما صوت العقل السليم والضمير المستقيم.

كما روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : أخاف عليكم اثنين : اتباع الهوى وطول الأمل ، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق ، وطول الأمل ينسى الآخرة (١).

ومن احتفال الاسلام بالحرية لكل مخلوق أنه لا يجعل بين الله وعباده وسطاء من رجال الدين يحللون له ويحرمون ، ويحلونه من ذنوبه ، كما نرى الأمر فى المسيحية. بل جعل لكل من الخلائق أن يتصل هو نفسه بالخالق جل وعلا ، وأن يناجيه ويستغفره من ذنوبه إن تاب توبة صادقة ، فهو وحده الذى يسمع

---

(١) راجع فى هذا وفى الحديث النبوى السابق عليه ، ص ٤ و١٢ من كتاب ادب الدنيا والدين للامام ابى الحسن البصرى الماوردى ، الطبعة الثانية الاميرية سنة ١٩٠١ م.

السر والنجوى ، ويجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويغفر لمن يشاء ، كما جاء فى القرآن الكريم .

ومن عناية الاسلام بالحرية فى ناحية العقيدة ، أن الله أرسل رسوله عليه الصلاة والسلام هاديا ومبشرا ونذيرا فحسب ، ولم يجعل له سلطانا على أن يكره أحدا من الناس على الإيمان به وبرسالته .

وليس أدل على هذا من قوله تعالى فى سورة البقرة ، « لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ » الآية ٢٥٦ . وقوله فى سورة يونس ، « وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ » الآية ٩٩

وكذلك نرى ، من عناية الاسلام بالحرية وأنه قدرها حق قدرها ، أن الفقهاء يقولون بأنه إن وجد صبى غير معروف نسبه مع مسلم وكافر ، فقال الكافر هو ابنى ، وقال المسلم هو عبدى ، يحكم بحريته وبنوته للكافر (١) . وذلك لأنه بهذا ينال الحرية حالا ، والإسلام فيما بعد حين يكبر ويفهم الدلائل على وجود الله تعالى وبعثة رسوله المصطفى بالاسلام أكمل الأديان .

وأخيرا ، نعود الى التقليد وخطره الكبير ، ولكن من ناحية أخرى ، هى ناحية الفقة ومعرفة الأحكام الشرعية ، فان فى هذا التقليد جمودا وحجرا على العقل وحريته فى الاجتهاد متى كان المرء مستعدا له واجتمعت له أدواته ، وذلك مع أن الاسلام يأمر به « الاجتهاد » ، والرسول يحث عليه ويرضاه من أصحابه

وقد كان الاجتهاد من العوامل المهمة فى مرونة الفقه الإسلامى وتطوره ، وفى نشأة المذاهب الفقهية المعروفة المنتشرة في العالم الاسلامى اليوم ، وغيرها من المذاهب الأخرى الكثيرة التى اندثرت ، اذ لم يبق لها أتباع ينصرونها .

ولكنا ، بكل أسف وألم ، منينا منذ قرون طويلة بالجمود وتقليد مذاهب معينة ، لأنهم زعموا أن باب الاجتهاد قد أقفل من زمن بعيد !

---

(١) راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ، الطبعة الاميرية الثالثة سنة ١٣٢٥ هـ ، جـ ٤ : ٤٦٥ ـ ٤٦٦ .

يزعمون هذا ، ويوجبون تقليد أحد هذه المذاهب ، مع أن أئمة هذه المذاهب أنفسهم قد نهوا عن التقليد ، ونقل هذا النهى عن الإمام أبى حنيفة وغيره .

ومن ذلك قول الإمام الشافعى كما ذكره عنه البيهقى : « مثل الذى يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة من حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدرى » ! (١) والإمام أحمد بن حنبل يقول : « لا تقلدنى ، ولا تقلد مالكا ولا الثورى ولا الأوزاعى ، وخذ من حيث أخذوا » ؛ أى من الكتاب والسنة .

ويذكر اسماعيل المزنى فى أول مختصره فى الفقه ، أنه اختصره من علم الشافعى ليقربه على من أراده ، مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره ، لينظر فيه لدينه ويحتاط لنفسه (٢) .

أين هذه الحرية فى التفكير التى يحبها الله ورسوله ، والتى قام عليها صرح الفقه والعلم الاسلامى بصفة عامة ، مما يريد البعض منا هذه الأيام من الوقوف دائما فى حدود المذاهب المعروفة ، وعدم جواز الاجتهاد حتى لمن يستطيعه ، ومع الحاجة الشديدة هذه الأيام للاجتهاد !

٧ ـ دين الانسانية عامة

والإسلام هو خاتم الرسالات الالهية من السماء الى الأرض ، ومن أجل هذا وجب أن يكون دينا عالميا للناس جميعا ، وأن يكون فى طبيعة هذه الرسالة ما يجعلها حقا صالحة للإنسانية فى كل عصر وجيل وزمان ، وأن يكون أيضا فى شخصية الرسول وسجاياه وخلائقه ما يجعله الرسول المصطفى لعباد الله جميعا ، فيجد كل إنسان فيه مثله الأعلى الذى يرى اصطناعه لنفسه ، ليكون دليله فى الحياة ومنارته التى يهتدى بها .

ولذلك كله ، نجد الله تعالى عن نبيه فى القرآن الكريم : « **وإنك لعلى خلق عظيم** » . القلم الآية ٤ . « **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** » . آل عمران ـ ١٥٩ .

---

(١) (٢) راجع فى هذه النقول . اعلام الموقعين لابن القيم جـ ٢ : ١٣٩ . من طبعة منير الدمشقى بالقاهرة بلا تاريخ وفى اربعة اجزاء .

« لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » التوبة ـ ١٢٨

ويقول عن طبيعة رسالته ومداها : « وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ » . الانبياء ـ ١٠٧ « وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » سبأ ـ ٢٨ « تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا » الفرقان آية ١

كما يأمره صلوات الله وسلامه عليه أن يتوجه للناس جميعا لا للعرب وحدهم بقوله : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » الأعراف ـ ١٥٨ « قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » . الحج ـ ٤٩

أما قبل الاسلام فقد كان الأمر على غير ذلك ، فهؤلاء مثلا أنبياء بنى اسرائيل لم يتوجهوا بدعواتهم الا لبنى جلدتهم وأمتهم ، ولهذا لم تتجاوز هذه الدعوات بلاد الشام أو مصر أو العراق

ومن الحق الثابت تاريخيا أن قد وجد فيما بعد من حمل رسالة عيسى عليه السلام الى الرومان وغير الرومان ، أى تجاوزوا بها بنى اسرائيل ومهدها الأول الذى نشأت فيه . ولكن من الحق أيضا ، أن أنبياءها ودعاتها الأولين لم يخطر لهم أن يجعلوها رسالة عامة للبشر جميعا ، وها هى ذى صحف حياتهم وسيرهم شاهد صدق لهذا الذى نقول .

وهنا ، نرى من الخير أن ننقل كلمة طيبة للعالم المحقق الأستاذ سليمان الندوى ، وهذا اذ يقول « ١ » : « ان بنى اسرائيل قصروا الدنيا على أنفسهم فجعلوها محدودة بحدود دويلاتهم ، بل زعموا أن الله العالمين هو الله أمتهم وحدهم ، وخصوه تعالى بأنفسهم من دون الناس »

لذا نرى أنبياء بنى اسرائيل وأسفارهم لم تعم دعوتها لغيرهم من الأمم ، ولا تزال الشريعة الموسوية والدين اليهودى مقصورين على الاسرائيليين لا يتجاوزانهم الى غيرهم ، وأسفارهم لا تخاطب سواهم ولا تدعو لالههم الا أسباطهم ، بل ان عيسى لم يرع إلا غنم بنى اسرائيل الضالة ، ولم يبلغ رسالته إلا فى قراهم وأرضهم والمنسوبين إليهم »

---

(١) الرسالة المحمدية ، طبع المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ ص ١٤١ .

ولنا أن نضيف الى هذا أن القرآن يؤكد ماثبت تاريخيا من أن رسالات الأنبياء والرسل السابقين كانت خاصة ، فكان كل رسول يرسل الى قومه وحدهم ويكفى أن نذكر فى ذلك ، من باب التمثيل ، قوله تعالى فى سورة هود : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه » . المؤمنون ـ ١٣ « وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا » الأعراف ـ ٦٥ . « وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا » الأعراف ـ ٧٣ « وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » الأعراف ـ ٨٥

كما يقول فى سورة الروم بصفة عامة : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ » الآية ٤٧ أى كل رسول الى قومه وفى سورة الرعد « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » الآية ٧ .

ولكن الرسالة الاسلامية ، كما قلنا من قبل ، هى الأولى والأخيرة التى جعلها الله للناس كافة : أحمرهم وأصفرهم ، وأبيضهم وأسودهم ، عربا كانوا أو عجما . فهى خاتمة رسالات الله للعالم كله والناس جميعا ، الى أن تنتهى هذه الحياة ، ومن ثم يكون طبيعيا أن تكون عامة شاملة .

وقد كان صاحب هذه الرسالة صلى الله عليه وسلم مدركا كل الادراك الفرق الكبير بينه وبين إخوانه وأسلافه الأنبياء من هذه الناحية ، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولن يكون بعده رسول آخر الى آخر الزمان ، ولهذا يقول فيما رواه الشيخان الامام البخارى والامام مسلم :

« ان مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يلفون به ويعجبون له ويقولون ، هلا وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »

وهو كذلك يفهم حق الفهم المهمة العظيمة التى ألقاها الله على عاتقه ، ويعمل كل ما يستطيع لتعميم رسالته العظمى ، ولذلك نراه ينتهز فرصة صلح « الحديبية » لتبليغ هذه الرسالة لكل العالم المعروف حين ذاك .

ومن ثم نراه يرسل الكتب لملوك البلاد المجاورة ورؤسائها ، يدعوهم فيها الى الإسلام الذى جعله الله الرسالة الأخيرة والعامة للعالم كله ، فهذا « دحية » الكلبى يرسله الى « هرقل » قيصر الروم ، وعبد الله بن حذافة السهمى يرسله الى خسرو أبرويز كسرى الفرس ، وحاطب بن ابى بلتعة الى المقوقس عزيز مصر ، وعمرو

ابن أمية الى النجاشى ملك الحبشة ، وشجاع بن وهب الأسدى الى الحارث الغسانى ملك تخوم الشام .

كما بعث عمرو بن العاص الى ملكى عمان ، وسليط بن عمرو الى ملكى اليمامة ، والعلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، والمهاجر بن أبى أمية المخزومى الى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن .

وهكذا ، أرسل الرسل الى الملوك والأمراء يبلغهم رسالته العامة الشاملة ، ويدعوهم الى الاسلام وما جاء به من هدى ونور للانسانية جميعا (١) .

هذا ، وقد كانت مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم آية أخرى على عالمية رسالته ، وذلك بما كانت تضم من تلاميذ ومريدين مختلفى القومية والجنس . فهؤلاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير الى كثيرين غيرهم من قريش وهذا أبو ذرمن تهامة من قبيلة غفار وهذا أبو هريرة من أوس إحدى قبائل اليمن ، وهذا أبو موسى الأشعرى من قبيلة أخرى من اليمن ، وهذا ضماد بن ثعلبة من قحطان من قبيلة الأزد ، وهذا خباب بن الأرت أخو بنى تميم ، وهذان منقذ ابن حبان ومنذر بن عائذ من البحرين .

ثم مع هؤلاء جميعا ، نجد فروة بن معان من الشام ، وبلال من الحبشة ، وصهيب من الروم ، وسلمان من فارس ، وفيروز الديلمى وهكذا ، نرى المدرسة المحمدية مفتحة للواردين اليها من كل أمة ، ومن شتى طوائف البشر .

وبعد هذا وذاك كله ، كان خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وسلم عليهم جميعا ، بشخصه الكريم العظيم ، وكان بما جمع الله له من نبيل الخلائق والسجايا ، مثلا أعلى لكل ماتفرق فى إخوانه الأنبياء من المثل العليا للخير والحق .

ففيه ماكان فى نوح من الشدة والغيظ على الكفار والمشركين ، وما كان فى

---

(١) وراجع فى ذلك سيرة ابن هشام . جـ ٤ : ٢٧٨ ـ ٢٧٩ وفيه انه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه حين بعثهم « ان الله بعثنى رحمة وكافة . فادوا عنى رحمكم الله » .

ابراهيم من الثورة والجهاد فى تحطيم الأوثان والأصنام ، وما كان فى موسى من العمل على سن السنن الصالحة والشرائع الحكيمة التى يجب أن يأخذ بها المؤمنون ، وما كان فى عيسى من خفض الجناح والعفو والمحبة حتى كان يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »

وكذلك نرى فيه ماكان يمتاز به أيوب من الصبر على المكاره والشدائد ، والشكر على النعمة والعافية بعد الابتلاء ، وما تميز به يوسف من الصبر على الاغواء ، والدعوة الى الحق الذى جاءه من عند الله وهو يعانى شدة الأسر وبلاء السجن ، وما نراه فى يعقوب من طرد اليأس وقد استحكمت حلقاته ، والثقة بالله والتوكل عليه .

وهكذا نرى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بشخصه العظيم وسيرته العطرة الزاكية الجامعة ، جامعا لكل هذه المثل وما إليها ، مع الارباء فى كل منها على إخوانه الأنبياء والمرسلين ، حتى إنه ليجد كل من أتباعه وأصحابه فيه المثل الأعلى الذى يصطفيه لنفسه ويحاول الدنو منه والتمثل به .

وفى ذلك دليل ، أى دليل ، على عموم رسالته ، وعلى أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، فلا نبى ولا رسول بعده ، ففيه وفى رسالته الجامعة الشاملة نور وهداية لكل من أراد لنفسه الهدى فى كل مكان وزمان .

٨ ـ دين ودولة

وأخيرا ، ومن أجل أن الاسلام دين للإنسانية جميعا، وأن الله شاءت حكمته أن يكون الرسالة الالهية الأخيرة للعالم كله حتى يرث تعالى الارض ومن عليها ، لم يترك أمته يتخذون ما شاءوا من شرائع وقوانين يتحاكمون إليها فى كل اعمالهم وتصرفاتهم فى شتى نواحى الحياة ، بل إنه قد جاء بالنظم والقوانين التى يقوم عليها المجتمع ولا يصلح إلا بها فى كل زمن ومكان ، وبلا فرق بين أمة وأخرى .

وذلك ، بأن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط ، ولا نظاما أخلاقيا فحسب ، بل هو « دين ودولة » بكل ما تتسع له كلمة « دولة » من معنى ومدلول .

إن الإسلام نظام شامل وكامل بلا ريب ، فهو يحكم الإنسان وتصرفاته فى كل حالاته ، فى خاصة نفسه ، وفى علاقته بالله تعالى ، وفى صلته بأسرته ، وفى علاقاته العديدة المختلفة بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وفى علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى · فهو ينظم كل هذه الاحوال والعلاقات ، وذلك ببيان الأصول والمبادىء العامة التى تقوم عليها ، والقواعدة والقوانين والنظم التى تحكمها على اختلاف انواعها ·

ومن الحق أن الدين الموسوى قد جاء بالقليل من قواعد المعاملات وأحكامها ولكن جاء فى بعضها من الشدة البالغة ما لا يصلح الا لليهود غلاظ القلوب والأكباد ، فجاء الاسلام وخفف من شدتها ، ووسع ما ضاق منها ، وزاد عليها ماكان ينقصها ·

وبذلك يكون الاسلام قد أتى بما يصلح حقا أن يكون أصولا وشرائع كاملة لقيام الدولة على أسس معقولة ومقبولة ، ووافية بحاجات أى مجتمع فى أى زمان أو عصر ·

وبفضل هذا لم تكن الأمة الاسلامية بحاجة قط الى اقتباس القوانين من أية أمة أخرى ، على خلاف ما نرى عند اليهود والمسيحيين من حاجتهم الى أخذ قوانينهم عن الأمم الوثنية كالرومان ، وذلك لخلو كتبهم المقدسة من الشرائع الصالحة لبناء الأمة والدولة ·

٩ ـ تقريره حقوق الإنسان

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الذى قرر ـ منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ونصف قرن من الزمان ـ هو الذى قرر للانسان كل حقوقه ، وأعلن ذلك فى صراحة وقوة للناس جميعا ، وكان هذا عن الله تعالى ، لأنه هو الذى أرسله لتحرير الإنسان ، ورحمة للناس جميعا ، برسالة قدر لها أن تكون عامة وخالدة على مر الأزمان ، وأن ترسل الضوء والنور فى كل مكان ·

ان الله جل شأنه وتعالى أمره ، وهو العليم بما يصلح البشر كافة ، والحكيم فيما شرع من أصول ومبادىء وشرائع ، هو الذى أوحى الى رسوله العظيم ، على

نشأته يتيما فقيرا أميا ، قوله تعالى « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » الحجرات ـ ١٠ وقوله ، « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ » الحجرات ـ ١٣، وقوله « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ » الاسراء ـ ٧٠

وأكد الرسول نفسه هذه المعانى السامية بقوله ، « الناس سواسية كأسنان المشط » ، وقوله ، « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، وعلل هذا بقوله « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .

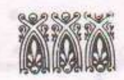
وهكذا جاء الاسلام بمقاييس جديدة للكرامة والفضل والأخلاق النبيلة . على حين نجد اليهود والنصارى يقولون ، « نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ » المائدة ـ ١٨ ، ويجعلون رحمة الله ورضوانه مقصورين عليهم اذ يقولون ، « لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ » . البقرة ـ ١١١

وعلى حين كان الرومان يزعمون أنه من الطبيعى أن يكونوا حكام العالم ، وغيرهم ليسوا إلا برابرة وخدما لهم ، وأن العرب كانوا يرون أنهم وحدهم أهل افصاحة والبلاغة واللسن ومن سواهم ليسوا الا عجما ، وأن البراهمة كانوا يعتقدون أن الله خلقهم من أشرف جزء فيه ، وخلق المنبوذين من أدنى أجزائه ، وشتان بين الرأس والقدم ! كما كان الامر بصفة عامة ، قبل أن يشرق الاسلام بنوره على العالم والإنسانية جميعا ، أن التفاضل والامتياز إنما هو بالجنس أو الدين ، وبالنسب أو المال وكثرة الأبناء !

ومع تقرير الاسلام الأخوة بين المؤمنين جميعا ، وتكريم الانسان بماهو إنسان على اختلاف أجناسه وشعوبه وألوانه ، نراه يقرر حرية العقيدة ، بقول العليم الحكيم ، « لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ » البقرة ـ ٢٥٦ وقوله « وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ » يونس ـ ٩٩

وكان من أثر هذا ، ما نعرف من احترام عقائد أهل الكتاب ، والتوصية برعايتهم والعدل معهم والبر إليهم ، وضمان حرية القيام بعبادتهم وشعائرهم ، إن كانوا يقيمون معنا فى بلد من بلاد الإسلام .

وكما قرر الإسلام ذلك كله ، قرر كذلك حرية الفكر والرأى ، وكان من هذا ما يعرف التاريخ والعالم كله من كثرة الآراء والمذاهب الإسلامية فى كل نواحى الفكر والمعرفة والعلم ، حتى فى ناحية العقائد والشريعة والفقه الإسلامى ، فلا حجر علي حرية التفكير ، ولا اضطهاد للمفكرين ، وما حدث على القليل النادر من ذلك لم يكن مما يبيحه الاسلام ·



القسم الثاني

العقيدة الإسلامية وعدالة الله ورحمته

الفصل الأول

نشأة علم التوحيد أو علم الكلام وتطوره

نقده وقيمته ، منهج البحث

التوحيد هو اعتقاد وجود الله الواحد الأحد ، الذى لا شريك له فى ذاته أو صفاته أو أفعاله ، والذى بعث الرسل لهداية العالم والإنسانية الى طريق الخير ، والذى يسأل العبد فى الحياة الأخرى ويجزيه على ما عمل فى الحياة الدنيا من خير أو شر .

وعلم « التوحيد » المعروف فى الإسلام هو العلم بهذه العقائد الدينية ، والعقائد الأخرى المتصلة بها ، التى يصل إليها الإنسان بالأدلة اليقينية العقلية والوجدانية . ومن ثم ، كان هو العلم الذى يحتج لهذه العقائد ، ويرد على المنكرين لها ، والمخالفين فيها ، والمنحرفين عنها .

١ - نشأته وتطوره

وقد نشأ هذا العلم فى الإسلام ، كما فى الأديان الأخرى السابقة ، لعوامل اقتضت نشأته ، ثم جد ما جعله يتطور من حال الى حال .

ولم ينشأ هذا العلم كاملا مرة واحدة ، بل كان شأنه شأن العلوم الإسلامية الأخرى ، محدود الدائرة فى أول أمره ، ثم أخذ يتسع وينمو شيئا فشيئا تابعا فى هذا سنة النشوء والارتقاء ، ومتأثرا بعوامل متعددة مختلفة عملت على إنمائه وتطوره ، حتى نضج وكمل وصار على ما نعرف اليوم .

وكان من هذه العوامل ما يتصل بالقرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يتصل بمن دخل فى الإسلام من أبناء الأمم المختلفة فى العقلية والثقافة ، وما يتصل بما نقل الى الاسلام من فلسفة اليونان وغير اليونان .

فالقرآن ، وهو الكتاب الأول للاسلام ، يدعو الى التفكير والنظر بالعقل والملاحظة بالحواس ، وينعى على التقليد والمقلدين وبخاصة فى العقائد الدينية ولهذا ، كان لابد للمسلمين من أن يجيلوا العقل فى القرآن وفى سنة الرسول وأحاديثه التى جاءت تقريرا للقرآن وإيضاحا وبيانا له ، وكانوا يسألون الرسول فيما لا يفهمونه أو لا يعرفونه فيهديهم سواء السبيل .

ولما لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وظهرت مشكلة الخلافة ولمن تكون بعده ، وحدثت فتنة عثمان وعلى رضى الله عنهما ، كان ذلك مما استدعى الخلاف والجدل والحجاج ، وذلك حتى يتضح الحق فيما اختلفوا فيه .

اختلفوا أولا فى « الإمامة » وشروطها ، ومن هو الذى يكون صاحب الحق فى إمامة المسلمين عامة ، فكان منهم الشيعة الذين يقصرونها على سيدنا على وذريته والخوارج ـ ومعهم المعتزلة ـ الذين يرونها حقا لأصلح المسلمين لها ولو كان عبدا أو غير عربى ، والمعتدلون ـ وهم الجمهور الأعظم ـ الذين يرونها للأصلح لها من قريش ، لما ثبت عندهم من أن الرسول نفسه قال : « الأئمة من قريش »

ثم اختلف المسلمون فيما بينهم بعد أن اشتد القتال بينهم بعد قتل سيدنا عثمان ـ فى « الكبيرة » ماهى ، وفى حكم مرتكبها أمؤمن هو أم كافر ، واستتبع هذا طبعا أن يختلفوا فى « الإيمان » وحده وتعريفه وبيانه ، فكان من الخلاف : خوارج ، ومرجئة ، ثم فيما بعد معتزلة .

وهكذا ، اصبح هذا الخلاف خلافا دينيا بعد أن كان أول أمره سياسيا ، فصار من مسائل علم التوحيد المهمة ، كما صارت مسألة « الخلافة » أو « الامامة » من مسائل هذا العلم أيضا ، مع انها أليق بعلم الفقه لأنها من الأحكام العملية دون الاعتقادية .

وذلك أن قصاراها أنها قضية مصلحية تتعلق بمن يصلح لإدارة أمور المسلمين ، لا اعتقادية تتعلق بأصل من أصول الدين . ولكن لما كان لبعض الفرق الإسلامية آراء فيها تكاد تفضى إلى رفض كثير من قواعد الإسلام ، ألحقها رجال علم « التوحيد » به ، لتبحث بحثا بعيدا عن العصبية والهوى ، وليتبين فيها الحق من الباطل صوناً للعقائد الدينية الصحيحة .

ولما استقر المسلمون بعد الفتوحات ، ودخل من دخل فى الإسلام من أصحاب الديانات المختلفة الإلهية وغير الإلهية ، أو صار مع احتفاظه بدينه يعيش بين المسلمين وفى ظل الإسلام ، أثار بعض هؤلاء وأولئك كثيرا من عقائد دياناتهم الأولى ، وصاروا يتجادلون حولها ويجادلون المسلمين فيها . ثم كان أن نقلت هذه الفلسفة وغيرها من الفلسفات القديمة بما فيها من مشاكل تدعو إلى التفكير العقلى العميق .

فكان من هذا وذاك أن دخلت مسائل كثيرة أخرى فى علم « التوحيد » ، ومنها ما يتعلق بالله وصفاته ، وما يتعلق بالصلة بين الله والإنسان من ناحية أنه مجبور على ما يعمل أو له حريته واختياره ، وما يتعلق بالنوبات والحاجة الى الانبياء والمرسلين ، وما يتعلق بالحياة الأخرى والجزاء فيها ، إلى غير ذلك كله من المشاكل الفلسفية المعروفة .

ومن أجل ذلك كله ، ولعوامل أخرى ليس هنا محل بيانها ، نجد المسلمين يعكفون على التعمق فى فهم القرآن وأحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ المتعلقة بهذه المسائل . ويستعرضون الآيات والأحاديث الخاصة بها ويحللونها ، ويحاول كل فريق أن يستدل لما يذهب إليه فى كل من هذه المسائل بالآيات والأحاديث ، فيفسرها ويؤولها لتدل لما يرى ، وذلك على النحو الذى سنعرف فيما بعد نماذج منه . وصار ذلك كله من صلب علم التوحيد .

ومن ناحية أخرى ، لما استفحل شر الملاحدة الذين كان دأبهم نشر الالحاد والآراء الضالة بين المسلمين ، وترجمة كتب « الثنوية » وغيرهم من اصحاب المقالات الباطلة ، انتدب علماء التوحيد من المسلمين أنفسهم لدحض تلك المقالات والآراء . وكان حامل لواء هذا الدفاع طائفة من نبغة أهل السنة والمعتزلة فألفوا لهذه الغاية الجليلة الرسائل والكتب التى تشهد لهم بطول الباع وحسن البلاء .

٢ - نقده وقيمته

لما اتصل المسلمون بالفلسفة اليونانية كما أشرنا اليه ، ونقلت كتبها للغة العربية ، أقبل عليها المسلمون إقبال النهم ، فمنهم من أخذ منها ما ينفع به دينه وما يصلحه فى اخلاقه وتفكيره ، ومنهم من أعطى لعقله الحرية الكاملة فلم ير حدودا للتفكير إلا حدود المنطق الذى قد يخدع ويضل .

وكان من هذا أن اختلط علم التوحيد أو الكلام بالفلسفة اختلاطا كبيرا أضر بالعقيدة ، فكرهه كثير من رجال الدين ورأوا تحذير العامة منه ، إلا أن منهم من غلا فى هذا غلوا كبيرا .

يروى ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ عن الامام الشافعى أنه قال : « لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك ، خير له من أن ينظر فى علم الكلام » ! كما روى عن الامام أحمد بن حنبل أنه قال : « لا يفلح صاحب « كلام » أبدا ، علماء الكلام زنادقة » (١) .

والمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ يذكر فى خططه ، فى فصل عقده لبيان الحال فى عقائد المسلمين إلى ان انتشر مذهب أبى الحسن الاشعرى ، أنه تبع المعتزلة فى بدعهم خلق كثير فنهى أئمة الاسلام عن مذهبهم ، وذموا « علم الكلام » وهجروا من ينتحله .

ويختم هذا المؤلف هذا الفصل بقوله : « فهذه جملة من اصول عقيدته ـ أى عقيدة الأشعرى ـ التى عليها الآن جماهير أهل الامصار الإسلامية ، والتى من جهر بخلافها أريق دمه » .

وبعد هذين نجد « طاش كبرى زاده » المتوفى سنة ٩٦٢ هـ ، يذكر أن كثيرا من فقهاء عصره أنكروا على المشتغلين بهذا العلم أشد الانكار ، وانه لهذا يجب التفرقة بين علم الكلام الذى دخل فيه من الفلسفة ما لا يتفق والكتاب والسنة ،

---

(١) تلبيس ابليس ، مطبعة النهضة بالقاهرة سنة ٩٢٨ هـ ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لطاش كبرى زاده ، جـ ٢ : ٢٦ .

وبين علم الكلام المؤسس على الكتاب والسنة فى مسائله ، والأول هو الذى يجب إنكاره وذمه دون الثانى (١) .

ونعتقد بعد ذلك أن هؤلاء وأمثالهم قد أسرفوا فى ذم هذا العلم والتنفير منه ، ولكن نعتقد ايضا أنه كان لهم بعض العذر فيما ذهبوا اليه .

ونرى ، وقد أشرنا إلى تلك الآراء ، أن نشير إلى رأى نوافق عليه كل الموافقة هو رأى خالنا العلامة الشيخ حسين والى المتوفى سنة ١٩٣٦ م ، وقد كان من كبار علماء الازهر ونبغته .

وهذا الرأى ـ كما جاء فى كتاب التوحيد ـ هو أن دراسة القرآن ، لفهم العقائد الدينية والتدليل عليها ، أولى من دراسة كتب علم التوحيد أو الكلام اليوم لأن هذا العلم حدث فى زمن كانت الحاجة ماسة اليه للرد على خصوم الإسلام من الدهريين والزنادقة والملاحدة والمبتدعة .

أما اليوم ، وقد ذهبت تلك الخصوم وجاء خصوم آخرون ، فلا يليق بنا فرض الذاهب حاضرا وترك الحاضر الذى لا يرده إلا كتاب الله ، اذ بينه الراد على وجهه .

وليس من الحزم أن يضيع الانسان عمره فى الاشتغال بخصوم موهومة ، ويترك الخصم الذى ضيق عليه المسالك . وفضلا عن هذا ، فإن كتب علم الكلام فيها حجب كثيفة تمنع النور وتحدث الظلمة ، وربما قضت على اعتقاد ثابت صحيح !

ونزيد على هذا ، أن الأدلة التى كان يحصل بها اقتناع أو تسليم فيما مضى من الزمان ، قد لا يحصل بها هذا فى الزمن الذى نعيش فيه بعد تقدم العلم ، وبخاصة العلوم الطبيعية التى لا تسلم الا بما يقع فى دائرة التجربة والاختبار ، والتى تمدنا حقا بأدلة لا ريب فيها على وجود قوة عليا خلقت هذا العالم وتدبره حسب قوانين طبيعية لا تختلف مطلقا . وبدون هذه القوة ـ أو الله الخالق العليم الحكيم ـ لا يمكن تفسير هذا الكون العجيب .

---

(١) مفتاح السعادة ، جـ ٢ : ٢٣ وما بعدها .

وأن الشاب اليوم الذى ضم إلى الثقافة الإسلامية الدينية طرفا من علم الغرب الطبيعى المادى ، ليس من العقل أو العدل أن نصطنع معه فى الحجاج ما كان أسلافنا يصطنعون من الأدلة فى الجدل مع معاصريهم فى ذلك الزمن البعيد ، أيام كان الدين قوى الأسر وفى شدة عنفوانه ، وفى الحين الذى لم يكن العلم الطبيعى قد وصل الى ما نعرف اليوم من تقدم باهر بعيد الأثر .

ونرى مع ذلك أنه من العجب والغرابة وعدم المنطق ،، أن نعكف على جدل قوم لا نحس لهم ركزا من أصحاب الفرق والمذاهب القديمة ، ونترك أمثال القاديانية والبهائية ، ولهم من النشاط والدعاوة لمذاهبهم الضالة ما هو معروف فى أوربا وامريكا والشرق نفسه .

إن على رجال الازهر أن يطبّوا لداء الإلحاد الذى يقوم كما يرى أصحابه على أساس من علم هذا العصر ، والذى نراه استشرى بين كثرة من العلماء والشبان المثقفين ثقافة علمية عالية .

وأنى لأعرف عددا كبيرا من هؤلاء الشبان ، عرفتهم فى باريس ولندن وهنا بمصر وكلهم من المسلمين أو المسيحيين ، يقولون بأنه لم يقم لديهم الدليل على وجود الله ، ويرون أن تفسير الوجود أو العالم ميسور ، دون اللجوء إلى فرض وجود الله .

واذا سألتهم عن الشبهات التى قامت سدا بينهم وبين اليقين بوجود لله وإذا أخذت فى الجدل معهم مستعينا بكل ما عرفت من كتب علم الكلام وادلتها فى هذا السبيل ، لم تصل منهم الى ما تريد ، وطالبوك بأدلة تستند الى حقائق أو مقررات العلم الحديث (١)

ولسنا نريد بهذا الرأى الذى نتقدم به أن ندعو لعدم دراسة علم التوحيد ، بل الذى نريده هو أن ندلل على وجوب تطور هذا العلم بوجه عام ، وذلك بأن نجدد

---

(١) يسرنا كثير ان نشير فى هذه الناحية الى كتاب « الدين والعلم » للمشير احمد عزت باشا . وقد ألفه بالتركية وترجم بعد ذلك للعربية . وطبع بلجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٨ . وهو كتاب قيم جدير بالدرس .

فى كتبه وأدلته ومشاكله والجماعات التى نرد عليها ، وحينئذ يكون علما لا بد منه ، وينجم عنه خير كثير فى تثبيت عقائد الدين وهداية الضالين ، مادام يكون مناسبا لروح العصر ويساعد على حل مشاكله ٠

٣ - منهج البحث

هذا ، ونستطيع أن نجمل منهج بحثنا فى العقيدة الاسلامية فى هذه الكلمات

١ ـ اتباع طريقة القرآن الكريم والرسول العظيم فى بيان هذه العقائد والتدليل عليها بما يقنع العقل ويرضى الوجدان ويستولى على القلب ، مع الافادة من العلم الحديث الذى كشف أسرار الكون وبديع نظامه ، مما يجعل الاعتقاد بوجود إله عالم حكيم خلق العالم ويقوم بتدبيره ضرورة عقلية ووجدانية ،وأمراً لا بد منه ، تسلم به العقول قبل القلوب ٠

٢ ـ بيان أثر هذه العقيدة ، على تعدد أنواعها فى النفوس وما يصدر عنها من أعمال ، فإن قيمة العقيدة التى تستولى على الإنسان هى فيما تدفع اليه من خير العمل ، وفيما تجنبه من الشرور والآثام ٠

٣ ـ العناية ، حين يستلزم الأمر وفى المناسبات ، برد ما يقوم من الشبهات سدا بين الإنسان والإيمان بما يوجبه الدين من عقائد لا يكون المسلم مسلما إلا بها ، بل لا يكون مؤمنا حقا إلا بأن يصدر فى أقواله وأعماله عنها ٠

٤ ـ الاكتفاء ببيان ما يكون بيانه ضروريا من هذه العقائد ، وذلك مثل : وجود الله ، ووحدانيته ، وعلمه ، وإرادته ، وقدرته ، والرسالات الإلهية والحاجة إليها ، وصلة الله بالعالم الانسان وأعماله ، لنعرف مدى حريته واختياره لها ، ووجود الحياة الأخرى وما يكون فيها من حساب وجزاء ٠

وكل هذا ، على أن يكون البحث موجزا مركزا ، بعيدا عن جدل المجادلين ومصطلحات المناطقة والفلاسفة بقدر الإمكان ، ومن الله التوفيق ٠

الفصل الثانى

وجود الله ومعرفته ، وحدوث العالم عنه

يقول الله تعالى : « قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ » سورة يونس ١٠١ ، ويقول « أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ » سورة الأعراف ١٨٥ .

هذا إذن هو مفتاح الدليل على وجود الله تعالى ومعرفته ، نعنى أن يسلك الإنسان إلى هذا سبيل الانتفاع بحواسه وعقله وتفكيره ، وذلك فى عالم الانسان والحيوان والنبات والجماد ، وفى عجائب خلق الأرض والسموات والقوانين التى تد برها وتحكم امورها ، وفى بدائع ما فطر عليه الحيوان والنبات على اختلاف أجناسها وأنواعها ، وحينئذ يعرف يقينا أن هذا كله لم يكن مصادفة بلا خالق ، بل هو كله من صنع اله قادر حكيم .

ونذكر ، فى سبيل بيان بعض ما أمر الله بالنظر اليه والتفكر فيه ليكون ذلك سبيلا آمنا لليقين بوجود الله ، هذه المجموعات من الآيات :

١ — وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ، وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » سورة الذاريات ٢١ — ٢٢ . « وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ » سورة « المؤمنون » ١٢ — ١٤ .

٢ — « إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ

وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » سورة البقرة ١٦٤ .

٢ ـ « ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ (١) وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (سورة الرعد ٢ ـ ٤) .

فى هذه المجموعات من الآيات القرآنية الكريمة ، يجد الباحث بعقله دلالات واضحة على أن هذا الكون كله ـ وفيه الانسان ـ لم يوجد وحده بلا موجد خلقه من العدم وجعله على النحو الذى نراه ونعلمه حسب ما وصل اليه العلم الحديث حتى اليوم .

وفيها ، كما فى كثير غيرها مما جاء به القرآن ، دعوة قومه الى وجوب النظر العقلى والتفكير فى جميع العالم الذى نراه ونعرفه ، لأن هذا هو الطريق الطبيعى الذى يؤدى الى اعتقاد وجود الله خالق كل شىء .

فهذا الانسان مم خلق ؟ خلق من قطرات من ماء ينزل من صلب الرجل وترائب المرأة حين الاتصال المعروف بينهما ، وهذه « النطفة » المتشابهة الاجزاء حين ينظر المرء اليها ، كان منها الانسان بما فيه من عظام ولحم وعضلات وأعصاب وأوتار وعروق ، ولكل من ذلك وظيفة يقوم بها وعمل يؤديه وكل هذا فى تعاون واتساق عجيب .

فمن الذى جعل ذلك كله من تلك القطرة أو القطرات من السائل المهين ؟ ومن الذى جعل منها كل تلك الأنواع من العظام واللحم والأعصاب وما اليها ؟ ومن الذى جعل منها كل تلك الأجهزة التى لا قوام للانسان بدون

---

(١) صنوان ، جمع صنو ، وهو النخلتان او النخلات يجمعها اصل واحد .

واحد منها : فجهاز للنظر ، وآخر للسمع ، وآخر للشم ، وآخر للذوق ، وجهاز للدورة الدموية ، وجهاز للعقل والفكر ، وجهاز للإحساس .. وهكذا ؟

لا يمكن أن يكون كل هذا وجد من نفسه ، بل لا بد من أن تكون هناك قوة عليا قادرة حكيمة مريدة ، وهذه القوة العليا هى ماندعوه نحن « الله » القادر العليم الحكيم ، الله خالق كل شىء ، الله أحسن الخالقين .

وفى هذا يذكر الامام الغزالى حجة الاسلام ، فى الجزء الرابع والأخير من كتابه العظيم (احياء علوم الدين » انك لو نظرت الى صورة إنسان مصور على حائط ، تأنق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الانسان ، عظم تعجبك من صنعته وحذقه وخفة يده وتمام فطنته ، وعظم فى قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد والحائط ، وبالقدرة والعلم والارادة ، وشىء من ذلك ليس من فعل النقاش ، بل هو من خلق غيره ، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص .

وانظر الى النبات المختلف الأنواع والثمرات والفوائد ، تعيش الطائفة منه فى بيئة واحدة ، ويسقى بماء واحد ، ثم يحتفظ كل نوع منه بلونه وثمرته وطعمه مع التقارب فى النبته والاتحاد فى الغذاء .

وانت ترى « النطفة » القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها فى الاصلاب والترائب ، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها ، وقسم أجزاءها المتشابهة الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى مواضعها وحسن أشكال أعضائها ، وزين ظاهرها وباطنها ، ورتب عروقها وأعصابها ، وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، ثم صيرها أخيرا إنسانا سميعا بصيرا عالما ناطقا .

وهكذا ، بالتفكير فى عجائب الانسان وبديع خلقه وكمال صنعه ، يصل المرء الى الايمان بالله الذى خلقه فأحسن خلقه ، ولا عجب ! فهو صنع الله الذى أتقن كل شىء ، وهو بكل شىء عليم .

وهذه الأرض نراها مسخرة لنا ، وطيعة فيما نريد منها ، فهى لنا فراش ومهاد ونمشى فى مناكبها حيث نريد ، وينزل عليها الماء فتحيا بعد أن كانت

تبدو مواتا ، ويخرج منها عجائب النبات والزروع والغراس وكل زوج بهيج . وقد يخرج منها نخلتان يجمعهما أصل واحد ، وهذا الأصل يسقى بماء واحد ، ويتغذى بغذاء واحد ، ويعيش فى جو واحد بارد أو حار أو معتدل ، ومع هذا كله ، يكون من كل من النخلتين ثمرات مختلفات فى اللون ، ومتفاضلات فى الذوق والطعم ، أليس فى ذلك دليل على صنع اله حكيم ؟ بلى ! وهو على كل شىء قدير .

وبعد هذا ، نجد من الآيات الدالة على وجود الله تعالى ، وعلى أنه هو الذى خلق هذا العالم بأرضه وسمائه وما بينهما ، وأى آيات أعظم من هذا الكون العجيب ، الأرض بما تحمل فوق ظهرها وما تضم فى باطنها ، والسماء وما فيها من أفلاك وكواكب وأجرام .

والليل والنهار يتعاقبان بنظام ليستطيع الانسان الحياة والحركة والسكون ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض وما ينزل منه من ماء به قوام الحياة ، ووجود الهواء والشمس وهما ـ كما نعرف ـ ضروريان لحياة الانسان والحيوان والنبات .. كل ذلك ونحوه أدلة قاطعة بوجود الله القادر المريد العليم الحكيم .

هذا ، وقد فطن « ابن رشد » فيلسوف الأندلس الى أن الاستدلال بالكون والعالم وسائر الموجودات هو الاستدلال الذى يوجد فى القرآن ، وأن من النظر فى ذلك يتبين لنا أن كل ما هو موجود هو من خلق اله حكيم فى صنعه .

وقد أتى ، فى كتابه : « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » ، بآيات كثيرة تدل على ذلك ، ونحن نشير منها الى هذه الآيات :

« **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ، وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ، وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ، وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ، وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ، لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا** » سورة « النبأ » ٦ ـ ١٦

وفى الاستدلال بهذه الآيات ـ كما قلنا فى كتابنا « بين الدين والفلسفة » ـ على عقيدة وجود الله ومعرفته وحدوث العالم عنه يقول ابن رشد : بأن هذه

الآيات اذا تأملها الانسان وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الانسان ·

وذلك بأنه تعالى ابتدأ فنبه على أمر معروف بنفسه لنا جميعا ، وهو أن الأرض خلقت بصفة يتأتى لنا المقام عليها ، وأنها لو كانت بشكل اخر غير شكلها ، أو فى موضع آخر غير الموضع الذى هى فيه ، أو بقدر آخر غير هذا القدر ، لما أمكن أن نخلق عليها ولا أن نوجد فيها ·

وهذا كله محصور فى قوله تعالى : « **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا** » النبأ - ٦ ، وذلك أن المهاد يجمع الموافقة فى الشكل والسكون والوضع ، مضافا الى هذا معني الوثارة واللين ، فما أعجب هذا الايجاز !

ثم نبه الله بقوله : « **وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا** » النبأ - ٧ ، على المنفعة الموجودة فى سكون الأرض بسبب الجبال ، فانها لو كانت أصغر مما هى لتزعزعت ، من حركات الماء والهواء ، وتزلزلت وخرجت من موضعها ، ولهلك ما عليها من الحيوان ضرورة ·

واذن ، فموافقتها لما سيكون عليها من الموجودات ، لم يكن بالاتفاق ، ولكن عن قصد قاصد ، وارادة مريد موجود ، فهى ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه ، وموجودة على الصفة التى قدرها ·

وجاء بعد ذلك قوله تعالى : « **وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا** » النبأ - ١٠ - ١١ ، تنبيها على موافقة الليل والنهار للحيوان والنبات ، إذ الليل يسترها من حرارة الشمس كما يستر اللباس الجسد ويقيه شدة الحرارة · ومع هذا ، فالليل يجعل كل ما فيه حياة يستغرق فى النوم ، ولذلك قال : « **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا** » النبأ - ٩ · أى مستغرقا بسبب الظلام ·

ثم قال جل شأنه : « **وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا** » النبأ - ١٢ ، وهى السموات ، فعبر بلفظ البنيان عن معنى الاختراع لها ، وكذلك عن معنى ما فيها من نظام واتفاق أو موافقة لما خلقت لأجله · وعبر بلفظ الشدة عما جعل فيها من

القوة على الحركة الدائبة الدائمة ، فليس هناك خوف من أن تخر كما تخر السقوف والمبانى العالية ·

وهذا كله تنبيه من الخالق على موافقة السموات والأفلاك وسائر ما فيها في إعدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الأرض وما حولها ، حتى انه لو وقف جرم من الأجرام السماوية لحظة واحدة ، فضلا عن أن تقف كلها ، لفسد ما على وجه الأرض جميعا ·

ثم نبه بقوله : « وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا » النبأ ـ ١٣ ، على منفعة الشمس بخاصة ، وموافقتها لوجود ما على الأرض ، إذ لولا الضوء لما انتفع الإنسان والحيوان بحاسة البصر ، ونبه على هذه المنفعة لأنها أشرف منافع الشمس وأظهرها فضلا عن ضرورة الشمس لحياة الانسان والحيوان والنبات ·

وأخيرا ، نبه الخالق جلت حكمته بقوله : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا » النبأ ـ ١٤ : ١٦ على العناية فى نزول المطر ، وأنه ينزل لمكان الحيوان والنبات ، وأن نزوله لها بقدر محدود وفى أوقات محدودة ، لا يمكن أن يكون عن مصادفة ، بل سبب ذلك وجود الله وعنايته الألهية بالأرض وما عليها ·

والنتيجة لهذا كله ، هى أن كل موجود فى العالم كله أرضه وسمائه وما بينهما ، يدل بالنظر والتفكير على وجود الّه قد أوجده على النحو الحكيم البديع الذى وجد عليه ، وكذلك كل هذه الموجودات ، من السموات والأرض والنبات والحيوان بأجناسه وأنواعه العديدة المختلفة ، لم تكن قبل موجودة ، وكل موجود بعد عدم لابد أن يكون له موجد ، وليس هذا الموجد إلا الله المريد العالم الحكيم ·

هكذا يجب فى رأينا أن يكون العالم ، وما فيه من عجيب الصنعة والاعجاب ، هو الدليل القاطع على وجود الله الخالق له ، وهو الطريق الصحيح الذى يؤدى بمن يفهمه حق الفهم الى معرفته ، وقد زاد الأمر وضوحا هذه الايام ·

نعم ! لم يبق للملحدين أو المرتابين ، فى وجود الله خالق كل شىء ومدبر

الكون كله ، أن يتعللوا بأنهم لا يؤمنون بما لم يقم دليل من العلم الحديث عليه ، فقد سار العلم الطبيعى فى طريق التقدم شوطا بعيدا ، وكشف الكثير من أسرار الكون ومغاليقه ، فأمد الباحثين المنصفين بأدلة كثيرة على وجود الله سبحانه وتعالى .

ها هو ذا الأستاذ «أكريسى موريسون(١) « Acressy Morrisson » يكتب فى هذه الناحية كتابا قيما جديرا بالقراءة والتقدير ، وقد ترجم هذا الكتاب للغة العربية باسم « العلم يدعو للايمان »

وهذا الكتاب ذو قيمة كبيرة فى بابه كما ذكرنا ، فهو كما يقول المؤلف فى آخر مقدمته : « ضوء يلقى على الخفاء الواسع الذى يحيط الآن بما هو غير معروف لنا ظاهريا ، وقد يقودنا هذا الضوء الى الاعتراف بوجود عقل عام أسمى ، أى الى وجود الخالق »

وقد تحقق فعلا ما قصده المؤلف من كتابته ، وفى هذا يقول الأستاذ الكبير الذى ترجمه ما يحسن نقله عنه بنصه :

قد أعجبتنى الغاية السامية التى توخاها المؤلف الكبير من تأليفه ، ألا وهى إثبات وجود الله ووحدانيته بأدلة من العلم المادى الحديث . وكان العهد بدعاة الإلحاد أن يحتجوا لدعوتهم بأدلة يحسبونها علمية ، حتى لقد ظن البعض أن العلم والإيمان نقيضان لا يجتمعان .

ولكن ها هو ذا عالم من أكبر العلماء الأمريكيين ، وقد شغل حينا مركز رئيس المجمع العلمى فى أمريكا ، قد بين للناس جميعا أن العلم الحديث يثبت وجود الله وينتهى إلى الإيمان به وبوحدانيته ، بما لا يحتمل الشك أو الجدل .

وقد سمى كتابه « الإنسان لا يقوم وحده » وأثبت فيه بمختلف العلوم أن الله بارىء الكون ، وهو خالق كل شىء . لذلك وحده عُنيت بترجمة هذا الكتاب ، لعله ينتشر بين قراء العربية كما انتشر فى امريكا ، حيث كان له أثر كبير فى صد موجة الإلحاد وتثبيت قوة اليقين » .

---

(١) هو الرئيس السابق لاكاديمية العلوم بنيويورك . ورئيس المعهد الامريكى لهذه المدينة . وعضو المجلس التنفيذى لمجلس البحوث القومى بالولايات المتحدة .

وهذه الغاية التى قصد إليها المؤلف ، نجد الدلائل العلمية عليها ماثلة فى جميع فصول الكتاب التى لا نحاول هنا استعراضها ، فيكفى أن نشير الى بعض ما جاء فيها . فنشير ، مثلا ، إلى عملية الهضم فى المعدة - ، وهى - أى المعدة - أعظم معمل فى العالم كما يقول :

ان المعدة تتلقى كل ما نرسله اليها من طعام وشراب على اختلاف أنواعه وأصنافه وعديد عناصره ، وهنا يبدأ عمل هذا المعمل العجيب . ففيه يتم تحليل كل من هذه الأنواع والأصناف الى عناصره وأجزائه الكيميائية الأولى ، ويعود تكوين الباقى بعد الفضلات الى مواد تصلح غذاء لمختلف الخلايا . بحيث تكون جميع المواد الحيوية الضرورية للحياة موجودة فى مقادير منتظمة ، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة ، ثم تقدم باستمرار إلى كل خلية من آلاف خلايا الجسم ، التى تزيد فى عددها على عدد الجنس البشرى كله .

ويجب أن يكون التوريد الى كل خلية فردية مستمرا ، وألا يورد سوى تلك المواد التى .. تحتاج اليها تلك الخلية المعينة ، وذلك لتحويلها الى عظام وأظفار ولحم وشعر وعينين وأسنان ، وما الى ذلك كله من أجزاء الجسم صغيرها وكبيرها .

« ها هنا إذن معمل كيميائى ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أى معمل ابتكره ذكاء الإنسان ، وها هنا نظام للتوريد أعظم من أى نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ، ويتم كل شىء فيه بمنتهى النظام »

فإذا كانت كل تلك المعجزات تتم فى نظام كامل ، والنظام يضاد المصادفة اطلاقا ، كان هذا بلاشك من صنع خالق مبدع عليم حكيم .

وهذه عدسة العين التى بها الابصار ، تلقى صورة على الشبكية فتنظم العضلات بطريقة آلية إلى بؤرة محكمة . والشبكية طبقات عشر منفصلة ،وهى في مجموعها ليست أكبر سمكا من ورقة دقيقة ، والطبقة التى فى أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات تبلغ الملايين عدا .

وكل هذا الاعداد للعين وما تشتمل عليه ، وكل هذه التنظيمات لها ولأجزائها ، حصل فى وقت واحد وكان لابد منه ، وإلا كان الإبصار مستحيلا . فهل وجد

ذلك كله مصادفة ، أو صنعه بشر ؟ كلا ، بل هو الله وحده الذى لا يعز عليه شىء ، والذى أحسن كل شىء خلقه ! (١) .

ثم ، هذا العالم بأرضه ومائه وجد فى مكانه الصحيح ، فلو كان المحيط أعمق بضعة أقدام عما هو حاصل ، لما كان لدينا أوكسجين ولا نباتات ، والأرض تدور مرة كل يوم وليلة ، فلو تأخر هذا الدوران عن أربع وعشرين ساعة لما أمكن وجود الحياة .

وهكذا ، نرى أن استعراض عجائب الطبيعة والكون من كل نواحيه والتأمل بعمق فى كل ذلك يدل على أن هناك تصميما وقصدا فى كل شيىء وأن هذا التصميم ينفذ كله طبقا لمشيئة الخالق جل وعز .

« ومادامت عقولنا محدودة ، فإننا لا نقدر أن ندرك ماهو غير محدود . وعلى ذلك لا نقدر إلا أن نؤمن بوجود الخالق المدبر الذى خلق كل الاشياء ، بما فيها تكوين الذرات والكواكب والشمس والسدم » (٢) ، وما إلى ذلك كله .

وبعد : فما جدوى الايمان بعقيدة الله ووجوده ، هذه العقيدة التى جاء بها الدين ، ويثبتها العلم المادى الحديث ، والتى أقام القرآن العظيم الأدلة القاطعة عليها من ناحية العقل وناحية العالم نفسه وبديع صنعته ؟ ثم ، ألا يكفى الانسان أن يؤمن بعقله الذى سخر به الكون ، وخلق به العلم والحضارة ، وبقدرته التى جعلت له الأرض طيعة ذلولا ؟

نعم ! إن الإنسان غزا العالم المعروف والمجهول ، وغزا به الفضاء والسماء . ولكن من أمده بهذا العقل الذى مكنه من هذا كله ؟ أهو نفسه ، أم هو كائن آخر أسمى من كل الكائنات وقادر على كل شىء ؟ إنه بلا ريب هو الله سبحانه ، ولولاه لما كانت حياة ، ولا كان إنسان .

ومن ناحية أخرى ، إن الذى يؤمن بالله ووجوده ، هو إنسان لا يعيش وحده ، بل إنه يجد من يعينه ويسنده ، ومن يهديه طريق الخير ، ويقيله من عثرته إذا تعثر ، ويرشده إلى الجادة إن حاد عن الطريق ، ويغفر له إن ألم بذنب

---

(١) وراجع أيضا هذه الناحية « الأحياء للغزالى حـ ٤ : ٣١٤ »

(٢) العلم يدعو للايمان . ص١٨٦ .

وتاب منه وأناب ، وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

إن للاعتقاد بالله ووجوده ، وبأنه بجانب العبد يعينه ويشد أزره ، قيمة لا يقدرها حق قدرها إلا العالمون المؤمنون ، وأن الفضائل الفردية ، وكذلك الاجتماعية بخاصة ، إنما هى أثر من آثار الايمان بالله والاعتقاد بالخلود فى دار أخرى وحياة أفضل يلقى فيها حسن الجزاء على ما قدم من خير .

الفصل الثالث

وحدانية الله تعالى وسائر صفات الكمال الأخرى

١ - الوحدانية

الله الذى خلق هذا العالم هو واحد لا غير ، فليس هناك إلَهان : أحدهما للخير والنور ، والآخر للشر والظلمة ، كما يرى « الثنوية » ، وليس هناك آلهة كثر ، كما يرى عامة النصارى إذ قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، فكفروا بذلك وضلوا ضلالا بعيدا .

والدليل على هذه « الوحدانية » لله سبحانه وتعالى يقوم على هاتين الآيتين : « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ (أى فى السموات والأرض) ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا » (١) « مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ » (٢) .

وذلك ، لأننا لو فرضنا وجود أكثر من إلَه ، كان لا بد أن يكون لكل منهم من العلم والارادة والقدرة ما يخالف بداهة ما للآخر من هذه الصفات ، وهذا يكون من شأنه أن يؤدى الى الاختلاف فى الأفعال وتدبير العالم ، ومن ثم يكون لا بد من فساد السموات والأرض وما بينهما .

بل قد يؤدى إلي عدم وجود هذا العالم ، بسبب التضارب بين هذه الصفات التى تثبت لكل منهم ، وما يكون عنها من آثار . ولكن العالم بجميع أجزائه موجود على أحسن نظام ، فلابد أن يكون خالقه وموجده إلَها واحدا لا شريك له .

وقد يقال : إن لنا أن نفرض وجود آلهة متعددين ولكنهم يتفقون فيما بينهم على أن يكون لكل منهم « منطقة عمل ونفوذ » إن صح هذا التعبير ، ونقول إن هذا يجعل لنا أكثر من عالم واحد ، لكل عالم قوانينه ونظمه التى يسير عليها . ولكن

(١) سورة الأنبياء . الآية ٢٢

(٢) سورة المؤمنون . الآية ٩١

الواقع أنه لا يوجد إلا عالم واحد متماسك الأجزاء والأطراف ، وله نظم وقوانين واحدة ، وإذن ، فالاله الخالق واحد لا غير .

وإذا كان الإسلام هو دين التوحيد الخالص الذى لا شائبة فيه ، وإذا كان الله تعالى يأمرنا أن نقول : « **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ، ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ**) الإخلاص ـ ١ : ٤ نقول إذا كان الأمر كذلك ، فإنه يجب علينا ألا نرجو أحدا غيره ، ولا نخاف أحدا سواه ، فان الرجاء والخوف من الله هما لب العبادة وقطباها .

وليس من الايمان الحق بالله الواحد الأحد ما يفعله العامة من المسلمين من التوسل بالأولياء والصالحين من عباده ، وزيارة قبور بعضهم حاملين نذورهم ، وهم فى حاجة إلى القليل منها ، رجاء قضاء لبانات والحصول على شىء من خير الدنيا أو الآخرة .

إن الاستعانة فى شىء من نوائب الدنيا يجب أن تكون بالله وحده ، كما أن العبادة يجب أن تكون خالصة له وحده ، فهو الذى علمنا فى سورة الفاتحة أن نقول فى صلواتنا وفى جميع أحوالنا : « **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** » الآية ٥ ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « **اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله** » وما أقدره وأكرمه من مسئول ومستعان به !

وينبغى فى هذه الناحية ألا يشتبه الأمر علينا ، فنرى أنه لا ينافى التوحيد فى شىء زيارة قبر ولى والتوسل به فى خير ، مادام المتوسل بهذا الولى عامر القلب بالايمان بالله وبأنه هو وحده ، الفاعل لما يريد ، وليس هذا الولى إلا وسيلة صالحة يتقرب بها اليه .

وقد يضم بعض الناس إلى هذه الشبهة شبهة أخرى ، وهى أن الله يتقبل من المتقين كما جاء بالقرآن ، وأن فى القرآن أيضا ما يدل على أن الدعاء من نبى أو رجل صالح من أولياء الله قد يكون مقبولا منه تعالى ، أليس الله جل جلاله يقول فى سورة النساء آية ٦٤ : « **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** » !

نعم ! إن الاسلام يطلب منا أن يدعو المرء المسلم لنفسه وأخيه ، وفى القرآن

نفسه كثير من الآيات تتضمن دعاء كثير من الانبياء وغيرهم من المؤمنين لأنفسهم وغيرهم من آلهم وللمؤمنين والمؤمنات جميعا .

كما نعرف أن الرسول العظيم نفسه يقول فى بعض مادعا به لقومه : « **اللهم أغفر لقومى فانهم لايعلمون** » ونعرف من سيرته ووصاياه أن من الخير أن يدعو بعضنا لبعض بظهر الغيب .

ولكن هذا كله ونحوه ليس من التوسل بصالح أو ولى أو نبى ذهب الى ربه ، وفارق هذه الدنيا وأصبح لا صلة له بها . ونجد فى الآية التي ذكرناها من سورة النساء أن الله تفضل بالوعد والتوبة والرحمة لمن ظلموا انفسهم ورجعوا الى الله مستغفرين واستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن الاستغفار اذن ممن ترك هذه الحياة .

وكذلك نعلم أنه لما صدر الناس عن الحج سنة ثمانى عشرة من الهجرة ، أصابهم جهد شديد ، وأجدبت البلاد ، وهلكت الماشية وجاع الناس وهلكوا ، كما يذكر ابن سعد فى الطبقات الكبرى ، وكان ذلك فى العام الذى سمى « عام الرمادة » .

وكان سيدنا عمر بن الخطاب يكثر فى تلك الفترة التى دامت بضعة أشهر من استغفار الله والتضرع اليه أن يسقيهم ، وكذلك كان يفعل المسلمون . وذات مرة ألح الخليفة فى الدعاء ، وأخذ بيد العباس ثم رفعها وقال :

« **اللهم إنا نتشفع بعم نبيك أن تذهب عنا المحل . وأن تسقينا الغيث** » فلم يبرحوا حتى سقوا ، وأطبقت السماء عليهم أياما (١) وكان العباس قائما بجانبه ، وهو (أى العباس) يدعو أيضا وعيناه تهملان .

وهكذا ، توسل عمر والمسلمون ، رضوان الله عليهم جميعا ، بسيدنا العباس ابن عبد المطلب عم الرسول بعد أن لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى .

ومن أجل ذلك ، نرى أنه لا ينبغى لمؤمن بالله ، الواحد الأحد الذى يسمع

---

(١) الطبقات . جـ ٣ . ٣٢١ . طبعة بيروت ١٩٥٧ م .

السر والنجوى ، أن يتوسل بغيره إليه لدفع ضر أو جلب خير على النحو البشع الذى نعرفه عن زوار القبور ، والذين يقدمون لهم النذر ويتوسلون بهم !

وكيف هذا ، والله يقول : « **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** » البقرة ١٨٦ ويقول : « **أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ** » سورة النمل آية ٦٢ .

وبعد ! فإن لعقيدة « وحدانية الله » تعالى أثرها الكبير فى القلوب والنفوس والأعمال ، اذا أخلص الانسان الدين لله وحده .

فلم يخف سواه ولم يرج غيره ، ولم يطلب دفع ضر أو جلب خير الا منه . إنها تجعله ـ متى كان كذلك ـ قويا في نفسه ، صريحا فى الحق ، لا يعتمد فى كل أموره الا على الله وحده ، وكفى به سندا ووليا ونصيرا .

وان التوسل والتقرب الى الله انما يكون بأداء حقوقه ، ونصرة شريعته وشريعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعمل الخير لأمته .

وفى الحديث القدسى أن الله تبارك وتعالى قال : « **ما تقرب الى العبد بمثل أداء فرائضى ، وإنه ليتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ..**

(وحينئذ) ، أن سألنى أعطيته ، وإن دعانى أجبته .

من البدهـى إذن ، اتصاف الله بكل صفات الكمال ، والا لم يكن هو الله الخالق لكل شىء ، والمدبر للعالم كله ، ومن هذه الصفات : الحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والعلم ، والارادة ، والقدرة . وهى صفات أجمع على ثبوتها لله جل شأنه جميع رجال الدين ، والمفكرون من المسلمين .

٢ ـ الحياة

الله هو مصدر الحياة ، وواهبها لكل موجود حى ، فلا يتصور العقل اذن ألا يكون متصفا بالحياة فى أكمل صورها . فهو « **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** » كما يقول جل شأنه فى سورة البقرة آية ٢٥٥ (١) .

---

(١) القيوم : القائم بتدبير أمور خلقه . والسنة : النعاس

وهو الكائن الأعلى الواجب الوجود ، وكونه « واجب الوجود » صفة لا تجيء له من غيره ، بل وجوده هو من ذاته ومن لوازم كونه الاله الذى كان عنه وجود هذا الكون جميعه ، ومنه هذه الموجودات التى نحسها ونراها ونعلمها ، وكذلك الموجودات الأخرى التى لا نعلمها .

وهو الذى يخرج الحى من الميت ، ويحى الأرض بعد موتها ، فكيف يكون مصدر الحياة ومعطيها لكل حى ، ولا يكون هو نفسه حيا على أكمل ما تكون الحياة ! انه حى أزلا وأبدا ، ولا يناله ما ينال الأحياء الآخرين من نوم أو غفلة أو تعب أو كلال .

وينبغى أن نؤمن عقلا بصفة عامة ، أن الله تعالى بحكم أنه واجب الوجود ، هو أعلى الموجودات مرتبة وكمالا ، وهذا يستتبع حتما - من ناحية العقل أيضا - أن يكون له من صفات الكمال الوجوديه ما يلائم هذه المرتبة العليا من الوجود .

ومن هذه الصفات التى يجب أن تثبت لله تعالى ، باعتباره واجب الوجود على أكمل نحو يمكن للعقل أن يتصوره ، صفة الحياة على أكمل ما يكن أن تكون الحياة ، وكذلك صفات السمع والبصر وغيرهما من الصفات التى ذكرناها .

٣ - السمع والبصر

من شرط الخالق المبدع الحكيم ، الحرى حقا بهذه الأوصـــاف ، أن يكون مدركا لما يخلقه ويصنعه بكل نوع من أنواع الادراك .

ومن ثم ، وجب أن يكون الله جل جلاله سميعا بصيرا ، والا لم يكن أكمل الخالقين ، ولما كان مستحقا أن يكون هو وحده المعبود بحق

ومن أجل هذا ، جاء فى القرآن (سورة مريم) آية ٤٢ حكاية لقول سيدنا ابراهيم عليه السلام لأبيه « **يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا** » ومعنى هذا ، أن الاله المعبود يجب أن يكون سميعا بصيرا ، وهذا ما جاء به القرآن فى آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى فى سورة المجادلة الآية رقم ١ :

« قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ » وقوله « أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ، أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ، أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ، أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ » سورة العلق الآيات رقم ٩ ـ ١٤ .

ونذكر كذلك قوله تعالى لموسى وهارون ، عليهما السلام ، حين أرسلهما الى فرعون : « ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ، فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ، قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ، قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ » سورة طه ، الآيات رقم ٤٣ ـ ٤٦ .

وأخيرا ـ نذكر هاتين الآيتين : « يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ، وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » سورة غافر ١٩ ـ ٢٠ .

٤ ـ الكلام

الكلام هو فعل يدل المتكلم به المخاطب على ما فى نفسه ، وهذا يكون من الانسان بالألفاظ ينطق بها أو يكتبها فى رسالة . واذا كان الانسان الذى ليس بخالق ولا فاعل حقيقى يقدر على هذا الفعل ، فبالأولى يجب أن نعتقد أن الله الخالق والفاعل الحق يتصف بالقدرة على إيصال ما يريد لمن يريد بواسطة الكلام .

ولكن هناك فرق كبير فى هذه الصفة ، كما فى الصفات الأخـــرى ، بين الله سبحانه وتعالى وبين الانسان الذى لا يكون متكلما الا بما يلفظ به أو يكتبه . على حين أن الله يعتبر متكلما بالوحى وبالالهام يخلقه فى روع من يصطفيه ، وبالألفاظ يخلقها فى نفس كليمه ، وبالملك يرسله لمن يشاء من أنبيائه ورسله .

والى ذلك كله أشار الله تعالى بقوله « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ » سورة الشورى ٥١ .

ويرى ابن رشد فى كتابه « مناهج الأدلة » أن معنى « من وراء حجاب » هو الكلام الذى يكون بواسطة الألفاظ يخلقها الله جل أمره فى قلب من يرفع منزلته بتكليمه ، وتلك هى الحالة التى خص بها موسى عليه السلام ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا » سورة النساء ١٦٤ ، كما يقول فى سورة البقرة ٢٥٣ : « تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ » (١) .

على المسلم ، اذن ، أن يؤمن بهذه الصفات : السمع والبصر والكلام ، فقد جاء القرآن بثبوتها لله تعالى ، ويوجب العقل أيضا بأنه سبحانه متصف بها ، والا لما كان هو الاله المعبود بحق .

وعليه مع ذلك أن يؤمن بأنه جل شأنه منزه عن أن يكون له ما للبشر من آلات يكون بها السمع كالأذان ، والبصر كالعين ، والكلام كاللسان ، وليس على الانسان بعد هذا أن يفصل القول فى ذلك .

فان فى إدراك هذه الصفات الالهية ، والايمان بها على هذا النحو الذى لا تعقيد فيه ، والذى رضيه السلف من المسلمين رضوان الله عنهم ، ما يكفى لأن نوقن بأنه سميع لكل ما يمكن أن يسمع ، وبصير بكل ما يمكن أن يبصر ، وأنه هو الذى هدانا الى طريق الرشد والخير بكلامه ووحيه لرسله ، وأنه حى لا يموت .

وواضح أن الايمان بهذه الصفات الالهية له أثره الكبير فى حياة الانسان وفى عمله . ومن ذلك أنه يجب علينا أن نتوكل على الله ونعتمد عليه ، فهو الحى الذى لا يموت ، وأن نخشاه فى كل ما نقول ونعمل ، فهو السميع البصير ، وأن نشكره حق شكره ، فهو الذى هدانا الى الطريق المستقيم بما أوحاه الى أنبيائه ورسله - وأن الشكر باب خير عظيم ، فالله يقول : « لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » إبراهيم ٧

---

(١) الذى كلمه الله تعالى هو موسى عليه السلام كما يذكر القرطبى فى تفسير الاية .

٥ - العلم والإرادة والقدرة

هذه هى باقى الصفات السبع التى يجب على المسلم اعتقادها لله تعالى ، وهى جميعها تستلزمها صفة الألوهية وأن الله هو واجب الوجود ، وأنه هو خالق هذا العالم بأرضه وسماواته وما بينهما على أبدع نظام وأدق احكام .

صفة العلم :

للانسان المؤمن بالله وكتابه العظيم أن يكتفى فى التدليل على ثبوت العلم الشامل لكل شىء لله تعالى بما جاء فى القرآن نفسه ، من الآيات الدالة على أن الله يعلم السر والنجوى ، ويعلم ما فى الصدور والأرحام ، وما فى السموات والأرض ، وكل ما كان ويكون فى الزمن الماضى والحاضر والمستقبل .

ونذكر من هذه الآيات قوله تعالى فى سورة سبأ آية ٢ « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » (١) وقوله فى سورة التغابن آية ٤ « يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » .

وقوله فى سورة المجادلة آية ٧ « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ (٢) وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

وقوله فى سورة يونس الآية ٦١ « وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » (٣) .

---

(١) يلج يدخل . ويعرج : يصعد

(٢) اى يعلم ما يكون بين هؤلاء الثلاثة كأنه تعالى كان الرابع معهم .

(٣) شهودا أى نعلمه . تفيضون أى تأخذون . يعزب . أى يغيب والمعنى العام . هو أن الله تعالى يعلم كل شىء ويحاسب عليه .

واذا كان فى هذه الآيات مقنع للمؤمن بالله وقرآنه ، يجعل قلبه عامرا بعقيدة أن الله قد أحاط بكل شىء علما ، فهناك للآخرين دليل بل أدلة أخرى تؤخذ من العلم الطبيعى المادى الحديث فيها بلاشك مقنع لمن يريد أن يقتنع ويصدق من هذه الناحية .

وقد أشار القرآن أيضا الى هذه الأدلة بقوله تعالى : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١) » ! . والدلالة هنا نجدها فى الآية الثانية .

وذلك ، بأن هذا العالم كله ، أرضه وسماءه ومافيهما وما بينهما ، نجده بترتيب أجزائه وموافقتها جميعا للغاية المقصودة منه يدل بلا ريب على أنه حدث عن خالق أوصانع يحيط علمه بكل شىء ، فوجب حينئذ أن يكون متصفا بالعلم على أكمل وجوهه ، ويكون اتصافه بهذه الصفة دائما ، لا فى حال دون حال .

وهكذا ، فى رأى ابن رشد كما يذكر فى كتابه « مناهج الأدلة » ، ينبغى أن يكون الاستدلال على ثبوت صفة العلم لله سبحانه وتعالى ، استدلالا يصلح للعامة والخاصة العلماء من الناس جميعا . وان كان لهؤلاء الخاصة معرفة أتم وأكمل بما فى العالم من ترتيب دقيق ونظام محكم بديع ، وبأن كل شىء خلق موافقا للغاية المقصودة منه .

هذا - وقد قدمنا - ونحن نتكلم عن دلالة العالم وإبداعه ونظامه - الدليل على وجود الله تعالى واجب الوجود وخالقه ومبدعه ، وهو ما يصلح أن يكون دليلا على علمه تعالى أيضا ، ومع ذلك نرى من الخير أن نأتى بكلمة للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى هذه الناحية ، وهذا اذ يقول فى « رسالة التوحيد » (٢) :

من أدلة ثبوت العلم للواجب (أى لله) ما نشاهده فى نظام الممكنات (أى العالم وسائر الموجودات) من الإحكام والاتقان ، ووضع كل شىء فى موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه فى وجوده وبقائه ؛ وذلك ظاهر لجلى النظر بما يشاهد فى الأعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها .

---

(١) سورة الملك . الايتان رقم ١٣ و ١٤ . وذات الصدور : ما فيها .

(٢) رسالة التوحيد . الطبعة الثامنة بمطبعة الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٥٧ ق . ص ٣٦ - ٣٨ .

فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها ، والزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل عالمه أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل فى علم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره.

اعتبر بما تراه فى جزيئات النباتات والحيوانات ، من توفيتها قواها وارتيائها ما تحتاج اليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ، ووضع ذلك فى مواضعها من أبدانها ، وايداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون مالا يلائمه .

فترى بذرة الحنظل تدفن بجانب حبة البطيخ فى أرض واحدة ، ثم تسقى بماء واحد ، وتنمى بعناية واحدة ، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاق ، وهذه تتناول ما يغذى حلو المذاق .

وإرشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء ، وسوق كل قوة من قواه الى ما قدرت له .

فهو الذى يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ، ويعلم حاجته - متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحى المستقل فى عمله - الى الأيدى والأرجل والمسام والآذان - وبقية الحواس الباطنة - يستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ، ويقيه من العوادى عليه .

ويعلم حاجته الى المعدة والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لا غنى عنها فى النمو والبقاء الى الأجل المحدود للشخص والنوع .

هو الذى يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا ، وأنها متى كبرت تلد أجراء متعددة فيمنحها أطباء كثيرة (١) . وغير ذلك مما لا يستطاع إحصاؤه ، وقد فصل الكثير منه فى كتب النبات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى ، وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه .

---

(١) الاجراء . جمع جرو . والاطباء . جمع طبى . وهى حلمات الضرع

على أن الباحثين فى كل ذلك ، بعدما بذلوا من الجهد، وما صرفوا من الهمم ، وما كشفوا من الأسرار ، لم يزالوافى أول البحث .

هذا الصنيع الذى تتفاضل العقول فى فهم اسراره والوقوف على بديع حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شىء الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالمصادفةأن يكون ينبوعا لهذا النظام ، وواضعا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها ؟

كلا ، بل مبدع ذلك كله ، من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم

صفة الإرادة :

الله مصدر كل شىء ، وخالق كل ما عرفنا وما لم نعرف من الموجودات ، فمن الطبيعى أن تثبت له صفة الارادة ، لأن من شرط من يصدر عنه شىء أن يكون مريدا له ، وهذه الصفة بالنسبة لله تعالى صفة قديمة ككل صفاته الأخرى ، اذ لا يجوز أن يكون متصفا بها وقتا دون وقت ، وحالا دون حال .

وعمل هذه الصفة هو أن تخصص فى الأزل الشىء الذى يوجد فى الزمان بأن يوجد فى وقت معين لا قبله ولا بعده ، وعلى شكل معين لا يعدوه ، ويكون الله دائما هو الفاعل والموجد للشىء ، وتكون النتيجة أن توجد الأشياء عن فاعل أو خالق أراد فى الأزل أن يوجد كلا منها فى زمان معين وعلى نحو أو شكل معين ، وذلك وفق علمه القديم الأزلى .

وبعد هذا الاستدلال العقلى على ثبوت صفة الارادة لله جل شأنه ، وبعد بيان عملها ، نجد القرآن فى كثير من آياته يثبتها لله جل شأنه ، وذلك مثل قوله تعالى :

« إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » يس ٨٢ « وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ

فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا » الاسراء ١٦ (١) « فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ » الكهف ٨٢

ويقول فى سورة الحج آية ١٤ « إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ » فإرادة الله لامعقب عليها ، وهى نافذة فى الكون كله أرضه وسمائه · وهو يخلق مايشاء ويختار ، وليس لأحد من خلقه الخيرة فى شىء أراده الله العليم الحكيم ·

صفة القدرة :

ومن البدهى أن تثبت لله تعالى صفة القدرة التى بها يوجد ما يشاء ويعدم ما يشاء ، فهو الاله موجد جميع الكائنات على ما يقتضيه علمه وارادته ، فلابد ان يكون قادرا على فعل ما يريد حسب علمه جل شأنه ، وفى هذا جاء فى سورة البروج أنه تعالى « فعال لما يريد »

وفى سورة الحج الآية ٦ يقول سبحانه وتعالى : « ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ » فقدرته تعالى لايحدها شىء · وهى التى تنفذ ما تتعلق به إرادته المطلقة التى لا يقف دونها شىء ، ولاعجب ! فهو الاله لارب غيره · ولا معقب لحكمه ، ولا راد لما يريد ، ولا يعجزه شىء فى السموات أو الأرض ·

واذا كان العلم الطبيعى الحديث قد جعل من الجماد ما ينير لنا الظلام كما فى الكهربة المتولدة فى الاسلاك المعدنية ، وما يجرى على الارض كالسيارات والقطر ، وما يرتفع فى السماء ويجوب الآفاق كالطائرات ، وما ينطق ويتكلم وينقل الينا الصور كالمذياع والتليفزيون ، الى آخر ما نعرفه من عجائب هذا العلم - نقول اذا كان الأمر كذلك ، فان كل هذا هو بقدرة الله ، ولولاها لما كان شىء من ذلك كله ·

واذا ، فليس للانسان أن يغتر بما وصل اليه من علم وكشوف واختراعات ، فانه

---

(١) اى امرنا رؤساءها بالطاعة على لسان رسلنا . فخرجوا عن الطاعة فوجب عليها العذاب . فكانت العاقبة هلاك اهلها وتدمير البلد .

لولا الله وقدرته لما كان للانسان نفسه وجود ، فضلا عن أن يكون منه اختراع أو ايجاد لأى شىء مهما كان تافها لا خطر له .

وصدق الله العظيم حين يقول : «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ، مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ » سورة الحج ، ٧٣ ـ ٧٤ .

هذا ، وإذا كان الله عالما مريدا قادرا ، وتصدر عنه الموجودات بقدرته على مقتضى علمه وحكم إرادته ، وقد ثبت هذا بالعقل والقرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فمما لا ريب فيه إذن أن تثبت له صفة « الاختيار » لما يريد ويفعل .

فليس لأحد ، سبحانه وتعالى ، سلطان عليه ولا أن يكرهه على ما لا يريد .

وليس من الحق فى شىء ما يراه بعض الفلاسفة المسلمين ، أخذا عن الفلسفة اليونانيـــة ، من أن الموجودات تفيض عن الله بلا علم أو ارادة منه ، فهو علة كل شىء ، ووجوده يستلزم حتما صدور الموجودات عنه ، وذلك لأنه كريم وجواد دائما ، وفعال دائما .

ليس هـــذا مـــن الحق فى شىء ، فانه اذا كان الانسان نفسه يحس بما يكون منه ويصدر عنه ، ويريد ما يفعله ، فكيف بالله سبحانه وتعالى ! انه لا يفعل ما يفعل من ايجاد واعدام ، واعطاء وحرمان ، وغير ذلك كله ، الا وهو عالم به تمام العلم ، ومريد له تمام الارادة ، والا ، لما كان هو الاله المعبود بحق ولا رب سواه .

وهو جل شأنه كما قال : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (١) وقال : « وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » الأنعام ١٠١ « فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ » هود ـ ١٠٧ ، « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ » المائدة ـ ١٢٠

---

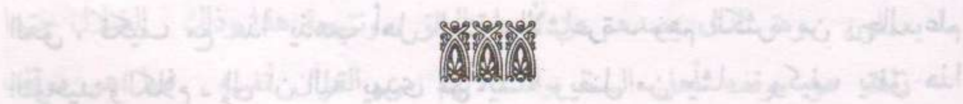
(١) سورة القصص ٦٨

وبعد : ذلك آخر ما رأينا من الضرورى بحثه من صفات الكمال[٢] التى أجمع المسلمون على ثبوتها لله تعالى ، وعلى تنزيهه عن أضدادها وعن كل صفة أخرى تشعر بالنقص ، وهى صفات العلم والارادة والقدرة ، وهى كسائر الصفات الالهية الأخرى لها أثرها الكبير فى الانسان وأعماله .

ان الذى يؤمن بالله ويعتقد أنه عليم بكل شىء ، ومطلع على كل شىء ، ويعلم السر والنجوى وما تخفى الصدور ، ينبغى ألا يقترف ذنبا أو اثما ، ولا أن يضمرشيئا من السوء لأحد من الناس .

وان الذى يؤمن بأن ما يجرى فى هذا العالم هو بقضاء وقدر من الله تعالى ، وأنه لا يقع فى هذا العالم الا ما يريده ، ليس له أن يحزن ان نزل به سوء ، او فاته شىء كان يرجوه ، بل عليه أن يكون راضيا متى قام بما عليه ، وأن يؤمن بأن هذا الذى حصل له لعله يكون خيرا له وهو لا يعلم .

وإن الذى يؤمن بقدرة الله تعالى ، وبأنه ما كان ليعجزه شىء يريده فى السموات أو الأرض ، ليس له أن ييأس ان نزل به ضر فى نفسه أو ماله أو أولاده ، فإن بعد العسر يسرا ، وليس له أن يموت حزنا وأسفا على ما يرى ويعرف من ظلم الظالمين ، فان الله على أخذهم بما يعملون لقدير . ولكن عليه مع هذا ، أن يبذل كل ما يستطيع من جهد لدفع الظلم ورد المعتدى ، ثم يترك الأمر بعد ذلك لله .



الفصل الرابع

عدالة الله ، ورحمته ووعده ووعيده

هل للمسلم أن يعتقد أن الله ، تعالت حكمته ، يهدى من يشاء الى الحق ، ويضل من يشاء عن الصراط المستقيم ؟ أو يجب أن يعتقد أنه ليس لنا أن ننسب إلى الله إغراء أحد وإضلاله ، وإلا كان هذا لا يتفق والعدالة ؟

وهل العدالة المطلقة التى وصف الله نفسه بها فى القرآن ، والثابتة حقاً له ، توجب تحقيق وعده بثواب من أطاعه ، ووعيده بتعذيب من عصاه ؟ أو ان له أن يعذب من يريد ولو كان مؤمنا مطيعا خيرا ، ويغفر لمن يريد ولو كان عاصيا آثما ، وذلك لأن له الإرادة المطلقة ، والقدرة الكاملة ، والرحمة العظيمة ؟

موضوع هذا الفصل الأخير من القسم الثانى هو بحث هاتين المسألتين التى كثر الخلاف بين رجال علم الكلام فيهما ، وسيكون هذا البحث موجزا واضحا ، مع بيان رأينا الذى انتهينا اليه فى كل من المسألتين. ومن الله العون والسداد(١)

١ ـ الهداية والإضلال

لهذا البحث ، وهو متعلق بذات الله وصفاته وصلته بالإنسان وعمله ، أهمية خاصة ، فإن الله أرسل رسله مبشرين ومنذرين ، وداعين إلى الهدى والطريق الحق ، فكيف مع هذا يذهب أهل السنة والأشاعرة ـ وهم الكثرة من رجال علم التوحيد والكلام ـ إلى أن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وكيف يتفق هذا والغاية من رسالات الرسل ، ومع عدالة الله المطلقة !

ذهب أهل السنة والأشاعرة إلى أن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، لأنه مطلق الارادة والقدرة ، ونجد هذا الرأى فيما كتبوه فى علم الكلام أو التفسير .

---

(١) راجع الامر مفصلا . مع عرض استدلال كل فريق . فى كتابنا « القرآن والفلسفة » ص ١١٠ ـ ١٧٢ . نشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨ م .

فهذا الامام « الطبرى » يذكر فى تفسيره الكبير المعروف ، فى الآية الثامنة من سورة فاطر ، أن معنى قوله تعالى : « فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ » هو أن الله يخذل من يشاء عن الإيمان فيضله عن سبيل الرشاد ، ويوفق من يشاء للإيمان وللهداية الى هذا السبيل .

وكذلك يذهب الإمام الرازى فى تفسيره الكبير إلى هذا الرأى أيضا ، إذ نراه يصرح بأن معنى هذه الآية أن الله يضل عن الحق من يشاء ، ويهدى إليه من يشاء .

وهناك فى القرآن آيات أخرى كثيرة جعلت أهل السنة يذهبون هذا المذهب فى تلك المشكلة ، ويكفى أن نذكر منها هذه الآيات :

١ ـ « مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » سورة الأنعام ٣٩ .

٢ ـ « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ » سورة ابراهيم ، ٤

٣ ـ « بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ » سورة الرعد ٣٣ .

٤ ـ « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا » سورة البقرة ٢٦ .

وهم يقولون فى الآية الثالثة بأن الله سبحانه هو الذى يزين للكافرين ما يعملون ، وهو الذى يصدهم عن سبيل الحق ، ونتيجة هذا وذاك ، الضلال حتما

ذلك هو موقف أهل السنة واستدلالهم من القرآن نفسه ، فما هو موقف « المعتزلة » خصومهم ؟

هنا نكاد نحس أن المعتزلة يرون أنفسهم فى موقف المحامى الذى يدافع عن قضية خطيرة يوقن بأنها حق وعادلة ، غير أنه ليس لديه من الأدلة الحاسمة ما يفحم بها خصمه ، ولا يملك مع هذا أن يقنع النظارة الذين أخذ بقلوبهم ما قدمه

الخصم من الأدلة التى لا يملكون الا تصديقها ، لأنها آيات من آى الذكر الحكيم .

ولذلك نرى هؤلاء « المعتزلة » يلجأون إلى كل ما يستطيعون من وسيلة لنصرة مذهبهم ، هذا المذهب الذى يقول بأن الله يهدى من يستحق الهداية بايمانه ، ويضل من يستحق الاضلال بكفره وفسقه .

وفى سبيل نصرة مذهبهم والرد على خصومهم ، يركبون الصعب والذلول ، ويؤولون - فى تعسف أحيانا - الآيات والأحاديث التى استدل بها خصومهم ، وذلك لهدم حجج هؤلاء الخصوم ، أو للتهوين على الأقل منها فى رأى من يسمع لها .

انهم ، أولا ، قد ذهبوا الى أن الله لا يهدى أو يضل الا المستحق لذلك بعمله ، واستدلوا لهذا الأصل الذى رضوه وآمنوا به من القرآن نفسه الذى صرح به فى غير قليل من آياته ، ثم أولوا الآيات الأخرى التى لاتصريح فيها به ، أولوها بما يجعلها تتفق مع الآيات التى صرحت به .

مثلا فى آية سورة البقرة التى ذكرناها آنفا ، يلاحظون أن الله تعالى قال : **« يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ، ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »** . وإذا ، فكأن الضلال جاءهم من أنفسهم ، لا من الله بصفة مبتدأة .

والقاضى عبد الجبار ، وهو أحد كبار رجالات المعتزلة ، يقول فى هذا(١) إنما ننكر أن يضل الله تعالى عن الدين بخلق الكفر والمعاصى وارادتها ، ولا ننكر أن يضل من استحق الضلال بكفره وفسقه .

وقد نص الله تعالى على ماتقول فى تفسير هذه الآية ودل عليه ، لأنه قال : **« وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ »** . وعلى هذا الوجه قال فى موضع آخر (سورة

---

(١) تنزيه القران عن المطاعن . طبع الرافعى بالقاهرة ص ١٥ .

الأعراف ٣٠) : « **فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ** » ثم بين كيف حق ذلك فقال فى أثر هذا : « **إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** » وعلى هذا الوجه أيضا قال فى سورة إبراهيم ٢٧ : « **وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ** » فخصهم بذلك ، وقال فى سورة يونس ٩ : « **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ** » ، وقال فى سورة غافر ٢٨ : « **كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب** » (١) .

هذا هو نموذج من تأويلات المعتزلة لهذه الآيات وأمثالها :

وفى رأينا أنه الحق ، أو أقرب ما يكون الحق إليه ، والله أعلم بما أراده من كلماته .

والآن ، بعد أن عرضنا بإيجاز كبير هذين المذهبين المتعارضين ، ما هو رأينا الخاص فى هذه المشكلة ؟ لقد انتهينا إلى رأى لنا منذ سنوات ، بعد بحث كبير عميق ، وذكرنا هذا الرأى فى كتاب ظهر لنا من قبل (٢) ، ونرى من الخير أن نأتى به هنا على هذا النحو :

لقد رأينا أهل السنة والأشاعرة حريصين على اثبات أن الله كامل القدرة والحرية فى أن يفعل ما يشاء كما يشاء ، وإلا لم يكن إلها حقا ، كما عرفنا المعتزلة حريصين فى مذهبهم على اثبات كمال عدالة الله مع كمال قدرته وحريته ، وإلا لم يكن كذلك إلها حقا .

وكل من الفريقين يجد سندا له من القرآن ومن النظر العقلى أيضا .

ونحن من جانبنا نرى أن إلها محدود الإرادة والقدرة ، ليس إلا إلها عاجزا ، وأن إلها مطلق الإرادة والقدرة فى غير حكمة ليس إلا إلها مستبدا لا يصلح به العالم .

فلم يبق بعد هذا إذ ذاك إلا أن يكون الإله الحق ، الذى يستقيم به أمر العالم ، إلها قدر أزلا بحكمته أن يسير العالم بجميع أجناسه وأنواعه وموجوداته

---

(١) ونجد فى هذه السورة نفسها (الآية ٣٤) « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب »

(٢) هو كتاب القرآن والفلسفة .

على نظام خاص ، وألا يتدخل فى أعمال الإنسان إلا بقدر محدود ، مادام قد أمده بالعقل يهديه إلى الحق فى جميع ما يعرض له فى الحياة ، ومادام سيسأل فى الدار الأخرى عما عمل فى هذه الدار الدنيا .

وبعبارة أخرى ، إن الإله الحق الحكيم هو الإله الذى جعل من نفسه لإرادته وقدرته بعض الحدود حسبما رأى وقدر من حكمة ، وعلم ما سيكون عليه كل من خلقه من هدى وضلال حسب طبيعته واستعداداته واتباعه عقله أو هواه ، فيسره إلى مصيره الذى اختاره لنفسه .

بذلك لا يكون الله قد حد أحد من إرادته وقدرته ، ويكون الإنسان مسئولا بحق عن أعماله ، ويكون الله تعالى عادلا امام العدالة حين يجزيه بالثواب أو العقاب على ما أسلفه فى الحياة الدنيا .

على أن الإنسان مهما يكن لديه شعور بحريته وإرادته لأفعاله وقدرته عليها ، فإنه على كل حال ليس خالقا لها بالمعنى الذى يفهم من كلمة « خلق » حين تضاف إلى الله تعالى ، الله الخالق لكل شىء ، والقادر بذاته وحده على كل شىء أراده أزلا .

على حين أن الإنسان يتوجه لما يريد من أفعال بارادته . ثم يقوم بها بقدرته ، ولكن تلك الارادة وهذه القدرة خلقهما الله سبحانه فيه ، وذلك على النحو الذى به تتم الأشياء والأفعال التى علم أزلا أنها ستكون .

وإذا ، الفعل يقع بما خلقه الله فيه من أسباب وهذه الأسباب هى ـ كما قلنا ـ الإرادة والقدرة اللتان يحسهما العبد ، واللتان جعل الله إليه توجيهها إن حسنا وإن سيئا .

ومن ناحية أخرى ـ وهذه لها أهميتها فى الرأى الذى تتقدم به ـ لو أراد اللّه تعالى أن تكون أفعال العبد من خلقه هو ، أى من خلق اللّه ذاته ، لكان الأمر كما شاء ، ولكنه نفسه هو الذى شاء للإنسان أن تكون أفعاله صادرة عنه باختياره وقدرته على النحو الذى بيناه ، واللّه أعلم بالحق .

بقى بعد ذلك مسألة أخرى ، فقد رأينا آيات كثيرة من القرآن صريحة فى

أن اللّه يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، فكيف نقول بأن الإنسان هو الذى يهدى نفسه أو يضلها ؟ وكيف العمل فى هذه الآيات ؟

من الحق أن نذهب إلى حد كبير مع « المعتزلة » الذين يرون أن الإنسان هو الذى يتسبب لنفسه فى الهدى والضلال ، وذلك باستماعه للّه واتباعه ما أنزل من الهدى ، أو باعراضه من نفسه أيضا عن ذلك وهو قادر على أن يكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

لقد تقدم بعض الآيات التى استدل بها المعتزلة لما ذهبوا إليه ، والتى ذكر فيها أمران ، إضافة الهدى والضلال إلى اللّه تعالى ، وبيان أن السبب فى الاهتداء أو الضلال هو من عمل الإنسان نفسه ، اذن ، يكون الإنسان هو الفاعل لنفسه ما صار إليه من هذا أو ذاك .

ونستطيع أن نذكر آيات أخرى من هذا القبيل ، من ذلك قوله سبحانه وتعالى ، فى سورة القصص ٥٠ « إن اللّه لا يَهدى القوم الظالمين » وقوله فى سورة المنافقون ٦ : « إن اللّه لا يهدى القوم الفاسقين » ، وقوله فى سورة الحج ٥٣ ـ ٥٤ : « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتُخبت له قلوبهم وإن الله لهـاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » .

ومن الحق وحسن تفسير القرآن أو تأويله أن تكون الآيات التى ذكر فيها سبب الاضلال أو الهدى المضافين للّه تعالى هى المحكمة فى هذه الناحية ، وأن تؤول الأيات الأخرى التى لم يذكر فيها هذا السبب بحسبها ، وبهذا ، يكون الهدى والضلال من العبد نفسه ، ويكون اللّه عادلا تمام العدل حين يحاسبه ويجازيه .

إن وجود الضالين والأشرار الآثمين فى هذا العالم دليل ، إذا ، عـلى اختلاف الاستعداد لقبول ما منه يكون الهدى أو للاعراض عنه ، لا على ظلم أو إكراه من الله تعالى . بمعنى أن الشىء أو الأمر الواحد قد يكون سببا لهداية قوم ولضلال آخرين ، تبعا لما يكون من قبول أولئك وإعراض هؤلاء .

ولننظر فى هذا ، مثلا ، إلى قول الله تعالى ، « وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » وقوله « هو ـ أى القرءان ـ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » وقوله : « وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ » (١) .

ومعنى هذا بوضوح ، هو أن الله الحكيم العادل يعطى كل إنسان المصير الذى يستحقه بما يعمله حرا مختارا حسب استعداده ، أى ييسر لكل أن يصير إلى ما أراده لنفسه بنفسه .

على أنه ينبغى أن نقول أخيرا ، بأنه وإن رأينا أن العمل يصدر عن الإنسان بإرادته وقدرته ، فقد عرفنا أن الله تعالى هو الذى خلق تلك الإرادة وهذه القدرة فى الإنسان ، وأنه هو العليم الحكيم الذى قدر كل شىء أزلا ، وإن أخفى عن الإنسان ما قدر عليه ، وذلك ليشعره بحريته فيما يأتى ويذر من الأعمال ، وليجعله بهذا مسئولا عما يكون منه .

ولكن مع هذا كله ، فانه ليس ممكنا لأحد أن يعرف ويحدد بالضبط المدى الذى يكون لقدر الله الذى لا بد من أن يكون ، والذى لإرادة العبد وقدرته اللتين يحس بهما تماما من نفسه ، فى الفعل الذى يصدر عنه . علم ذلك لله وحده ، ولا نعتقد أن معرفته ضرورية فى الدين ، وإذا ، فلنقف عند هذا الحد لا نعدوه .

٢ ـ رحمة الله ووعده ووعيده

فى هذه المسألة ، نرى كتب علم التوحيد أو الكلام مجمعة على أن أهل السنة أو الأشاعرة يرون أنه لا يجب على الله تعالى شىء ما ، لا ثواب المطيع ، ولا

(١) الاسراء ٨٢ ، فصلت ٤٤ ، التوبة ١٢٤ ـ ١٢٥ .

عقاب العاصى ، بل الأمر فى ذلك كله له . إن شاء أثاب أو عاقب المطيع ، وإن شاء عاقب أو غفر للعاصى .

وفى هذا يقول إمام الحرمين ، أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ . : « الثواب عند أهل الحق (يريد : أهل السنة) ليس بحق محتوم ولا جزاء مجزوم ، وإنما هو فضل من الله تعالى . والعقاب لا يجب أيضا ، والواقع منه هو عدل من الله . وما وعد الله به من الثواب ، أو توعد به من العقاب ، فقوله الحق ووعده الصدق » .

ويذكر بعده تلميذه الامام أبو حامد الغزالى حجة الإسلام أن الله إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب ، بل إن شاء أثابهم ، وإن شاء عاقبهم ، وإن شاء أعدمهم ولم يحشرهم . ولا يبالى لو غفر لجميع الكافرين وعاقب جميع المؤمنين ، ولا يستحيل ذلك فى نفسه ، ولا يناقض صفة من صفات الألوهية . وهذا لأن التكليف تصرف فى عبيده ومماليكه . أما الثواب ففضل آخر على سبيل الابتداء .

وإذا تكون النتيجة أن الأمر فى هذه الناحية يرجع إلى الله وحده ، إن أثاب على الطاعة فبفضله من غير وجوب عليه ، وإن عاقب على المعصية فبعدله . وهذا وذلك لأنه لا حق لأحد عليه ، والكل ملكه ، فله التصرف فيه كيف يشاء

هذا هو صميم مذهب أهل السنة أو الأشاعرة ، وهم يستدلون لما ذهبوا اليه بآيات كثيرة ، ويكفي أن نذكر منها هذه الآيات :

١ ـ « **رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ** » الإسراء ٥٤ .

٢ ـ « **يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ** » . العنكبوت ٢١

٣ ـ « **قل : أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا** » الفرقان ١٥ .

٤ ـ « **مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ** » الانعام ١٦ .

واذا فلله أن يرحم من عباده من يشاء ، وله أن يعذب منهم من يشاء ، ولا يجب عليه ثواب أو عقاب بسبب الطاعة أو المعصية ، كما هو صريح الآيتين الأولين .

ويذكر الإمام فخر الدين الرازى ، وهو مفسر أهل السنة ومحاميهم ، فى تفسيره للآية الثالثة : أن الثواب غير واجب على الله تعالى ، وذلك لأنه يصرح بأن الجنة ستكون جزاء لهؤلاء الطائعين بوعد منه لهم ، ولو كانت مستحقة لهم لأعمالهم الطيبة لما كان الأمر بحاجة لأن يعدهم الله بها ، فإن الجزاء الواجب لصاحبه يستحقه من غير وعد به ·

كما يذكر فى تفسيره للآية الرابعة أن من يصرف الله عنه العذاب يوم الدين فقد ناله برحمته ، وعلى هذا فإن الطاعة لا توجب من نفسها الثواب ، كما أن المعصية لا توجب كذلك من نفسها العقاب ، بل هذا وذاك يكون بفضل الله ورحمته وعدله ·

واذا كان هذا هو مذهب أهل السنة واستدلالهم عليه ، فان المعتزلة يرون ، تطبيقا لأصل « العدل » وهو من أصولهم الخمسة المعروفة ، أن ثواب المطيع ، وعقاب العاصى إن مات بلا توبة صحيحة مقبولة ، كلاهما واجب على الله تعالى : وإلا ، لما كان عدل ولا نظام ، ولكان ما أخبر به الله من هذا الثواب والعقاب كذبا ، والكذب فى خبر الله سبحانه وتعالى مستحيل بلا ريب عند المسلمين جميعا ·

هذا هو مذهب « المعتزلة » ، كما فى كتبهم وفيما نقله عنهم غيرهم من رجال علم الكلام أو التوحيد ، على شىء من الخلاف بينهم فى بعض النواحى والتفاصيل · وفى هذا يقول إمام الحرمين الجوينى :

« وذهبت المعتزلة الى أن الثواب حتم على الله تعالى ، والعقاب واجب على مرتكب الكبيرة إذا لم يتب عنها · ولا يجب العقاب عند الأكثرين من وجوب الثواب ، لأن الثواب لا يجوز حبطه ، والعقاب يجوز اسقاطه عند البصريين وطوائف من البغداديين » ، أى من المعتزلة طبعا ·

هذا ، ولعل السبب فى اختلاف الفريقين (أهل السنة والمعتزلة) اختلافا كبيرا فى هذه المسألة ، يرجع فيما نرى إلى اختلافهم اختلافا كبيرا أيضا فى تصور الله سبحانه ·

فالأولون نظروا هنا إلى أنه لاحد لإرادة الله وقدرته ، وهذا يستلزم ألا يكون

لأحد ما حق أو واجب عليه ، حتى ولو كان الله هو الذى وعد فى القرآن بترتيب هذا الحق على نفسه .

والمعتزلة نظروا فى هذه المسألة لله من ناحية أنه عادل لا يظلم أحدا شيئا مما عمل ، ومن ناحية أن ما أخبر به يجب أن يتحقق ليكون جل جلاله صادقا فى خبره ، وقد أخبر فى القرآن بثواب المطيع وعقاب العاصى .

ومهما يكن مرجع هذا الخلاف الشديد بين الفريقين ، فان المعتزلة يجدون من القرآن نفسه أدلة وأسانيد كثيرة لمذهبهم . فالله تعالى يقول « **وما أنا بظلام للعبيد** » .. وهنا يقول الامام الزمخشرى فى تأويل هذه الآية بأن الله يريد أن يقول ، « **لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظالما مفرطا فى الظلم** » ومعنى هذا ، أن المطيع يجب ألا يعذب ، ثم يجب بعد هذا أن يثاب .

ونذكر بعد تلك الآية هذه الآيات الصريحة فى بيان بطلان مذهب أهل السنة ، والدالة على صحة مذهب المعتزلة ، وذلك على حسب تأويل هؤلاء لها ، وهى :

١ ـ « **وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ** » آل عمران ٥٧ .

٢ ـ « **تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ** » آل عمران ١٠٨

٣ ـ « **يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** » آل عمران ١٧١

٤ ـ « **وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** » آل عمران ١٦١ .

٥ ـ « **وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ** » آل عمران ١١٥

٦ ـ « **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** » الزلزلة ٧ ، ٨

٧ ـ « **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** » النساء ٤٠

من هذه الآيات ، يرى المعتزلة أنه يجب أن ينال كل انسان جزاء عمله من خير أو شر ، وإلا كان ظلما ، والله منزه عن الظلم ، ولا يحب الظالمين . ومن ثم لا يكون مجال لاغترار الانسان ، بل يكون على ثقة من أنه سينال جزاء ما يعمل من طاعة أو معصية .

ويذكر الزمخشري ، فى تفسير الآية الأخيرة فى كتابه « الكشاف » ، أن فيها دليلا على أنه لو نقص على الطاعة أدنى شىء ، أو زاد فى العقاب على المعصية ، لكان ظلما ، والله لا يفعل الظلم ، لا لأن ذلك - كما يقول - مستحيل على قدرته ، بل لأنه مستحيل على حكمته .

تلك نماذج من استدلال المعتزلة من القرآن نفسه لما ذهبوا اليه ، ومع ذلك يجب التفرقة بين أمرين ، عقاب العاصى ، وإثابة المطيع : إن عقاب العاصى واجب فى مذهبهم بلا ريب ، وذلك للآيات الكثيرة التى تدل عليه ، إذ توعد العصاة بهذا العقاب .

ومن هذه الآيات قوله تعالى : « **وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا** » النساء ١٤ وقوله : « **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا** » النساء ٩٣ « **وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** » الزلزلة ٨ ، وقوله : « **وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** » النمل ٩٠ .

وهكذا ، يرى المعتزلة من هذه الآيات وأمثالها أن عقاب من عمل سيئة كبيرة ولم يتب منها توبة صحيحة مقبولة واجب ، لأن الله تعالى أخبر بذلك فى القرآن ، وخبره صحيح دائما ، ولأن هذا هو « العدل » أيضا .

ولكن لخصومهم أن يقولوا بأن فى القرآن أيضا آيات كثيرة تدل على الوعد بالخير والمغفرة ، وذلك مثل قوله تعالى : « **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** » النساء ٤٨ وقوله : « **إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ** » هود ١١٤ وهى آيات صريحة فى أن فعل الخير قد يذهب بأثر ماكان من الانسان من شر ، فلا يعاقب إذا عليه .

ومعنى هذا ، كما يقول الإمام فخر الدين الرازى ، أنه يجب ترجيح جانب ما يدل من الآيات على العفو والمغفرة على ما يدل على العقاب ، فتؤوّل هذه الآيات حسب تلك حتى لا يكون تعارض فى القرآن ، وبخاصة أن من المعروف أن ترك الوعيد والعفو عن المسىء مستحسن عرفا ، على حين أن من القبيح عدم تحقيق الوعد بالخير والجزاء الحسن (١) .

وإذا كان كل من فريقى المعتزلة وخصومهم من أهل السنة يلجأ إلى القرآن والحديث فى تكوين مذهبه والاستدلال له ، فإن لنا رأيا نرى من الواجب أن نتقدم به هنا ، ومن الله التوفيق .

إن المعتزلة ضيقوا رحمة الله الواسعة حين أوجبوا عقاب العاصى إلى حد تخليد مرتكب الكبيرة ولم يتب عنها فى النار ، فهم فى هذا متشائمون التشاؤم كله . وذلك على عكس خصومهم من أهل السنة الذين كانوا بحق متفائلين ، ومستمسكين بحق بقوله تعالى : « **قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** » الزمر ٥٣ .

ونرى الموقف يتبدل فى مسألة الوعد بالجزاء الحسن والثواب على الطاعة وعمل الخير ، وذلك حين يرى الأولون أن هذا لا بد منه ، لأن جزاء الإحسان هو الإحسان كما جاء فى القرآن . على حين يرى الآخرون أن الله قد يثيب المطيع الخير ، كما له أن يعاقبه ، لأنه لا يسأل عما يفعل مادام يتصرف فيما يملكه .

ومن أجل هذا وذلك ، لنا أن نقول بأنه وإن كان المعتزلة منطقيين فى مذهبهم حين رأوا وجوب ترتيب الجزاء الحسن على فعل الخير ، فإنهم ليسوا كذلك حين يرون وجوب عقاب المؤمن الذى ارتكب شيئا من الكبائر ومات من غير توبة مقبولة ، وأن هذا العقاب سيكون تخليده فى النار .

ما الفرق إذن بين هذا وبين الكافر ! وكيف يكون الجواب « يوم الدين » إن قال ذلك المسلم : كيف أخلد فى النار ، كالكافر والمشرك ، وأنا مؤمن بالله ولم

---

(١) كتاب الاربعين فى أصول الدين .

أرتكب إلا ذنبا واحدا ! ولهذا ، نرى أن هذا لا يتفق والعدل الذى يحرص المعتزلة عليه ، هذا العدل الذى جعلوه أصلا من أصول مذ بهم الخمسة !

الحق هنا إذن مع أهل السنة ، ويجب لهذا تأويل آيات الوعيد بما يجعلها تتفق وآيات الوعد والعفو والمغفرة والرحمة .

ونقول ، مع هذا ، إن كل ما جاء فى القرآن من وعد ووعيد يجب أن يتحقق فى الدار الأخرى إن كان ذلك اخبارا من الله عما قرره أزلا كما يرى المعتزلة ، ولكن وعيده بالتخليد فى النار للقاتل عمدا مثلا لا يتفق والعدل كما ذكرنا آنفا .

وليس من الحق أيضا أن نقول مع أهل السنة بأن ذلك ليس اخبارا ، بل هو انشاء للترغيب فى عمل الخير والترهيب من عمل الشر ، وبإن ذلك كله قد يتحقق وقد لا يتحقق كما هو الشأن فى الوعد والوعيد ، فإن هذا لا يليق فى جانب الله سبحانه وتعالى .

وإذن ، نرى أن الأقرب الى الحق ، إن لم يكنه ، أن نقول بأن ذلك من باب التشريع الذى أراد الله به بيان جزاء كل من المطيع والعاصى ، وهذا الجزاء من شأنه أن يدفع للخير ويبعد عن الشر فى الدار الدنيا .

ولكن الدار الآخرة هى دار جزاء لا عمل ، هى دار لا يجدى فيها الثواب للدفع إلى عمل الخير ، ولا العقاب للبعد عن الشر .

وإذن ، فالله تعالى سيثيب حتما على الخير من أطاعه ، لأنه وعد بهذا ، وليس أولى منه سبحانه بالوفاء كما جاء فى القرآن ، وسيعاقب على الشر عقابا يناسبه ، لا بالتخليد فى النار لارتكاب ذنب واحد مهما كان كبيرا مادام صاحبه مات على الإيمان .

وله أن يعفو إن شاء لأمر يختص به وحده ، ولأن العفو مع المقدرة أليق بالكريم الرحيم ، وكيف لا يكون له سبحانه هذا ، وهو يدعو الذين أسرفوا على أنفسهم ألا ييأسوا من رحمة الله الغفور الرحيم !

وللجلال الديوانى شارح العقائد العضدية كلام لا يبعد فى آخر الأمر ، من ناحية النتيجة العملية ، عن هذا الرأى الذى نراه ، وهذا إذ يذكر أن بعض العلماء

ذهب الى أن الخلف فى الوعيد جائز على الله تعالى، بخلاف الوعد بالخير. وبهذا وردت السنة عن الرسول إذ يقول صلى الله عليه وسلم: «من وعده الله على عمله ثوابا فهو منجزه له، ومن أوعده على عمله عقابا فهو بالخيار».

وعن الأصمعى: قال: جاء عمرو بن عبيد (١) الى أبى عمرو بن العلاء (٢) فقال: يا أبا عمرو! أيخلف الله وعده؟ قال: لا، قال: أفرأيت من أوعده الله على عمله عقابا أنه يخلف وعيده فيه؟ فقال أبو عمرو: من العجمة أتيت يا أبا عثمان! إن الوعد غير الوعيد، إن العرب لا تعد عيبا ولا خلفا ان تعد شرا ثم لا تفعله، بل ترى ذلك كرما وفضلا، وإنما الخلف أن تعد خيرا ثم لا تفعله.

قال: فأرنى هذا فى كلام العرب، قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

وإنى وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

والذى ذكره أبو عمرو بن العلاء ــ كما يقول الجلال الدوانى ــ هو مذهب الكرام، ومستحسن عند كل أحد خلف الوعيد.. ولقد أحسن يحيى بن معاذ في هذا المعنى حيث قال: الوعد والوعيد حق، فالوعد حق العباد على الله إذ ضمن لهم أنهم إذا فعلوا كذا أن يعطيهم كذا، ومن أولى بالوفاء من الله! والوعيد حقه تعالى على العباد إذ قال، لا تفعلوا كذا فإنى أعذبكم، ففعلوا، فإن شاء عفا، وإن شاء أخذ. لأنه حقه تعالى، وأولاهما بربنا العفو والكرم، لأنه عفو غفور.

وبعد هذا، أشار الدوانى إلى الرأى الذى نراه فى أيات الوعد والوعيد، وبخاصة آيات الوعيد، على أنها انشاءات يجوز أن تتحقق وألا تتحقق، تبعا لإرادة الله وعدالته ورحمته، وذلك حتى لا تكون أخبارا من الله فيلزم الكذب فيها إن لم تتحقق فى الدار الأخرى، وهذا حيث يقول:

اللهم إلا أن تحمل آيات الوعيد على استحقاق ما أوعد به، لا على وقوعه

---

(١) هو من كبار رجال المعتزلة. وتوفى عام ١٤٢ هـ.

(٢) احد القراء السبعة اللغويين الكبار. وتوفى سنة ١٥٤ هـ

بالفعل .. وفى الآية المذكورة (١) إشارة الى ذلك حيث قال « فجزاؤه جهنم » ، أى جزاؤه المستحق هو الخلود .

وأخيرا ، إننا بهذا الرأى الذى نتقدم به نكون قد حققنا للمعتزلة ما يحرصون عليه من وجوب اثابة المطيع عدلا من الله تعالى ، لأنه جل شأنه قد وعد بذلك ، ولا أحد أولى بالوفاء منه ، كما جاء فى القرآن .

كما نكون قد بينا أنه من الراجح أن يغفر الله لبعض العصاة من المؤمنين ، ولا يكون ذلك كذبا فى اخباره ، الأمر الذى يخافه المعتزلة وغيرهم طبعا ، كما لا يكون كذلك ترغيبا وترهيبا فقط على ما يذهب اليه أهل السنة ، وهو مالا يليق بالله سبحانه وتعالى .

وبخاصة ، أن هذا الغفران على ما يريده تعالى هو من حقه وحده ، مادام تلك الآيات هى تشريع لا اخبار . وبخاصة أيضا ، أن عدم تخليد العصاة فى النار ، على ما يرى بعض المعتزلة أخذا من ظاهر بعض الآيات ، هو أقرب للعدل ـ إن لم نقل هو العدل الكامل ـ الواجب نسبته إلى الله تعالى .



(١) هى الآية رقم ٩٣ من سورة النساء . ونصها ، « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها . وغضب الله عليه ولعنه . واعد له عذابا عظيما » .

القسم الثالث

النُّبُوَّةُ، والبَعثُ ومَا يكونُ عنهُ

الفصل الأول
النبوة والرسالة

ان اثبات النبوة ورسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام مما يعنى به كل علماء التوحيد أو الكلام . وذلك لأن هذا من أركان الدين . واعتقاد جوازه ووقوعه أمر ضرورى . فان كل ما نعرف من أديان عالمية صحيحة يرجع الى وحى الله تعالى الى من اختارهم من عباده ليكونوا رسلا الى الناس .

ونرى هنا أن نتحدث أولا عن اثبات النبوة والرسالات الالهية بصفة عامة . وبيان وجه الحاجة اليها . ثم بعد هذا عن الحاجة الى رسالة رسول الاسلام . وعن إثباتها بما لا يقبل الجدل ممن يريد الاقتناع بالحق متى تبين له .

١ ـ الرسالات بصفة عامة

قد يصل بعض الناس . أو كثير منهم . الى معرفة الله بعقله . بطريق الاستدلال من وجود الموجودات الرائعة المبدعة على وجود الله قوى قادر مبدع عليم حكيم . هو الذى أوجدها وأبدعها على هذا النظام الرائع بلا مثال سابق .

وقد يصل كثير من الناس الى أن يعرف الخير من الشر . ويميز الفضيلة من الرذيلة . بعقله وضميره . وأن يجعل هذا الضمير بمنجاة من الانحراف والضلال فى حكمه . حتى يكون له هاديا ومرشدا حين يستفتيه فيما يفعل أو يذر .

وقد تصل أمة من الأمم . أو قوم من الناس . الى أن يضعوا لأنفسهم شريعة ينزلون على أحكامها فى معاملاتهم وفيما قد يشجر بينهم من خلاف . ويجعلون فيها من الجزاء والعقوبات ما يردع من يريد انتهاكها أو الانحراف عنها .

وربما أمكن البعض أيضا أن يدرك أنه لا بد من حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا . وذلك ليلقى الفاضل الخير جزاء عمله الذى فاته فى هذه الحياة . وليعاقب الشرير على ما اقترفه من الذنوب والآثام وأفلت من جزائها .

قد يكون بعض ذلك أو كله لبعض من الناس فى بعض الأزمان والأحوال ، ولكنه لا يمكن أن يأتى للناس جميعا فى كل زمن وكل حال · فان الناس مختلفون أشد الاختلاف فى العقول والاستعدادات ، ومختلفون كذلك فى البيئات التى يعيشون فيها ، والحياة معقدة بظروفها وما تقتضيه من أعمال ·

وكل هذا لا يدع لكل منا أن يعرف يقينا الخير من الشر دائما ، ولا ما فيه سعادته أو منه شقاؤه وخساره · بل ، ان هذا لا يجعل للانسان أن يعرف ما هى السعادة وما هو الشقاء ، وبخاصة فى الدار الأخرى ، ولا كيف تكون الحياة فيها · هذه الدار التى لا يتأتى لعقل بشر بحال ما أن يعرف من نفسه شيئا من أحوالها ·

من البدهى اذن أن الإنسان لا يستطيع أن يكتفى بعقله وضميره فى كل شىء مما ينبغى أن يعرفه ،فيما يتعلق بالله وصفاته ، والحياة والشرائع التى تسوسها والتى لا بد منها لصلاحها وصلاح الناس جميعا ، والدار الأخرى وما يكون فيها من حساب وجزاء بالنعيم أو العذاب الأليم ·

ودليل هذا ، ان كان البدهى يحتاج الى دليل ، ما نراه قبل الرسالات الالٓهية من الضلال الذى شمل العالم فى ذلك الزمان القديم ، بل ما نراه بعد أن خفت صوت الرسل وضاعت معالم الرسالات الماضية الى قبيل رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ، اذ كان الناس كما نعرف جميعا يعبدون ما شاءوا من حجر أو شجر وما ينحتون من تماثيل وأصنام ، ويؤلهون بعضا منهم ، ويستذل بعضهم بعضا آخر ·

بل ان المصريين القدامى مع عبقريتهم العلمية ، كان منهم من ألهوا الفراعنة وعبدوا العجل · وكذلك كان اليونان الأقدمون ، مع عبقريتهم أيضا فى الفلسفة والعلم ، وثنيين ، ومثلهم الرومان القدامى مع حظهم الموفور من الفلسفة والأخلاق والقانون ، فكيف غير هذه الأمم الراسخة الأقدام فى التفكير التى حرمت الاستعداد العقلى والفكرى !

ومع ذلك كله ، فقد وجدت أقوام تنكر النبوات والرسالات الآلهية ، ومنهم البراهمة الهنود ، اذ زعموا أن ما يجىء به الرسول إن كان مما يستطيع العقل

معرفته ، كان لا فائدة من بعث رسول به . وما يخلو من غرض صحيح عبث وسفه ، وان كان ما جاء به مما لا تدل عليه العقول ، كان حريا به ألا يتلقى بالقبول ، لأن المقبول هو ما تدل عليه العقول .

وقد أولع بهذا الرأى نفر ممن قالوا أسلمنا ولم يدخل الايمان فى قلوبهم ، ومنهم أبو الحسين أحمد بن يحيى بن اسحاق الراوندى (١) الذى يحكى قول البراهمة على هذا النحو :

« ان البراهمة يقولون انه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله على خلقه ، وأنه هو الذى يعرف به الرب ونعمه ، ومن أجله صح الأمر والنهى والترغيب والترهيب . »

فان كان الرسول يأتى مؤكدا لما فيه من التحسين والتقبيح والايجاب والحظر ، فساقط عنا النظر فى حجته واجابة دعوته ، اذ قد غنينا بما فى العقل عنه ، والارسال على هذا الوجه الخطأ . وان كان بخلاف ما فى العقل من التحسين والتقبيح والاطلاق والحظر ، فحينئذ يسقط عنا الاقرار بنبوته » .

وغنى عن البيان أن هذه الحجة باطلة ولا تغنى شيئا ، فان العقل لا يمكن أن يصل الى كل شىء كما هو معروف ، كما أن من الخير ارسال الرسل بما تقبله العقول فيكون هذا بيانا وتأكيدا له ، وبالرسالة الالٓهية يطمئن الانسان اذن الى ما وصل اليه أو قريبا منه بعقله .

على أنه من الواضح أنه ليس كل انسان يصل بعقله وحده الى كل ما يأتى به الرسول من عند الله ، وأن من وصل الى شىء منه لا يتبعه الناس عادة ويذعنون له ويسلمون بما أدركه تسليما ، لأنه لا دليل معه من الله على صدق ما وصل اليه . بخلاف أمر الرسول الذى يؤيده الله بالمعجزات الدالة على صدقه فيما بلغه عن الله رب العالمين .

---

(١) كان رجلا عالما ملحدا . وله مجالس ومناظرات مع بعض علماء الكلام . توفى عام ٢٤٥ او ٢٥٠ هـ . وراوند قرية من قرى قاسان بنواحى اصبهان .

النبوة والرسلات الالهية اذن فضل من الله ورحمة للناس جميعا على اختلاف عقولهم ومداركهم ، ولولاها لظلت الانسانية تهيم فى الضلال الا من عصم الله . وبها قامت الحجة لله على خلقه . ولهذا يقول الله تعالى أمره وعظمت حكمته فى سورة النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥ .

« إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » .

واذا كانت النبوة والرسالات الالٓهية بصفة عامة بحاجة الى دليل بعد ذلك ، فان علماء الكلام أو التوحيد نهضوا به وقاموا به خير قيام . انهم يقولون إن جواز إرسال الله رسلا من الناس الى خلقه ليس مما يستحيل وقوعه ، كاجتماع الضدين أو تحول الجنس الى جنس آخر (كتحول الحجر الى ذهب مثلا) ، اذ لا يمنع العقل جواز أن يأمر الله عبدا من عباده بأن يشرع الأحكام الى الناس ، ويوضح لهم الهدى من الضلال والخير من الشر .

إن إرسال الله تعالى هؤلاء الرسل الى الناس ، يعتبر بحق لطفا منه بهم ، ليكون هذا داعيا قويا لهم لأن يؤمنوا بما وصلت اليه العقول وأيدته الرسالة الالٓهية ، وليعرفوا الحقائق الأخرى التى يعجز العقل الانسانى وحده عن معرفتها .

وكذلك ، ان الله عليم ومتكلم وقادر على كل شىء ، فليس ما يمنع من أن يبلغ ما يريد للناس باحدى وسائل الوحى التى نعرفها . وأيضا ، ان من المشاهد المعروف أن يرسل المالك رسولا الى عبيده المملوكين له ، فيجب اذن أن يكون هذا جائزا فيما يتعلق بالله والناس ، مادام الله يملك الخلق جميعا ، وله قدرته على تبليغهم ما يريد .

هذا ، ومن الخير أن نأتى بعد ذلك بكلمة للامام الشيخ محمد عبده ، ففيها تدليل واضح من نواح مختلفة على جواز النبوات والرسالات الالٓهية للعالم

والبشرية جميعا ، بل على حصولها فعلا ، وأن ذلك كان لابد منه لهداية الانسانية وصلاحها ، وذلك اذ يقول فى رسالة التوحيد :

أليس من حكمة الصانع الحكيم الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم ، والذى خلق الانسان وعلمه البيان ، علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل ، أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ؟

يميزهم بالفطرة السليمة ، ويبلغهم بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه الاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، بما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته .

فيشرفون على الغيب باذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين : نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها .

ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله ، وما خفى عن العقول من شئون حضرته الرفيعة ، بما شاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية . وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه ، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم .

وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم ، فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى إجماله ، ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة .

ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين

لا ريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع فى كل كائن صفته ، وجاد

على كل حى بما اليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه ـ لا ريب أن هذا يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه ، والضلال فى أفضل حاليه .

فأقام (للانسان) من بين أفراده مرشدين هادين ، وميزهم من بينها بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة فى الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه .

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له . ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى .

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته ، أولئك هم الأنبياء والمرسلون .

فبعثة الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه . ومنزلتها من النوع منزلة العقل الشخصى ، نعمة أتمها الله ،لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

٢ - رسالة محمد ﷺ

واذا ثبت جواز أن يرسل الله الى خلقه رسلا مبشرين ومنذرين ، وأن ذلك قد وقع فعلا لمكان حاجة أممهم أو أقوامهم اليهم ، فان النتيجة التى تلزم من هذا ثبوت رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين للبشرية جميعا ، وذلك للأدلة التى قامت على هذه الرسالة العامة الشاملة ، هذه الأدلة التى لا ينكرها الا معاند مكابر ،

وللحاجة الماسة التى كانت واضحة لرسالته بعد أن ضاعت معالم الرسالات السابقة ، وأصبح العالم فى حيرة شاملة ، لا يخرجه منها الا رسالة الٓهية جديدة شاملة ، على ما ذكرناه أول الكتاب ·

لقد أمد الله سبحانه وتعالى رسله السابقين بالمعجزات التى تؤيدهم فى أنهم رسل من لدن رب العالمين ،مثل انقلاب العصا حية بالنسبة لموسى عليه السلام ، وإبراء الاكمه والأبرص واحياء الموتى بالنسبة لعيسى عليه السلام · ولكن هذه المعجزات كلها كانت من غير جنس ما ادعاه من الرسالة الالهية كل من أولئك الرسل السابقين ·

أما معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ودليله الذى تحدى به المكذبين لرسالته فباءوا بالخسران المبين ، فهو أمر من جنس ما ادعاه ، ووثيق الصلة برسالته التى أمر من الله بتبليغها للناس كافة ·

وذلك هو القرآن وحده ، هو الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه ليس من كلام البشر ، بل هو تنزيل من رب العالمين · ولهذا عجز العرب جميعا ، وهم أهل اللسن والبلاغة والفصاحة ، على أن يأتوا بسورة من مثله حين تحداهم صلى الله عليه وسلم به ·

ان محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يدع الرسالة متحديا المعارضين بأمور خارقة للطبيعة كالتى كانت من إخوانه الرسل الذين جاءوا قبله ، والتى ليست من جنس الرسالات الآلٓهية ، ولهذا ، كان حين يطلب معارضوه منه شيئا من هذه الخوارق ، لم يكن يجيبهم الا بمثل هذا الجواب : سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا ، وفى ذلك نذكر هذه الآيات من سورة الاسراء : من ٩٠ ــ ٩٣

« وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا · أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا · أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا · أَوْ يَكُونَ

لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا . (١)

واذا كان محمد صلى الله عليه وسلم لم يعتمُد على مثل هذه الأمور للتدليل على صدقه فى رسالته ، فانه اعتمد فى ذلك على المعجزة الكبرى وهى القرآن العظيم ،وكفى به أمرا معجزا ودليلا قاطعا على أنه رسول رب العالمين .

ان اعجاز هذا « الكتاب » الذى يدل دلالة قطعية على أنه من عند الله ، وقد آتاه خاتمَ أنبيائه ورسله ، يظهر لنا بوضوح متى قرأناه وتعمقناه وفهمناه حق الفهم ، اذ ترى فيه الأنباء بأمور غيبية لم يكن محمد يعرف شيئا منها قبل الوحى ، من أخبار الأمم الماضية والأيام الخالية وما كان فيها من أحداث ، وبخاصة أن من كان من اصطفاه الله لتنزيله عليه كان أميا لم يقرأ الكتب ولم يختلف الى أحد من المعلمين يأخذ عنه .

وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة العنكبوت الآيات ٤٨ ، ٤٩ : « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ » .

كما يقول جل شأنه فى سورة القصص ، فى سبيل دلالة ما فى القرآن من أنباء القرون الأولى على أنه من عند الله ، وعلى أن محمدا رسوله .

« وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ، وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » . الآيات ٤٤ ــ ٤٦

وناحية أخرى من نواحى اعجاز القرآن ودلالته على صدق الرسول فى نبوته ورسالته عن الله ، وهى جمعه الجزالة والنظم البديع والأسلوب الذى تفرد به ، وهو أسلوب مخالف لكل أساليب كلام العرب جميعا .

---

(١) ينبوعا : عينا لاينضب معينها . كسفا : قطعا . قبيلا : مقابلة وعيانا او جماعة : زخرف . ذهب .

ولهذا . كان سماع القليل من القرآن حريا بأن يلفت السامع الى أنه يسمع كلاما ليس من كلام البشر . وأنه لو انفك عن العناد لآمن به وخر له ساجدا . وصدق أنه تنزيل رب العالمين على من اصطفاه لأداء رسالته للناس كافة ·

ها هى ذى قريش تتملكها الحيرة من أمر محمد وما جاء به . فيتشاورون ماذا يفعلون به . وينتهى الرأى بأن يرسلوا اليه سيدا من ساداتهم هو « عتبة بن ربيعة » لعله يصل منه الى مخرج مما يعانون من حيرة وضيق أخذ منهم بالأنفاس ·

ويقول عتبة لمحمد ما أراد أن يقول . حتى اذا فرغ أسمعه الرسول آيات من أوائل سورة « فُصّلَت » . ثم يعود الى القوم فيسألونه : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فيقول لهم : لقد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ! والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ! الى آخر ما قال ·

ولأمر يقول الله لرسوله فى سورة التوبة الآية ٦ : « وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » . ان هذا معناه . فيما نرى ، أن من طبيعة نظم القرآن وأسلوبه أن سماع القليل منه يشعر السامع حقا أنه مباين لكلام البشر . ولكنه من كلام رب العالمين ·

ومع هاتين الناحيتين ـ ناحية ما فى القرآن من أنباء الغيب وأخبار الأمم الماضية . وناحية نظمه وأسلوبه ـ الدالتين على أن القرآن معجز بلا ريب للناس جميعا ، بل وللانس والجن وان كان بعضهم لبعض ظهيرا . وان هذا دليل أى دليل على صدق الرسول وثبوت نبوته وصحة رسالته ـ نقول بأنه مع ذلك كله ، فان الفيلسوف والقاضى الأكبر ابن رشد يزيد عليه ناحية أخرى تفرد بها عن علماء الكلام أو التوحيد ·

انه قد أربى عليهم حقا بما ذهب اليه . وبينه فى « مناهج الأدلة » . من أنه لتدل المعجزة دلالة قاطعة على النبوة . يجب أن تكون مناسبة لرسالة النبى ، هذه الرسالة التى هى ارشاد البشر الى الحق والعدل بالشريعة التى يأتى بها ، وهذا تماما مثل ما يدل الابراء من المرض على صناعة الطب لمن يدعيها ·

ويعتبر القرآن من هذه الناحية هو المعجزة الكبرى للرسول صلى الله عليه وسلم ، فان الشرائع التى تضمنها من العلم والعمل ليست مما يمكن أن يكتسب بتعلم ، بل هى بوحى من الله العليم الحكيم .

هذه الشرائع التى غايتها سعادة الانسانية ، والتى لا تنال الا بعد معرفة الله والاتصال به ، والمعرفة بالسعادة والشقاوة ما هما ، وما هى الأمور التى تؤدى الى الأولى وتبعد عن الأخرى ، الى آخر ما يتصل بهذا وذاك كله التى لا تتبين الا بوحى أو يكون تبيينها بوحى أفضل .

واذا ثبت أن القرآن معجز من تلك النواحى كلها ، أى باخباره بكثير من الغيب وأنباء الماضيين ، وبنظمه وأسلوبه ، وبمناسبته لرسالة الرسول من لدن الله تعالى لتعليمهم الشرائع التى سعادتهم فى اتباعها والعمل بها ــ اذا ثبت هذا ، كان طبيعيا أن يكون دليلا على صدق النبى الأمى فيما صدع به من أنه رسول رب العالمين .

ومن الخير أن نأتى بكلمة أخرى للأستاذ الشيخ محمد عبده ، من رسالة التوحيد ، ختم بها حديثه عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأصولها وأثرها فى اصلاح الأمم والملل ، وكيف قام بأعبائها وحده ، وذلك اذ يقول :

أى برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمى قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرأون ، بعيد عن مدارس العالم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء !

غريب فى أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننها البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها !..

أن هو الا بشر يوحى اليه . نبى صدق الأنبياء ولكن لم يأت فى الاقناع برسالته بما يلهى الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر .

ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ،

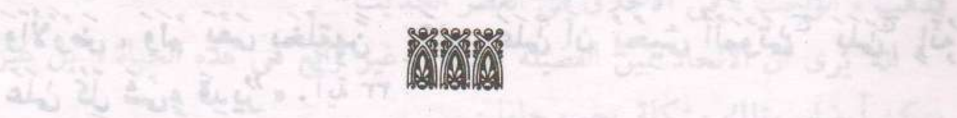
وحاكم اليه الخطأ والصواب . وجعل فى قوة الكلام ، وسلطان البلاغة ، وصحة الدليل ، مبلغ الحجة ، وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

هذا ، ولعقيدة الأيمان بالنبوة والرسالات الالّهية بصفة عامة ، وبرسالة محمد ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم بخاصة آثار لا يقدر قدرها .

إنها تجعل الانسان على يقين مما كثر فيه تخبط الفلاسفة والمفكرين من قديم الزمن الى اليوم ، فيما يتعلق بوجود الله وصلته بالانسان فى أعماله وتوجيهه الى الخير ، وفى اطمئنان قلبه وعقله الى ما جاء به الرسول من حقائق خاصة بعالم الشهادة وعالم الغيب معا ، وهى حقائق ما كان العقل الانسانى . مهما كان مرهفا وألمعيا يصل اليها وحده .

ويكفى هنا أن نشير الى الفروق الضخمة بين المؤمنين وبين غيرهم من الأمم والشعوب التى ظلت حتى اليوم جاحدة رسالات الأنبياء وما جاءوا به من البينات والهدى والفرقان بين الحق والباطل ، سواء ذلك فى المعتقدات ، أو أصول الأخلاق ، أو التشريعات .

ما أكبر الفرق بين من يعيش على هدى من العقل الانسانى الذى كثيرا ما يضل ، وبين من يسير فى العقيدة والتشريع والأخلاق والسلوك على الهدى الالّهى الذى جاء به الأنبياء ، والذى لا يأتيه الباطل من أى جانب من جوانبه ! ولا عجب ! فان الوحى والرسالات الالّهية رحمة عامة لجميع الناس فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وفى الدنيا والآخرة معا .



الفصل الثانى

البعث والحياة الأخرى

١ - البعث

إن من يؤمن بالقرآن وأنه وحى من الله العليم الحكيم الى رسوله المصطفى الذى لا ينطق عن الهوى ، يؤمن بلا ريب أن لنا بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى خالدة ، حياة أخرى يجزى كل انسان فيها عما عمل ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

تلك أمور بدهية لا تحتاج الى بيان أو دليل بعد كتاب الله ، فهو ملىء بالآيات الدالة على البعث والحساب ، ونذكر هنا بعضا منها :

ففى سورة « الحج » يقول الله تعالى : « **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ، وَأَنَّهُۥ يُحْيِى ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ** » آية ٦ ، ٧

وفى سورة « المؤمنون » يقول : « **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ** » آية ١٥ ، ١٦

وفى سورة « يس » يقول : « **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ : مَن يُحْيِى ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** » . آية ٧٨ ، ٧٩ .

وفى سورة « الأحقاف » يقول : « **أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** » . آية ٣٣

وفى سورة البقرة يقول : « **وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** » . آية ٢٨١

ويقول كذلك فى سورة « آل عمران » : « رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ » آية ٩ ويقول : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا » . آل عمران ٣٠

فى هذه الآيات ، ولو شئنا لآتينا بكثير من أمثالها من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، دليل قاطع على أن حياتنا لن تنتهى بالموت ، بل إن لنا لحياة أخرى فيها الحساب ، وفيها الثواب والعقاب .

وإن كان البعث حقيقة من الحقائق التى جاء بها الدين ، فإنها أيضا من الحقائق التى يأمر بها العقل السليم والمنطق الصحيح .

وذلك بأن العقل والمنطق يوجبان أن يكون بين الفضيلة والخير ، وبين الرذيلة والشر ، رابطة العِليّة والمعلول ، بمعنى أن الفاضل يجب أن يلقى خيرا جزاء عمله الصالح ، وأن الأثيم يجب أن يلقى شرا جزاء عمله السيىء .

ولكن هذا قد لا نجده فى هذه الحياة التى نحياها على وجه الأرض . فما أكثر الفضلاء التاعسين فى حياتهم ، وما أكثر الأشرار الذين ينعمون بخيرات الدنيا وزينتها ! وهذا وذاك ، نحسه ونلمسه بالنسبة الى الأفراد والجماعات .

ـ وإذن ـ لابد من حياة أخرى يلقى فيها الأخيار جزاء ما قدموا من صالحات الأعمال ، وينال فيها الأشرار عقاب ما كان منهم من شرور وآثام ، فهذا وذاك واجب فى شرعة الأخلاق .

وذلك ما لاحظه بحق أحد سادة التفكير الانسانى ، وهو فيلسوف ألمانيا الأشهر « يمانويل كانت ـ Emmanuel Kant » الذى توفى عام ١٨٠٤ م ، وأحد أعلام مذهب « الواجب » فى الأخلاق فى العصر الحديث .

انه يرى أن الاتحاد بين الفضيلة والسعادة غير واقع فى هذه الحياة ، بل غير ممكن أيضا ، وتلك مشكلة يجب حلها .

وقد رأى ، فى سبيل حلها حلا عقليا ، أنه لابد من فرض وجود الله وخلود الروح ، وجعل هذا من بداهة علم الأخلاق ومسلماته : وأن يكون الآله كامل العلم ،

ليعلم تماما قيمة كل إنسان وعمله وما يستحقه من سعادة ، كما يكون كامل القدرة ، ليتخطى قوانين الطبيعة ـ التى لا تربط بين الفضيلة والسعادة برابطة العلة والمعلول ـ ويثيب الفاضل ·

كما يرى أن هذا كله لا يكون على كماله إلا فى الدار الأخرى التى يكون فيها الخير جزاء الفضيلة ، والشر جزاء الرذيلة · ولهذا ، يكون التسليم بذلك أمرا ضروريا فى علم الأخلاق ·

وهكذا ، نرى أن البعث والانتقال من هذه الحياة الدنيا الى الحياة الأخرى الخالدة أمر يتفق فيه العقل والدين ، أو كما يقول الفيلسوف ابن رشد ، هو أمر اتفقت عليه الشرائع وقامت عليه البراهين عند العلماء ·

وذلك ، لأن الانسان لم يخلق عبثا فى هذه الحياة ، بل خلقه الله لغاية جليلة يعتبر تحقيقها بأفعاله ثمرة وجوده فى الدار الدنيا ، فلا مناص ـ اذن ـ من أن يبعث بعد موته ليؤدى حسابا عما عمل فى سبيل هذه الغاية ، وفى هذا يقول الله العليم الحكيم فى سورة « المؤمنون » : « **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون** » ١١٥ صدق الله العظيم ·

٢ ـ الحياة الأخرى

هذه الدنيا دار تكليف وعمل ، والأخرى دار حساب وجزاء ، هذا ما يقول به الدين ، ويقضى به العدل والعقل والمنطق ، ويصدق به المؤمنون · ولكن الجاحدين بالله وبرسالاته ، يرون أنه لا حياة بعد هذه الحياة على ظهر الأرض ، وأن الموت بداية العدم الذى لا يتلوه وجود ولا حياة أخرى بحال ، وهؤلاء لا يصح أن يقيم العاقل لهم وزنا ولا لآرائهم ، وسيتمثل لهم بعد الموت باطل ما كانوا يعتقدون ·

وهؤلاء الجاحدون المنكرون لله وأنه الذى يحيى ويميت ، يقولون : إن هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، ويقولون «ما يهلكنا الا الدهر» ألا ساء ما يظنون»

ومن العجب أنهم يقسمون بالله الذى لا يعترفون به ، أو يعترفون به على غير ما ينبغى ، على أن من مات فقد ذهب الى غير رجعة ، فلن يبعث ـ اذن ـ أحد الى الحياة من جديد ! وفى هذا يقول الله تعالى :

« وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ . إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » .(الآيات: ٣٨، ٣٩، ٤٠ من سورة النحل)

وليتهم وقفوا فى هذه المشكلة موقف المتردد الشاك ، اذن ، لكان من المحتمل أن يعودوا الى التصديق . فان الشك كما يقولون وسيلة الى اليقين إذا أعمل الشاك عقله ولم يقف موقف المعاند المكابر .

ثم ، أين يلتمس الفاضل الخير وهو فى حياته محروم مما يتمتع به الرذيل الشرير من متع هذه الحياة ، إن لم يكن موقنا بحياة أخرى خالدة يجزى فيها الجزاء الأوفى عما عمل من خير فى حياته الدنيا !

ومع هذا وذاك ، فأى ضرر فى الإيمان بالبعث والجزاء والخلود ، وأى مخاطرة فى اعتقاد أن ما جاء به الرسل من ذلك حق كل الحق ؟ لا ضرر فى هذا ولا مخاطرة ، بل إن هذا الإيمان هو الحزم والعقل على كل حال . وقديما قال أبو العلاء المعرى :

قال المنجم والطبيب كلاهما ∴ لا تحشر الأجساد ، قلت اليكما
ان صح قولكما فليس بضائرى ∴ أو صح قولى فالخسار عليكما

وقد كان من العرب فى الجاهلية من رفع الله الغشاوة عن قلبه وعقله ، فرأى أن هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا . ولكن كثرتهم الكاثرة كانوا على غير هذه العقيدة ، اذ كانوا يرون أنه من المحال أن يعود الى الحياة مرة أخرى من مات وصار ترابا ، وكانوا يقولون مستنكرين « أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » . الاسراء ٤٩

فرد الله عليهم بقوله : « قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا » (١) ٠الاسراء ٥٠ ، ٥١

وقد جاء أحد هؤلاء الجاحدين منكرى البعث والحياة الآخرة للنبى صلى الله عليه وسلم وبيده عظم حائل بال ؛ فقال : يامحمد ، أترى أن الله يحيى هذا بعد ما رم ! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « نعم ، ويبعثك الله ويدخلك النار » (٢)

ونزل فى هذا قوله تعالى من سورة يس « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » . الآية ٧٨ ، ٧٩

وقد كان جواب هذا المتعجرف المستنكر حاضرا من نفسه ، وذلك بأنه تناسى خلقه من لا شىء ، أو من نطفة لا أثر فيها للحياة ، فصارت بإرادة الله وقدرته حية ، وصار هو بشرا سويا ، فالذى فعل هذا قادر على إعادة الموتى إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت .

شبيه بهذه الآيات ودلالتها على البعث ، ماجاء عن ذلك فى سورة « مريم » وذلك اذ يقول الله تعالى : «وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا » آية ٦٦ ، ٦٧ وهذا لعمرى جواب بديهى ، ويؤكده الحس والمشاهدة فى الإنسان والحيوان والنبات ولكنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

وبعد ! فما مقدمات هذه الحياة الأخرى ، وكيف تكون ، وهل هى حياة خالدة ، وما جدوى الإيمان بها على الإنسان فى هذه الدار الدنيا !

---

(١) رفاتا : أجزاء مفتتة ، أو ترابا . يكبر : يعظم عن قبول الحياة . فطركم : أبدعكم . ينغضون إليك رءوسهم يحركونها استهزاء وانكارا .

(٢) قيل هو عبد الله بن أبى ، وقيل هو العاص بن وائل السهمى ، وقيل هو أبى بن خلف الجمحى . وراجع تفسير القرطبى ، جـ : ٥٧ ـ ٥٨ ، طبعة دار للكتب المصرية .

يقول الله تعالى : « **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** » (١) .

واذا . فالله وحده قد استأثر بعلم قيام الساعة ، وحلول يوم الدين والحساب والجزاء . وهذا اليوم لا يأتى الا بغتة ومفاجأة لنا . ولكنه مع هذا ، له مقدمات تلقى فى روع من يعيشون حينها أنه قد أظلهم وقتها ، وحان مجيئها . وتسمى هذه المقدمات « أشراط الساعة » فى لغة القرآن (٢) .

وقد ورد فى بيان هذه الأشراط والعلامات أحاديث وآثار. كما أشار الى بعضها القرآن ، وأكثر بعض المؤلفين من الحديث عنها إكثارا يعوزه التحقيق والدقة . وكل ذلك غير مطلوب هنا .

ولهذا ، نكتفى بأن نشير إلى أن قيام الساعة معناه فساد الأرض وما عليها من حياة . فيكثر فيها الفساد حتى يكاد يكون عاما فى العالم كله ، ويضعف شأن الإسلام حتى ليعود غريبا كما بدا على ما جاء فى الحديث الصحيح .

وحينئذ ، يكون من الخير أن يحل يوم الحساب والجزاء ، وذلك لكثرة ما يكون من الفتن والبلاء والطغيان والآثام ، حتى إن كثيرا ليرتدون عباد أصنام كما كانوا فى الجاهلية قبل الاسلام .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « **لا تقوم الساعة حتى تضطرب آليات نساء دوس على ذى الخلصة** » . أى تتحرك اعجاز نساء هذه القبيلة من الطواف حول هذا الصنم ، وقد كانت هذه القبيلة تعبده فى الجاهلية ، ومعناه العودة الى الكفر .

ويقول أيضا : « **لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول « يا ليتنى كنت مكانه** » ! أى من كثرة البلاء

---

(١) سورة الاعراف ١٨٧ . أيان مرساها : متى تقع وتكون . لا يجليها : لا يكشف عنها ولا يظهرها . حفى عنها : عالم بها لكثرة طلبك لها .

(٢) الاية ١٨ من سورة محمد عليه السلام . والاشراط : الأمارات والعلامات .

وفى حديث آخر ـ والثلاثة جميعا مما اتفق عليه الإمامان البخارى ومسلم ـ يقول صلى الله عليه وسلم : « **لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله** » .

على أن الموت هو المقدمة الحقيقية ليوم الدين بالنسبة لكل من حان أجله ، فهو نقلة له من الدنيا الى الدار الأخرى ، وربما جاز لنا أن نقول بأن الموت هو مفتاح هذه الدار والطريق الذى يؤدى إليها ، وبه يعرف الإنسان مآله من الجنة أو النار.

روى سيدنا عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إن احدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وان كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، فيقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة ».

وفى هذا ، يقول الله تعالى : فى سورة غافر ، فى شأن فرعون وآله : « **ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ** » . الآية ٤٦ .

فاذا كان يوم القيامة ، ذهبت الأرض بما عليها ، وفنيت السموات ، وأصبح الملك حقا خالصا لله وحده ذى القوة والجبروت ، ثم يكون بعد ذلك البعث للحساب والجزاء .

يحدث ابن عمر رضى الله عنهما أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض ، وتكون السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » .
وفى هذا يروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يقبض الله الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض » !

وفى هذه الآيات من سورة « الزمر » نجد أروع وصف لهذه الفترة العصيبة ، وأوضح بيان وأدقه ، وذلك فى إيجاز معجز :

« **وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَنُفِخَ فِى**

ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ، وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا . وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ، وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ »الآية ٦٧-٧٠

فاذا كان الحساب ، سيق كل الى مستقره من الجنة أو النار ، فلكل منهما فريق يعلمه الله العليم الحكيم ، وحينئذ ، يصير الى الجنة ونعيمها أهلها ، والى النار وعذابها أهلها .

يروى البخارى ومسلم عن حارثة بن وهب الخزاعى أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « **ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لابره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر** » (١) .

هذا ، ولا سبيل لنا لإدراك « الحشر والحساب » وما يكون فيه ، وكيف تكون الحياة فى الجنة ونعيمها الخالد ، وفى النار وشقائها الدائم إلا أن يشاء الله ، وما يكون بين أهل النار وأهل الجنة من نجوى أحيانا وجدل أحيانا أخرى - نقول لا سبيل لنا الى إدراك شىء من هذه الأمور وما اليها ، إلا من كتاب الله وحديث رسوله ، فعلى هذين المصدرين المقدسين وحدهما المعتمد فيما نذكره من أحوال الدار الأخرى والحياة فيها .

يقول الله فى سورة « الكهف » : « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ، وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » الآيات من ٤٧ - ٤٩ .

---

(١) متضعف . متواضع متذلل . لابره : لاجابة . العتل : الفظ الغليظ ، او الجافى الشديد الخصومة بالباطل . جواظ . جموح مختال .

ويقول جل ذكره فى سورة « الأنبياء » : « وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ » . الآية ٤٧ .

ويقول فى سورة « المؤمنون » : « فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ . فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ » . الآيات ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .

هذا قليل من كثير مما جاء فى القرآن عن الحشر والحساب كيف يكون ، وكيف ينتهى بمعرفة كل ماأعدله من جزاء عما عمل فى دنياه ، وأن هذا هو العدل كل العدل ، فإن الله لا يظلم أحدا شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

ولنسمع الى هذه الآيات من سورة « الزمر » ، ففيها بيان ابتداء انصراف أهل النار اليها ، وانصراف أهل الجنة اليها ، والحال الذى يستولى على كل من الفريقين حين ذاك :

« وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ . قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ . الآية ٧١ ، ٧٢

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ . وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ » . ٧٣ ، ٧٤

فاذا استقر أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، كان للأولين ما لا يخطر على قلب بشر من النعيم ، وللآخرين ما لا يعلمه إلا الله من العذاب الأليم . ولا نرى داعيا لأن نطيل بالكلام فى هذا أو ذاك ، فان القرآن ملىء بما يجعلنا ندرك أطرافا منه .

ويكفى أن نأتى عن نعيم أهل الجنة ـ جعلنا الله منهم ـ بهذا الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ والذى رواه البخارى ومسلم ، وهذا هو :

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « قال الله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر - أقرأوا ان شئتم : « **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** » (١)

ونذكر مع هذا ، حديثا آخر رواه الإمام مسلم ، رواه المغيرة بن شعبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول :

« سأل موسى صلى الله عليه وسلم ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجىء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟

فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله · ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك ، فيقول رضيت رب ·

قال (أى سيدنا موسى عليه السلام) : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر »

وهكذا ، يقال أهل الجنة فى الجنة ينعمون بهذا النعيم ، إذ آثرهم الله على كل خلقه ، فإذا بالله يطلع عليهم ويقول : « يا أهل الجنة ! فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك !

فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يا رب ، وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم أبدا » (٢) · وصدق الله

---

(١) سورة السجدة ، اية ١٧

(٢) رواه البخارى ومسلم

جل ذكره اذ يقول : « لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » ق ٣٥

وهذه الحياة الأخرى حياة خالدة بلا ريب ، فذلك ما جاء فى القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . فالقرآن العظيم يذكر هذا كثيرا فى آياته ، سواء بالنسبة لأهل الجنة ، أو بالنسبة للكافرين ، أو بالنسبة للعصاة والآثمين من المؤمنين .

ففى سورة « لقمان » « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ . خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » الآية ٨ ، ٩

وفى سورة « الأحزاب » : « إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » الآية ٦٤ ، ٦٥ ومثل هذا فى سورة « فصلت » : « ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ » . الآية ٢٨

وفى سورة « الزخرف » : « إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ[1] الآية ٧٤ ـ ٧٦

وربما جاء وصف العذاب بالخلود بالنسبة للعصاة من المؤمنين أيضا ، كما ذكرنا أنفا ، ومن هذا قوله تعالى فى سورة « النساء » ، « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا » . الآية ٩٣

وفيما رواه البخارى ومسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه اذا صار أهل الجنة الى الجنة ، وأهل النار الى النار نادى مناد : ياأهل الجنة لاموت ، وياأهل النار لاموت ، فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنا الى حزنهم » .

هذا ، والخلود بمعناه المطلق أى الذى لا نهاية له أبدا ، صحيح بلا ريب بالنسبة لأهل الجنة ، ولكن يجب أن يكون معناه المكث الطويل بالنسبة لبعض

---

(١) لا يفتر عنهم : لا يخفف عنهم . مبلسون . حزينون من شدة الياس .

أهل النار . أى العصاة من المؤمنين بالله وأنبيائه ورسله واليوم الآخر .

فان الله الرحيم قد يغفر لهم . كما قد يعذب من يشاء منهم حسب عدالته . ثم يدخله الجنة بعد أن ينال جزاءه من العقاب . والله يقول فى سورة « مريم »

« وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا (أى النار) كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » . آية ٧١ ، ٧٢

كما يقول جل ذكره فى سورة « النساء » « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ » آية ٤٨ ويقول فى سورة « الزمر »

« قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » الآية ٥٣

ومهما يكن . فهناك أحاديث تدور بين أهل النار وأهل الجنة معا . وبين أهل النار بعضهم مع بعض . وبين أهل الجنة بعضهم مع بعض كذلك . وقد قص علينا القرآن أطرافا من ذلك عبرة وذكرى لقوم يعلمون .

ها هم أولاء أصحاب الجنة فرحون بما آتاهم الله من فضله وقد صدقهم ما وعدهم من النعيم المقيم . فيسألون أصحاب النار : هل صدقهم الله وعيده ؟ وهذا ما حكاه الله تعالى فى سورة « الأعراف » بقوله :

« وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا . فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ » الآية ٤٤ .

وأولئك أصحاب النار يجدون منها العذاب الأليم . فيلتمسون من أهل الجنة أن يمنوا عليهم بشىء من الماء أو ببعض ما رزقهم الله . فيكون بينهم ما حكاه الله بقوله فى نفس السورة :

« وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ . ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا » . الآية ٥٠

وهذا فريق من الضعفاء تبعوا فى الدنيا سادتهم وكبراءهم فأضلوهم السبيل .

فصاروا مثلهم فى الإعراض عن الله ورسالته ، ثم جمعتهم الحياة الأخرى فى النار، فتكون بين الفريقين هذه المحاجة التى نراها ونقرؤها فى سورة غافر :

« وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ . قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ » . الآية ٤٧ ، ٤٨ .

ثم تستمر السورة فتصف لنا موقفا فيه استكانة وضراعة من جانب أهل النار، وفيه صد وافحام من جانب الملائكة الموكلين بهم ، وهذا اذ يقول الله تعالى :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ.قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ » . الآية ٤٩ ، ٥٠

وأخيرا ، هذا حديث ممتع يجرى بين أهل الجنة بعضهم مع بعض ، وهم فى فيض مستمر غامر من نعم الله تعالى عليهم ، فإنهم يتذكرون حياتهم الأولى فى الدنيا ، وما كان فيها من إغراء يدعو للإعراض عن الله وإنكار البعث ، فيكون بينهم هذا المنظر وهذا الحديث الذى قصه الله علينا فى هذه الآيات من سورة الصافات :

« قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ . يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ . أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ » اى محاسبون ومجزيون . ثم يلقى هذا المتحدث بصره ناحية النار ، فيرى هذا القرين منها ، فى الوسط فيقول لرفقائه فى الجنة :« قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ . فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ » فيقول له : « تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ.وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ » . (١) الآيات ٥١ ـ ٥٧

وتستمر الآيات لتحكى ، بهذا الأسلوب الرائع والنظم المعجز ، ما يحسه هؤلاء الرفقة من أهل الجنة من فرح وغبطة لما صاروا اليه :

---

(١) سواء الجحيم وسطها . لتردين لتهلكنى . من المحضرين اى للعذاب مثلك .

« أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . الآيات ٥٨ ـ ٦١ .

والآن ، فى نهاية المطاف فيما يختص بالعقيدة الاسلامية بصفة عامة ، وفيما يختص بعقيدة البعث والحياة الأخرى بصفة خاصة . هل نحن بحاجة للكلام عن جدوى الإيمان بهذه العقيدة التى هى خاتمة العقائد الإسلامية على الانسان فى هذه الحياة الدنيا ؟

لا نظن أن الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب . فإنه ليكفى أن نذكر أنه لولا هذه العقيدة لكان العالم أتعس مما هو الآن . إن رجاء الثواب الخالد يدفع الى عمل الخير . والخوف من العذاب الأليم يحجز كثيرا عن عمل الشر . وفى هذا وذلك صالح الأفراد والجماعات والبشرية عامة .

إن الايمان بهذه العقيدة يجعل الإنسان لا يتكالب على الدنيا ، ويطلبها من هنا وهناك بغير حق ، مادام يرى أن الدار الآخرة هى الحيوان . وأن متاع الدنيا بالنسبة اليها جد قليل ، وأن التنافس والصراع فى جميع حطام الدنيا مجلبة للآلام والشر آخر الأمر .

روى البخارى ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصارى أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح الى البحرين يأتى بجزيتها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى . فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافت صلاة الصبح مع النبى صلى الله عليه وسلم .

فلما صلى بهم الفجر انصرف ، فتعرضوا له ، فتبسم حين رآهم وقال : « أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيده قد جاء بشىء » ؟ قالوا : أجل يا رسول الله . قال : « فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فو الله لا الفقر أخشى عليكم . ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم » .

لا أريد بهذا أن أهون من شأن الدنيا الى حد الزهد فيها والانصراف عنها

ولكن أريد أن تكون حقا سبيل الآخرة ، وألا نجاوز بها قدرها ، وأن نضع أمام أعيننا هذا المثل الذى ضرب الله لها ، وهذه المقابلة التى عقدها بين متعها وزينتها وبين الأعمال الصالحات الباقيات ، وذلك اذ يقول فى سورة الكهف :

« **وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا . ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا** » . الآية ٤٥ ، ٤٦

إن الانسان متى آمن بهذا كله ، ومثل لنفسه ما أعد الله للأخيار من ثواب وللأشرار من عقاب ، كان حريا أن يتأى عن الشرور والآثام ، وأن يقبل على الخير ويبادر الى الطاعات ، رهبا ورغبا فيما عند الله من نعيم مقيم فى الدار الأخرى .

وكان حريا كذلك أن ينتفع بهذه الموعظة النبوية ، فقد روى ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمسا قبل خمس ، شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

ومن الله التوفيق ، وهو يهدى من يشاء الى الصراط المستقيم .



القسم الرابع

الشريعة الإسلامية

الفصل الأول

تعريف الشريعة الإسلامية، الحاجة إليها نشأتها وتطورها، كمالها

١ ـ التعريف بها

١ ـ يراد « بالشريعة » كل ما شرعه الله للمسلمين من دين، سواء أكان بالقرآن نفسه، أم بسنة الرسول. فهى، لهذا، تشمل أصول الدين، أى ما يتعلق بالله وصفاته والدار الأخرى وغير ذلك كله من بحوث علم التوحيد أو علم الكلام

كما تشمل ما يرجع الى تهذيب المرء نفسه وأهله، وما يجب أن تكون عليه العلاقات الاجتماعية، وما هو المثل الأعلى الذى يجب أن يعمل لبلوغه أو مقاربته. وما هى الطرق التى بها يصل الى هذا المثل أو الغاية من الحياة، وذلك كله هو ما يعرف باسم علم الأخلاق.

ومع هذا أو ذاك، تشمل الشريعة أحكام الله لكل من أعمالنا: من حل، وحرمة، وكراهة، وندب، وإباحة. وذلك ما نعرفه اليوم باسم (الفقه) المرادف لكلمة « قانون » فى عرف المحدثين.

وفى ذلك نجد أحد الذين غنوا عناية فائقة بتحقيق مصطلحات العلوم، وهو محمد على التهانوى يقول: « الشريعة ما شرع الله لعباده من الأحكام التى جاء بها نبى من الأنبياء صلى الله عليهم وعلى نبينا وسلم، سواء كانت متعلقة بكيفية عمل، وتسمى فرعية وعملية، ودون لها علم الفقه، أو بكيفية الاعتقاد، وتسمى أصلية واعتقادية، ودون لها علم الكلام »

الى آخر ما جاء فى مادة « شريعة » مما فيه التفرقة واضحة بينها وبين الفقه وإن كان قد ذكر ما يفيد أنها قد يراد بها الفقه فى بعض الأحيان من باب إطلاق العام ويراد به الخاص.

ومن قبل « التهانوى » ، نرى أبا اسحاق الشاطبى يفرق عرضا بين الشريعة والفقه . ذلك ، بأنه وهو يتكلم فى المقدمة العاشرة لكتابه « الموافقات فى أصول الشريعة » يقول : « إن معنى الشريعة أنها تحد للمكلفين حدودا فى أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم ، وهو جملة ما تضمنته » .

ومعنى هذا ، أن الشريعة مرادفة للدين ، وليس يراد بها الفقه وحده ، لأن الفقه لا يتعرض للاعتقادات كما نعرف جميعا ، بل ذلك موضوع علم الكلام أو التوحيد .

وقد عرفت اللغة العربية كلمة « شريعة » قبل كلمة « فقه » بزمن طويل ، ذلك بأننا نجد مادة : « شرع » ومشتقاتها وردت فى كثير من آى القرآن الكريم ، بل نجد كلمة « شريعة » نفسها جاءت فى قوله تعالى : « **ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا** (١) » ، وهذا فى مقابلة الشريعة الموسية والشريعة المسيحية ، ويراد بها الدين بصفة عامة .

على حين أن كلمة « فقه » لم تعرفها لغة العرب فى معناها الذى نريده اليوم إلا بعد مضى صدر من الاسلام ، وفى هذا يقول ابن خلدون فى الفصل الذى عقده للكلام عن علم الفقه وما يتبعه من الفرائض (٢) : « الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين ، بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة ، وهى متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفته من الأدلة ، فاذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها : « فقه » » .

ويذكر بعد هذا بأن هؤلاء الذين يستخرجون هذه الأحكام كانوا يسمون فى فجر الاسلام بالقراء .. تمييزا لهم عن الذين لم يكونوا يقرأون الكتاب الكريم ، اذ كان العرب أمية كما نعلم . « ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب ، وتمكن الاستنباط وكمل « الفقه » وأصبح صناعة وعلما فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء (٢) » .

---

(١) سورة الجاثية ٤٥ : ١٨

(٢) مقدمة ابن خلدون . مطبعة التقدم عام ١٣٢٢ هـ . ص ٣٥٣ .

٢ ـ الحاجة إليها

والفقه الاسلامى مثله مثل كائن حى مادى أو معنوى ، لا ينشأ من لا شىء ، ولا يبلغ كماله طفرة واحدة ، بل ينشأ من شىء موجود سابق عليه ، ويأخذ فى السير متدرجا فى مراتب الحياة والوجود حتى يبلغ أقصى ما يقدر له من نضج وكمال ، ثم ينال منه الزمن وأحداثه حتى يدركه الهرم .

والعرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وأصبحوا حملة الاسلام ودعاته وناشريه فى أقطار الأرض ، كانوا أمة أمية حقا ليس لها ما لجيرانها من الروم والفرس من علوم وفلسفات وثقافة عالية .

إنهم لم يكونوا يعنون إلا بعلم اللسان واللغة والشعر ، وبرواية السير والتاريخ ، وبشىء من علم التنجيم اضطرتهم اليه ظروف الحياة وعرفوه عن التجربة « لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب فى العلوم » كما يقول صاعد الأندلسى المتوفى عام ٤٦٢ هـ (١)

ونجد غير « صاعد » هذا ، يتعرضون قصدا أو عرضا لحالة العرب العلمية قبل الرسالة الاسلامية ، والباحث يرى الكثير من ذلك فيما رواه العلماء الأثبات وحفظه لنا التاريخ الصادق الأمين .

ومن هؤلاء العلماء ، نجد أبا اسحاق الشاطبى الذى يذكر أن العرب كان لهم اعتناء بعلوم ذكرها الناس ، ومن هذه العلوم « علم النجوم » وما يختص بها من الاهتداء فى البر والبحر ، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها ، وتعرف منازل سير النيرين ، وما يتعلق بهذا المعنى ، وهو معنى مقدر فى أثناء القرآن فى مواضع كثيرة .

ومنها ، علوم الأنواء ، وأوقات نزول الأمطار ، ونشوء السحاب وهبوب الرياح المثيرة لها . وهنا نجد الشرع ، القرآن والحديث ، قد جاء ببيان حقها من باطلها .

ومنها ، علم الطب الذى كان يقوم على التجارب ، لا على الأصول التى عرفها

(١) طبقات الامم . مطبعة محمد مطر بمصر ص ٥١

الأوائل من حكماء اليونان . الى آخر ما قال فيما يتصل بعلم التاريخ ومعارف أخرى (١) .

وقد كان للعرب مع ذلك ، بطبيعة الحال ، شىء من القوانين تحكم حياتهم ومعاملاتهم ، قوانين لم تصدر حقا عن سلطة تشريعية كما كان الحال بعد أن جاء الاسلام ، ولكنها كانت أوضاعا وتقاليد وأعرافا ، استفادوا أكثرها عن البلاد التى كانوا يعيشون بجوارها ويتصلون بها اتصالات عرفها التاريخ . ومن هذه البلاد : الشام ، وقد كان قطرا يطبق فيه القانون الرومانى ، والعراق ، حيث كان يسود القانون الفارسى ، فضلاً عمن كان في « يثرب » - التى سميت بـ « المدينة » فيما بعد - من اليهود وقد كان لهم قانونهم وتشريعاتهم الموسوية .

والى جانب ذلك ، نعرف من تاريخ الأمم والشعوب أنه كان لكل مجتمع ، مهما كانت درجته من الحضارة والرقى الفكرى والعملى ، حظه من قواعد قانونية يجرى عليها فى معاملاته وعقوده وتصرفاته المالية ، وفى المسائل الشخصية التى تبنى عليها الأسرة كالزواج ونحوه ، وفى علاج جرائم المجتمع بوضع العقوبات الزاجرة عنها الرادعة لمن يقترفون شيئا منها ، وفى غير هذا كله من الشئون ومسائل الحياة ومشاكلها .

والمجتمع العربى ، فى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام ، لم يشذ طبعا على هذا الأصل الذى يقوم عليه بقاء الشخص والنوع والاجتماع والعمران .

من أجل ذلك ، نعرف من التاريخ أن العرب عرفوا في جاهليتهم قواعد قانونية كثيرة قام عليها مجتمعهم ، وكان ذلك فى نواح شتى من النواحى التى عالجها الاسلام فيما بعد . بما جاء به من فقه وتشريعات ، وقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا من هذه القواعد والمبادىء التى كانت قد تبلورت فصارت أعرافا ينزلون على حكمها ، فما كان الاسلام ليغير كل ما كانت عليه الأمة العربية حتى ما كان صالحا لبناء مجتمع صالح للحياة الطيبة ، ومن ثم لنا أن نقرر أن الأسلام طرأ على مجتمع له تقاليده وأعرافه وحياته القانونية .

---

(١) الموافقات . جـ ٢ . ٧١ وما بعدها

لقد عرف العرب كثيرا من ضروب المعاملات ، كالبيع ، والرهن ، والشركة ، والمضاربة ، والاجارة ، والسلم . وأقر الاسلام ، فى كتابه الكريم وعلى لسان رسوله وفعله وتقريره ، غير قليل من أنواع هذه التصرفات والعقود حين وجدها صالحة للبقاء ، وحرم وألغى ما كان غير صالح منها .

وكان من هذا الذى حرمه الربا ، لأن فيه أكل أموال الناس بالباطل ، كما كان مما نهى عنه أنواع من البيوع - سيجىء الكلام عنها - لما تؤدى اليه من غرر ومنازعات . وهذه الاشارة تحتاج الى بعض الايضاح ، فلنذكر من الشواهد والأدلة ما يدل على ذلك الذى نشير اليه .

جاء في سنن أبى داود ومسند ابن حنبل عن الرسول أنه قال للسائب بن أبى السائب وقد جاءه يوم الفتح : « كنت شريكى ، فنعم الشريك ! كنت لا تدارى ولا تمارى » ، وقد روى أيضا بألفاظ أخرى . وقال ابن هشام ، وهو يتحدث عن زواج الرسول بخديجة بنت خويلد : « وكانت خديجة بنت خويلد أمرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم اياه بشىء تجعله لهم » .

من هذين الخبرين ، نرى أن العرب عرفوا عقد الشركة والاجارة والمضاربة ، وهى عقود أقرها الاسلام لأن الحياة العملية لا تقوم بدونها ، ثم وضع « الفقه » فيما بعد قواعدها وشروطها وحدودها ، وذلك ليكون الغرض منها مصلحة المتعاقدين معا فى حدود شرع الله ورسوله .

كما عرف العرب عقد السلم ، وهو شراء الشىء الذى لم يوجد بعد بثمن عاجل حال ، ولهذا نجد الرسول حين ينهى عن بيع المعدوم ، لما فيه من الغرر والخطر ، يستثنى السلم اذ كان نوعا من المعاملات التجارية المعروفة قبل الاسلام وبخاصة عند أهل يثرب ، ولما يكون فى منعه من الحرج والتضييق على الناس .

وفى هذا يروى إماما المحدثين البخارى ومسلم عن ابن عباس قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث ، فقال : « من أسلف فى شىء ففى كيل معلوم ووزن معلوم الى أجل معلوم » .

وفى ناحية ما يسمى اليوم فى الفقه « بالأحوال الشخصية » نراهم تعارفوا

ضروبا مختلفة ، من صلة الرجل بالمرأة ، وقد أقر الإسلام منها ما يتفق والشريعة ، وحرم الأنواع الأخرى التى لم تكن الا سفاحا صريحا .

وفى ذلك يقول الإمام البخارى فى صحيحه : « ان النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء ، فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل الى الرجل وليته أوبنته ، فيصدقها ثم ينكحها . فهذا هو عقد الزواج الذى أقره الاسلام ووضع له اصوله وحدوده ، ليقوم به بيت صالح وأسرة طيبة هى أساس المجتمع ، وقد كان لا بد فيه من الخطبة والمهر ، كما كانت المرأة لا تزوج الا بإذنها .

جاء فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى : « أن الحارث بن عوف المرى وفد على أوس بن حارثة الطائى يخطب اليه احدى بناته ، وكان له ثلاث بنات . فعرض الأمر على الكبرى والوسطى فأبتا ، ثم خاطب الصغرى فقال : هذا الحارث بن عوف ، سيد من سادات العرب ، جاء طالبا خاطبا : فقالت ، أنت وذاك ، فأخبرها باباء أختيها ، فقالت : لكنى والله للجميلة وجها ، الصناع يدا ، الرفيعة خلقا ، الحسيبة أبا ، فان طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير » ، فزوجها الحارث (١) .

اذًا ، قد عرف العرب قبل الاسلام ما أقره الاسلام من الزواج حين جاء ، كما عرفوا أيضا فسخ الزواج بالطلاق ، وإن لم يكونوا يتقيدون بعدد فى الطلاق .

فقد روى الترمزى والحاكم وغيرهما من المحدثين عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأته ماشاء أن يطلقها ، وهى امرأته اذا ارتجعها وهى فى العدة ، وان طلقها مائة طلقة وأكثر » . ولذلك نزل القرآن بتحديد عدد الطلقات ، وبأنه ليس للزوج بعد الثالثة مراجعة .

وعلى ذلك النحو من صلة الرجل بالمرأة بطريق الزواج الذى تتقدمه خطبة الزوجة من وليها ، نجد زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة رضى الله عنها .

فقد روى أبو العباس المبرد المتوفى فى عام ٢٨٥ هـ أن أبا طالب خطب فى

---

(١) جـ ٩ ١٤٢ ـ ١٤٣ . من طبعة الساسى

هذا الزواج فقال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمدا بن عبد الله ابن أخى ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه : برا وفضلا وكرما ، وعقلا ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قل ، فإن المال ظل زائل . وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى (١) » .

ويروى ابن هشام فى سيرته أن أبا طالب قال : « ومحمد من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله كذا من مالى ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل جسيم » . وكان أن تم الزواج ، وقام بتزويجها عمها عمرو بن أسد وابن عمها ورقة بن نوفل بشهادة صناديد قريش .

من هذا نرى أن عقد زواج الرسول جرى على ما جاء به الاسلام بعد ، من صداق يدفع للمرأة ، وقيام وليها به ، وشهادة ملأ من الناس ليتوافر له ركن العلانية ، تمييزا له عن الزنى والسفاح ، ولا عجب ! فهو زواج من أعده الله لحمل رسالته . وصانه من أوضار الجاهلية .

وبعد ناحية الأحوال الشخصية . نجد فى باب العقوبات أنهم كانوا يقولون : « القتل أنفى للقتل » أى أن عقوبة القتل العمد هى القصاص من القاتل ، على حين كانت عقوبة القتل الخطأ هى الدية . ولم يقر الاسلام عقوبة القتل العمد والخطأ على ما كان عليه العمل قبله فقط ، بل أقر كذلك ما يعرف « بالقسامة (٢) حين يقتل قتيل فى محلة ولا يدرى قاتله . ففى صحيح مسلم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقر القسامة على ما كانت عليه فى الجاهلية ، كما ذكر البخارى فى

---

(١) تهذيب الكامل . ص ١ : ٤ .

(٢) هى حلف خمسين من اهل المحلة التى وجد فيها القتيل . بتخييرهم وليه . بانهم ما قتلوه ولا عرفوا له قاتلا . ثم يقضى بالديه على اهل المحلة جميعا .

هذا . ورجع فى الموضوع نفسه الدكتور على بدوى فى مقاله عن تاريخ الشرائع . اذ تكلم فيه عن العرب قبل الاسلام (مجلة القانون والاقتصاد . العدد الثالث من السنة الاولى . ص ٣٢٨ وما بعدها من ناحية نظام الاسرة والمعاملات والعقوبات والنظام القضائى ؟؟ وهو بحث قيم فى بابه .

صحيحه صفتها فى الجاهلية فى حديث طويل يبين منه أن الرسول قضى بها حين قتل رجل من الأنصار في أرض لليهود ولم يعرفوا من قتله منهم ٠

وهكذا عرفنا أنه مهما كان ما عرفه العرب قبل الاسلام من قواعد ومبادىء قانونية ، فى هذه الناحية أو تلك من نواحى الحياة العملية ، فلا نستطيع أن نزعم أنهم وصلوا من ذلك الى ما يكفى ليقوم عليه مجتمع سليم وأمة صالحة للحياة وما كان يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك ٠ ونصيب العرب فى الجاهلية من الرقى والحضارة كان نصيبا محدودا الى درجة كبيرة ، ومن أجل هذا وغيره كانت الحاجة ماسة جدا الى الاسلام و شريعته ٠

أجل ، ظهر الاسلام والعرب ، بل العالم كله ، فى أشد الحاجة اليه ، فآتاهم العقيدة الحقة ، والشريعة الصحيحة ، والنظم التى يقوم عليها المجتمع والأمة لتسهم فى بعث العالم ونهضته وإخراجه من الظلمات للنور ، وكان من هذه الشريعة والنظم ما نسميه بالفقه أو التشريع الإسلامى ٠

٣ - نشأتها وتطورها

وهذا « التشريع » ، كما نعرفه اليوم ، لم ينشأ مرة واحدة كاملا ، بل تدرج في مراحل مختلفة حتى بلغ ما قدر له من نضج وكمال ، شأنه فى هذه الظاهرة شأن كل كائن وجد وعرف نور الحياة ٠

على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينتقل الى الرفيق الأعلى حتى كان التشريع قد استكمل أهم أصوله التى قام عليها واستوى فيما بعد ، اذ انقضى بوفاة الرسول عهد وضع الشريعة فى أسسها وأصولها ، فلم يبق للعلماء والفقهاء بعده إلا الرجوع الى ما تم فى حياته ، واستلهام ما أوحى الله اليه من كتاب وسنة ، ثم التفريع والتطبيق حسب الظروف والزمان والمكان والمصالح العامة ٠

بدأ التشريع ينشأ ويتكون ، وعماده القرآن الكريم ثم السنة على اختلاف ضروبها : قولية ، أو فعلية ، أو تقريرية ٠ ولم تستمر هذه الفترة إلا سنوات قليلة هى اثنتان وعشرون سنة وأشهر ، وفيها نزل القرآن ، وتم نزوله بقوله تعالى :

« ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا » (١) المائدة ٣ ·

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أ ن ما نزل من القرآن بمكة ، وهو أقل بقليل من الثلثين من مجموعه ، لم يشتمل على كثير من التشريع الفقهى ، اذ كان المقصود الأول فيه هو الدعوة الى الله وتوحيده ، ونبذ ما كان يعبد الناس قبل الاسلام من مختلف المعبودات ، واقامة الأدلة على ذلك وعلى وجود الدار الأخرى ، وتسلية الرسول فيما كان يلقاه فى سبيل الدعوة من شدائد ، بضرب الأمثال له بقصص أسلافه من الرسل والأنبياء ، أما التشريعات الفقهية التفصيلية فقد نزل الجانب الأكبر منها فى السور المدنية وهى بالنسبة لمجموع القرآن أكثر من الثلث بقليل

ولا عجب في أن يكون هذا منهج القرآن ! ان المهم الاول كان صرف الناس عن الأديان الباطلة وتوجيههم للدين الحق ، وكان هذا يتطلب بلا ريب إقامة الحجج والأدلة على صحة ما يدعو اليه ·

على أن الجانب المكى من القرآن لم يخل ، مع ذلك ، من بعض التشريعات العملية ولكن على طريق الاجمال لا التفصيل · وبعد أن تم للرسول النصر ، ولدينه الحق الثبات ، ودخل الناس أفواجا فى الاسلام ، كان قد آن أن يتنزل الوحى بالتشريعات المفصلة التى لابد منها لتنظيم حياة المسلمين ومعاملاتهم ومجتمعاتهم على هدى الله وما فيه مصلحتهم ، وكان محل هذا كله بالمدينة ·

حقا ، لقد بدأ أن يكون للاسلام والمسلمين دولة بالمدينة ، والدولة تتطلب ما تقوم به من نظم وتشريعات وقوانين تحدد العلاقات بين أفرادها ، وبينها وبين الدول الأخرى ، وكان هذا هو السبب فى أن أكثر هذه النظم والتشريعات نشأت بالمدينة ·

وكان من الحكمة ، ومما يتفق وطبائع الأمور ، أن لم تنشأ هذه التشريعات

---

(١) نزلت هذه الاية يوم عرفة عام الحج الاكبر فى السنة العاشرة من الهجرة . وهى فى راى كثير من المفسرين اخر القران نزولا . بمعنى انه لم ينزل بعدها شىء من ايات الاحكام ، وعلى كل . فلم يعش الرسول بعد نزولها الا احدى وثمانين ليلة

مرة واحدة ، بل كان ذلك على التدريج حسب الحاجة التى تدعو اليها ، وفى هذا دفع للحرج عن المسلمين وأخذهم بالتيسير فى التكاليف والأحكام ، وبخاصة وقد كانوا حديثى عهد بحياة لها أعرافها وتقاليدها التى تختلف فى الكثير منها عما جاء به الاسلام .

والذى يقرأ القرآن ، فى استقصاء وملاحظة ، يرى أن منه ما نزل إجابة عن أسئلة كان بعض المسلمين يتقدم بها الى الرسول اذ يحسون الحاجة إليها ، وكان منه تشريعات تنزل من السماء بلا سؤال . والضرب الأول نجده مصدرا بكلمة : « **يسألونك** » ، أو كلمة : « **يستفتونك** » .

اذا ، كان التشريع فى هذه الفترة لا يقوم إلا على هذين المصدرين العظيمين القرآن ، والسنة ، فكان الرسول إذا سئل عن مسألة ، أو جدت حادثة تقتضى حكما من الشارع ، ينتظر الوحى السماوى ، فإن نزل بالمراد كان بها ، وإلا ، كان هذا إيذانا من الله بأنه وكل الى رسوله أن ينطق بالتشريع اللازم ، ومعلوم أنه لا ينطق عن الهوى .

وأحيانا أخرى ، كان الرسول يجتهد فى الحكم ثم يصدر رأيه ، وهنا لا يقره الله على هذا الرأى إلا إذا كان صوابا . على أن الرسول كان ، فى هذا الاجتهاد ، يستلهم طبعا ما نزل من قانون الله وشريعته ، مع تقدير للمصلحة واستشارة لأصحابه . ومن أجل ذلك ، يجب أن نجزم بأن كل التشريعات التى ظفر بها الإسلام فى عهد الرسول كانت الّهية ، إما عن طريق مباشر بنزول القرآن بها ، وإما عن الرسول فى بادىء الأمر ثم يقره الله عليها .

وليس هنا مجال البت فى الخلاف بين ما نعى اجتهاد الرسول ومجيزيه ، فقد اشتد الخلاف فى ذلك بين علماء الأصول والفقه ، ولكل وجهة هو موليها وسنده الذى يستند اليه . ولكن علينا أن نقرر أنه قد جاء فى القرآن نفسه ما يفيد أنه كان للرسول اجتهاد فى بعض النوازل والأحداث ، وأن الله لم يقره على رأيه فى بعض ما ذهب اليه ، وكان منه له من أجل ذلك عتاب شديد أحيانا :

(أ) فى مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المتوفى فى عام ٢٤١ هـ ، أنه لما فتح

الله على المسلمين يوم « بدر » ، وأسروا كثيرا من المشركين ، استشار الرسول أبا بكر وعمر وعليا فيما يصنع بالأسرى .

فقال أبو بكر : « يا نبى الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، أرى أن نأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدا » .

وقال عمر : « والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكننى أرى أن تمكننى من فلان ، قريبا لعمر ، فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل - وهو أخوه - فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتي يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم » .

ثم مضى عمر فى رواية الحديث فيقول : « فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت ، فأخذ منهم الفداء ، فلما أن كان من الغد ، غدوت الى النبى صلى الله عليه وسلم فاذا هو قاعد وأبو بكر ، وإذا هما يبكيان ، فقلت يا رسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ، فاذا وجدت بكاء ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما) .

فقال النبى - كما جاء فى رواية أخرى - : « أبكى للذى عرض لأصحابى من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة » ، يشير الى شجرة كانت قريبة منه . ثم قال : « إن كاد ليمسنا فى خلاف عمر بن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر » (١) .

وأنزل الله تعالى فى صدد هذه المسألة هاتين الآيتين : « **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ - أى من الفداء بدل قتل الأسرى - عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢)** » .

اذن ، قد اجتهد الرسول فى هذه المسألة ، واستشار بعض أصحابه الأكرمين ،

---

(١) جـ ١ ص ٢٤٥ ، من نشر الاخ المحقق الشيخ احمد محمد شاكر . طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م .
(٢) الانفال ٨ : ٦٧ ، ٦٨ .

ثم أخذ بما أداه اليه اجتهاده ، وهو موافقة رأى أبى بكر ، لكن الله لم يقره على ما رآه ، وأنزل فى ذلك من القرآن ما يدل على أن الرأى الحق كان خلاف ما رأى ·

(ب) استأذن بعض المنافقين الرسول فى التخلف عن غزوة تبوك متقدمين بأعذار قبلها الرسول على ضعف فيها ، كما تخلف بعض المؤمنين أيضا ، وأذن الرسول فى التخلف عن الذهاب معه فى هذه الغزوة للجميع ·

لكن الله ، الذى يعلم ما فى الضمائر والنفوس من نيات ، لم يرض منه هذا الإذن ، وأفهمه أنه كان أولى به التريث فى الاذن لمن استأذنوا حتى يعلم المنافقين منهم والصادقين فى الاعتذار ، اذ أن الأولين ، أى المنافقين ، كانوا سيتخلفون وان لم يأذن لهم ·

وفى ذلك أنزل الله قوله تعالى : « لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ » (١) · التوبة ٤٢ ، ٤٣

فقول الله تعالى : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم » ، ينطوى على أن الرسول لم يصحبه توفيق الله فى اجتهاده واذنه لمن استأذن ، وفيهم المنافق والمؤمن الحق ، ولذلك لم يقره الله على هذا الاجتهاد ·

هذا ، وقد قلنا بأن التشريع فى هذه الفترة من الدور الأول كان يعتمد على المصدرين العظيمين ، القرآن والسنة ، ونذكر الآن أن القرآن كان يجىء بالقواعد العامة والأحكام أو التشريعيات بصفة إجمالية ، وكان على الرسول تفصيل هذا الاجمال ، وتحديد تلك القواعد العامة ·

على أننا نجد فى السنة تشريعات لا نجدها فى القرآن ، وإن كانت طبعا لا تخرج عن روحه ومعانيه ومقاصده · ولا عجب فى شىء من ذلك كله ! فمهمة

---

(١) من ذلك قوله « اقيموا الصلاة » . وقوله « يا أيها الذين امنوا اركعوا واسجدوا » . وقوله : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » .

الرسول دائما هى البيان لرسالته بكافة طرق البيان ، بما لا يقصر عن مقاصد صاحب الرسالة وهو الله تعالى ·

وقد يكون لنا أن نقول بإيجاز بأن دور الرسول كان دور الشارح للمتن الذى هو القرآن ، إلا أنه شارح ملهم من الله ، يعمل تحت رعايته فلا يقر على خطأ بحال · ولنذكر بعد ذلك بعض الأمثلة التى توضح ما قلنا ، من أن السنة كانت تقوم بتوضيح ما أجمل الكتاب ، وتفصيل ما جاء به من الكليات حين يكون ذلك ضروريا ·

(أ) أمر الله تعالى بالصلاة وشرعها فرضا علينا ، وجاء ذلك فى الكتاب بالنص تارة وبالاشارة أخرى · الا أنه لم يبين لنا أوقاتها ، ولا عدد صلوات كل يوم أو عدد ركعات كل صلاة ، ولا كيفيتها على نحو الا ابهام ولا لبس فيه ، فجاءت السنة وبينت ذلك كله ، حين صلى الرسول صلى الله عليه وسلم فعلا وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ١ وقد روى لنا أبو هريرة وغيره من الصحابة كيفية صلاة الرسول ·

(ب) وكذلك الأمر فى الصوم ، فقد فرضه الله بقوله : « **شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** » الآية · البقرة ١٨٥

والرسول هو الذى بين أن المراد به الشهر القمرى لا الشمسى ، وأن الصوم يكون من الفجر الى الغروب ، وأنه يجب أن نصوم لرؤية الهلال ونفطر لرؤيته ، كما بين حكم المفطر عامدا أو ناسيا ، الى غير ذلك كله من الأحكام ·

(جـ) ومثل ذلك كانت الزكاة ، فقد جاء الأمر بها فى القرآن بلفظ الزكاة والصدقة فى كثير من الآيات ، ومنها قوله : وأتوا الزكاة . وقوله : « **خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** التوبة ١٠٣ وقوله : **وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ** الأنعام ١٤١ وقوله ، **وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ** » المعارج ٢٤ ، ٢٥

إلا أن السنة هى التى بينت لنا نصاب الزكاة فى كل نوع من أنواع الأموال ،

نعنى النقود والزروع والثمار وعروض التجارة والحيوانات السائمة مثلا ، كما بينت المقدار الواجب فى كل نوع منها ، وهكذا الى آخر ما يتعلق بتحديد هذه الفريضة تحديدا كافيا (١) .

(د) وفى الحج ذكر القرآن أنه فرض علينا بقوله تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » آل عمران ٩٧ وبقوله : « وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ » ، البقرة ١٩٦ وأشار الى الاحرام بقوله : « وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ » البقرة ١٩٦ والى الوقوف بعرفة بقوله : « فاذا أفضتم من عرفات » البقرة ١٩٨ والى السعى بين الصفا والمروة بقوله : « إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ » البقرة ١٥٨ والى الطواف بالكعبة بقوله : « وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ » . الحج ٢٦ .

ثم جاءت السنة فبينت كيفية الاحرام ومواقيته ومتى يكون واجبا ، ومحظوراته والحكم فيمن يجترح شيئا منها ، وعدد مرات السعى وكيفيته ، وحدود عرفة والزمن الذى يجب الوقوف فيه بهذا المشعر ، الى غير هذا وذاك مما يتعلق بالحج ، حتى صار معروفا تماما لنا كما فعله الرسول ورواه عنه كثير من صحابته رضوان الله عليهم .

هكذا كانت السنة مبينة للقرآن ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » النحل ٤٤ كان الرسول مشرعا بفعله وقوله وتقريره حتى لبعض ما لم يرد فى القرآن ولو مجملا كزكاة الفطر ، وإن كان الله هو المشرع الأعظم مادام الرسول كان يستلهم دائما القرآن نصه ، وروحه ، ومقاصده التى ترمى دائما لصالح الفرد والجماعة معا .

وبهذا لم ينتقل الرسول للرفيق الأعلى إلا وقد كان الفقه تام الأصول الكلية والقواعد العامة ، ولذلك يقول الله تعالى فى آخر عهد الرسول « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا » المائدة ٣ .

وبعد القرن الأول بقليل : نجد الاسلام أخذ يمتد شرقا وغربا وشمالا

---

(١) فقال فى ذلك فيما قال : فيما سقت العيون او كان عشريا العشر ، وما سقى بالنضج نصف العشر . وقال : وفى الركاز الخمس . وقال : ليس فيما دون خمسة اوسق من التمر صدقة . وليس فيما دون خمس اوراق من الورق صدقة . وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة +

وجنوبا ، اذ فتح الله على المسلمين العراق والشام ومصر ، وبلدان شمال أفريقيا وغيرها ٠

ولكل من هذه البلاد حضارتها المتشعبة النواحى ، ولكل منها أيضا عوائد ها وتقاليدها وأعرافها وقوانينها ، وللاختلاط الذى تم بين العرب وأهالى هذه البلاد المختلفة أثره المحتوم الذى ظهر فيما بعد بصور شتى فى التفكير وغيره ٠

ومع ذلك كله ، حصل أن كثرت الحوادث والنوازل التى تتطلب أحكاما لها ، وظهرت مشاكل تنتظر حلولها ، لأن المأثور من تشريعات الرسول وأحكامه وأقضيته أصبح غير واف بهذه الحوادث والمعاملات التى تزيد وتتجدد كل آن ، فكان لكل هذا أثره فى نمو الفقه والتشريع ٠

وثمة عامل آخر كان له أثر كبير واضح فى هذه الناحية ، فى هذه الفترة ، وما تلاها ، وهو هجرة كثير من الصحابة ٠ بعد عهد عمر بن الخطاب ، الى تلك الأقطار والبلاد التى عرفها المسلمون ونزحوا اليها ، وما جاء نتيجة لذلك من شيوع التحديث عن الرسول والأخذ فى تعمق القرآن واستنباط الأحكام التى شعروا بالحاجة لها منه أو مما يرونه صحيحا من أحاديث الرسول ٠

ومن الطبيعى أن يكون لهذه العوامل أثرها فى الفقه وفى ظهور الاجتهاد والمجتهدين ، اذ كان كل من الصحابة القادرين على تعمق القرآن يجتهد فى فهمه وفهم ما ثبت عنده من حديث الرسول ، فقد كان هذا الحديث أو ذاك قد يصح عند البعض دون البعض الآخر ٠

وهكذا بدأ الفقه الاسلامى يتكون ، وبدأت أصوله تعرف وتتميز ، نعنى الكتاب والسنة والقياس والإجماع ، واخذت اعراف وقوانين البلاد المختلفة ، التى اصبحت تحت راية الاسلام وتكون جسم الدولة الإسلامية ، تؤثر فى الفقة والتشريع بصفة عامة أثرا غير قليل ٠

أما فى العصور التى جاءت بعد عصر الصحابة والتابعين ، فمن الحق عرفان قدرهم تماما لهم ، ووجوب العمل بآرائهم الحقة ٠ هذه الآراء التى لم يقولوا بها إلا مستلهمين كتاب الله وسنة رسوله وروح الاسلام ، وقد كانوا بلا ريب أقرب الى

فهم كل ذلك فهما حقا منا نحن هذه الأيام ، على ان هذا لا يمنعنا من اعتبار تغير البيئات والأعراف ، وما يجب أن يكون ذلك من تأثير .

وإذا كان عمر بن الخطاب كان يتحرى رأى الخليفة الأول أبى بكر ، كما ذكرنا من قبل ، ليأخذ به فان هذا لا يمنع من القول بانه حصلت اختلافات بينهما تمسك فيها عمر برأيه ، إذ بان له أنه الحق فى زمنه ، كما حصلت اختلافات اخرى بين آراء الصحابة بصفة عامة .

ونرى من الخير ان نذكر بعض المثل لهذه الاختلافات ، التى كانت بين صحابى وآخر ، أو بين صحابى وأحد التابعين فى زمن واحد ، محاولين تعرف الأسباب التى أدت الى هذه الاختلافات .

كان أبو بكر فى خلافته يسوى بين المسلمين فى أعطياتهم ، فلا يفضل أحدا منهم على آخر . فلما ذكر بأن الخير فى التفاضل لما للبعض من الفضل على البعض ، بسبب سبقه فى الاسلام او قدمه فى الجهاد فى سبيل الله ، رد بانه من أعرف المسلمين بهذا ، ولكن يدع ذلك لله يثيب عليه أما الأعطيات فهى للمعاش فالأسوة فيها خير من الأثرة . وفى هذا يقول فى بعض الروايات : « فضائلهم عند الله ، فاما هذا المعاش فالتسوية فيه خير(١) » .

فلما صارت الخلافة الى عمر الفاروق ، وجاءت الفتوح بمال كثير ، عدل عما كان يراه أبو بكر ، اذ رأى ألا يسوى بين من قاتل رسول الله ومن قاتل معه ، وكان من كلامه فى ذلك : « ما انا فيه (اى فى المال) الا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالرجل وتلاده فى الاسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الاسلام » وهكذا ، فضل عمر البعض على البعض فى العطاء .

وفى رأينا أن عمر كان ينشد بما ذهب اليه التسوية ايضا ، لأن من التسوية بين المسلمين أن يأخذ كل منهم بقدر ما قدم من خير فى الاسلام ، وبقدر ما هو فى حاجة اليه ، وليس من التسوية أن يكون الجميع سواء فى المال الذى أتاهم

---

(١) كتاب الاموال لابى عبيد القاسم بن سلام . ص ٢٦٣ .

الله بما فتح عليهم من البلاد ، بجهاد الفاتحين وبرهبة الإسلام بما صار له من شأن وشوكة ونفوذ بفضل السابقين من المجاهدين الأولين .

ولهذا يقول عمر فى بعض ما روى عنه فى ذلك الأمر : « ما يريد ابن الخطاب بهذا الا العدل والتسوية » ، وذلك حين قال له بعض المسلمين : « يا ابن الخطاب ، أنشدك بالله فى العدل والتسوية » .

واكبر من هذا الخلاف أثرا فى بناء الدولة حينذاك ، اختلاف عمر والصحابة فى قسمة الاراضى التى فتحها الله على المسلمين ، اتكون للمحاربين المجاهدين الذين فتحوها وحدهم ، ام تترك لأهلها مع وضع الخراج عليهم لينفق على المسلمين عامة طوال الأزمان .

ذلك ، انه لما تم فتح العراق والشام وغيرهما من الأقطار فى عهد عمر ، رأى الفاروق ألا تقسم الأرض بين الفاتحين ، بل تبقى خراجية ينتفعون بها هم ومن يجىء بعدهم من المسلمين ، وكان من كلامه فى هذا : كيف بمن يأتى من المسلمين فيجد الأرض قد قسمت وورثت عن الآباء ! ما هذا برأى . والله يقول فى مصرف الفيىء (١) .

« لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ۚ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ، وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٢) . ولا يتصور بقاء شىء لمن يأتى بعد أولئك الفاتحين ، إذا قسمت الأرض بينهم .

لكن المعارضين ذكروا أنه كيف يقف عمر ما أفاء الله عليهم بأسيافهم على قوم لم يحضروا الحرب ، ثم على أبنائهم وذرياتهم أيضا من بعد ! وقال عبد

---

(١) الفيىء يراد به هنا . الغنيمة .

(٢) سورة الحشر . ايات ٨ . ٩ . ١٠ .

الرحمن بن عوف : ما الارض والعلوج (اى ملاك هذه الارض)إلا مما أفاء الله على الفاتحين ، يريد أن اربعة أخماسها هى لهم بنص آية الأنفال التى تقول : « وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ (١) » اما الباقى فيكون للفاتحين .

وهنا ، وقد اشتد الخلاف ، لم ير عمر إلا أن يستشير، فاستشار المهاجرين الأولين ، فاختلفوا فيما بينهم ايضا ، فعمد إلى تحكيم عشرة من الأنصار، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، رغبة منه فى ان يشركوه فى الأمانة التى حملها فلما اجتمعوا وتكلم مخالفوه بما يرون من رأى وحجة ، قال ـ فيما قال ـ : انه لم يبق شىء يفتح بعد ارض كسرى ، وقد رأيت بعد صرف الخمس فى وجوهه أن احبس الأرض بعلوجها ، وأضع عليهم الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئا للمسلمين الحاضرين ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ! أرأيتم هذه المدن العظيمة ، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لابد لها أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الارضين والعلوج ؟

وكانت النتيجة أن أعطى المحكمون ، بعد وزن كل رأى ودليله ، الرأى لعمر ولم يسع المخالفون إلا الرضاء به ، وكان هذا إلهاما من الله وتوفيقا للخير العام فى العاجل والآجل من الزمان .

ويجب أن نلاحظ فى هذه المشكلة أن كل فريق كان يستند الى القرآن ، فالمخالفون لعمر كانوا يستندون الى آية « الأنفال » ، الى فعل الرسول عليه الصلاة والسلام حين قسم خيبر ارض اليهود بين الفاتحين من باب التشجيع .

اما عمر فكان يستند الى آيات سورة « الحشر » ، وإلى أن الأراضى موضوع النزاع أجل وأعظم بكثير من ان تقسم بين الفاتحين وحدهم ، وبخاصة وهى كل ما كان المسلمون يرجون فتحه فى تلكم الأيام . كما نظر الى المستقبل البعيد ، وفى هذا يقول : « لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها ، كما قسم رسول

---

(١) سورة الانفال ، اية ٤١ .

الله صلى الله عليه وسلم خيبر »(١)٠ ولذلك كله ، كان رأيه فى زمنه ، وقد تغيرت الحال ، هو الرأى السديد الموافق للمصلحة العامة للمسلمين ٠

وهذا خلاف من نوع آخر ، لأنه من صميم الفقة وفى مسألة من مسائل الميراث ذلك أنه كان رأى ابى بكر ان الجد يحجب الإخوة فلا يرثون معه ، كما لا يرثون مع الأب بنص الكتاب والسنة ٠ لكن عمر رأى أن الجد ليس فى الحقيقة أبا ، فهو ـ اذا ـ لا يحجب الإخوة ، بل لهم معه فى التركة نصيب معروف ٠

ولعل أبا بكر نظر الى قول الله حاكيا عن يوسف عليه السلام : «وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ » (٢) ٠ مع ان يعقوب هو وحده الذى كان الاب دون اسحاق وابراهيم اذ كانا جدين أما عمر ، رضوان الله عليه ، فقد نظر الى الحقيقة لا الى المجاز ٠

وفى ناحية أخرى ، كان الأمر قد جرى طوال عهد أبى بكر وسنتين أو ثلاثا من خلافة عمر على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يعتبر طلقة واحدة رجعية ، لكن عمر جعله طلاقا ثلاثا حقا تبين به الزوجة بينونة كبرى ، فليس له ان يسترجعها لعصمته حتى تتزوج غيره ويدخل بها ثم يطلقها ، وقال فى ذلك : « ان الناس قد استعجلوا فى امر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضينا عليهم » ! فأمضاه عليهم (١) عقوبة لهم على اسراعهم فى الطلاق الذى هو ابغض الحلال الى الله ٠

وهنا نجد كثيرا من الصحابة يخالفونه فيما رأى ، ذاهبين الى ان هذا الطلاق الثلاث طلقة واحدة ، متبعين فى ذلك النصوص وحكم الرسول وابى بكر ، ومنهم على وابو موسى الاشعرى والزبير بن العوام وعبد الله بن عباس (٣)٠

على أنهم كانوا لا يختلفون الا حيث لا يجدون نصا محكما فى القرآن أو سنة لا ريب فيها عن الرسول ٠ وفى هذه الحالة ، يكون الاجتهاد بالرأى والقياس ، كما يكون الاخذ بالمصالح المرسلة ، وفى كل حال كانوا يستلهمون القرآن وسنة الرسول

---

(١) مسند ابن حنبل ، ج ١ ٢٧٦ ، الاموال لابى عبيد ، ص ٥٦ ـ ٥٧ ٠

(٢) سورة يوسف ٠ ٣٨

(٣) اعلام الموقعين ٣ : ٢٤ ٠

واذن ، تكون مصادر الفقة فى هذا العصر هى المصادر الأربعة المعروفة : الكتاب ، السنة ، القياس او الرأى ، ثم الاجماع الذى لا بد له من سند من واحد مما تقدم . وأحيانا يكون مصدر التشريع هو المصالح المرسلة ، كما راينا ، كما يكون أحيانا أخرى العرف كما كان أيام الرسول نفسه .

وبعد كبار الصحابة طوال عهد الخلفاء الرشدين ، تجيء فترة صغار الصحابة وكبار التابعين من أول ولاية معاوية بن أبى سفيان الى ما بعد المائة الأولى بقليل .

وتبدأ هذه الفترة « بعام الجماعة » ، وهو العام الحادى والأربعون من التاريخ الهجرى ، إذا اجتمعت فيه كلمة المسلمين على خلافة معاوية بن ابى سفيان الأموى بعد نزول الحسن بن على رضى الله عنه له عن الخلافة ، وبهذا النزول ابتدأت دولة بنى امية .

هذا ، وقد تميزت هذه الفترة من حياة الفقة بأمور :

١ ـ فرقة المسلمين سياسيا ، الى خوارج وشيعة وأهل السنة والجماعة ، بسبب الاختلافات فى الخلافة ، وكان لهذا الخلاف الشديد أثره الكبير فى الفقه بلا ريب . فإن الخوارج لم يكونوا يعتمدون من الأحاديث إلا ما رواه رجالاتهم ، وكذلك الشيعة ، على ما ذكرنا من قبل . أما جمهور المسلمين ، فقد كانوا يعتمدون الأحاديث التى ثبتت صحتها عندهم مهما دخل فى أسانيدها من رجال الفرق الأخرى متى كانوا ثقات .

٢ ـ وكان من أثر كثرة الفتوح الاسلامية أن تفرق الصحابة وغيرهم من التابعين فى البلدان المختلفة ، وبخاصة أن قد ذهب عمر بن الخطاب الذى كان قد حجر على كبار الصحابة ومنعهم من ترك مدينة الرسول ، وذلك مخافة افتتان الناس بهم ، او افتتانهم بالدنيا الطويلة العريضة التى أفاء الله على المسلمين ، ولكونهم أهل شوراه .

وطبيعى ان يكون فى هؤلاء الذين تفرقوا فى البلدان الاسلامية ، المعلمون والقراء ، واهل البصر بالكتاب والسنة وآراء كبار الصحابة فى مسائل الدين والفقه

وطبيعى أيضا ان يصح من الاحاديث عند البعض ما لا يصح عند غيرهم ، وذلك لعوامل ليس هذا موضع بيانها .

ولهذين الامرين ، ويضاف اليهما زوال عهد عمر الذى كان ، كما عرفنا ، شدد كثيرا فى رواية الحديث ، نرى التحديث يكثر عن الرسول ، فكان كل يحدث بما سمع عن الرسول بنفسه او بواسطة رواة آخرين .

٣ ـ وكان من كثرة التحديث عن الرسول « صلى الله عليه وسلم » ، من الفرق المختلفة وفى البلدان المتفرقة وبلا تثبت احيانا ، أن ظهر الخطأ فى نسبة الحديث الى الرسول ، بل الكذب عمدا عليه ، رغبة من بعض اصحاب الفرق والمقالات المختلفة فى نصرة آرائهم ومذاهبهم بأحاديث يسندونها الى الرسول صلى الله عليه وسلم (١)

٤ ـ وابتعاد بعض خلفاء الدولة الأموية وأمرائها عن سنة السلف الصالح ، وبخاصة اهل المدينة ، واعتدادهم فى حياتهم وتصرفاتهم بآرائهم وتفكيرهم الشخصى ، بعد ان جعلوا من خلافة المسلمين ملكا عضوضا لهم ولأسرتهم بما ابتدعوه من نظام « ولاية العهد » الذى لم يعرفه الاسلام من قبل .

٥ ـ وكان من ذلك كله ، أن أخذ صفوة من الصحابة مدينة الرسول ، وذلك مخافة افتتان الناس بهم ، أو افتتانهم بالدنيا والتابعين ، العلماء بالكتاب والسنة ، يتجهون الى تأسيس علم الفقه الذى يقوم على هذين المصدرين العظيمين ، والذى يجب ان يكون مثلا اعلى للقانون الذى تقوم عليه حياة المسلمين العملية ، فكان هذا بدء سير « الفقه » فى اتجاه نظرى يختلف ، كثيرا او قليلا ، عن الواقع العملى فى الحياة .

ومن هذه الصفوة ، كان سعيد بن المسيب المتوفى عام ٩٣ هـ ، فقد راعه ، وهذا مثال آخر لاهمال الأمويين الاخذ احيانا بالسنة ، ان معاوية ايضا قد استلحق زياد بن ابيه مقرا باخوته له ، نازعا فى هذا الى عرف الجاهلية

---

(١) كان لوضع الحديث على الرسول اسباب مختلفة ، منها الرغبة فى افساد الدين ، وهذا فعل الزنادقة ، والترغيب فى الخير والترهيب من الشر ، وهو صنع بعض الجهلة من المتعبدين ، والتهاون فى الرواية عن الرسول كصنيع الفسقة من المحدثين ، واخيرا ، رغبة فى نصرة صاحب المذهب مذهبه كما ذكرنا .

ومستجيبا لعوامل سياسية ، على حين أن الشريعة لا تبيح ذلك ، وفى هذا كان سعيد يقول : قاتل الله فلانا ، يريد معاوية ، كان اول من غير قضاء الرسول ، وقد قال : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، يريد الرجم بالاحجار .

٦ – ثم كان من نتائج ذلك كله ، ان كثرت الاراء والفتاوى الفقهية فى الواقعات والحوادث الكثيرة المختلفة التى تتطلب احكاما لها ، وبخاصة وقد اتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، ووجد المسلمون انفسهم في بلاد لها عادات وتقاليد واعراف جديدة عليهم ، وكل ذلك يستدعى احكاما غير ما كانوا يعرفون .

ومن الواجب ان نضيف لهذا سببا آخر ، هو ان الورعين من العلماء بالكتاب والسنة ، لما رأوا كثرة رواية الحديث عن الرسول والكذب عليه احيانا ، لجأوا فى معرفة احكام الله الشرعية الى اجتهادهم الخاص فى فهم القرآن والثابت صحته لديهم من الحديث ، فكثر ايضا لهذا السبب الخلاف فى الرأى الفقهى ، وتعددت الفتاوى فى المسألة الواحدة (١)

٧ – وأخيرا ، ظهور نزعتين فى الفقه : نزعة أهل الحديث ، ونزعة أهل الرأى وقد ظهر تبعا لذلك ، مفتون من أهل الحديث ، وآخرون من أهل الرأى .

ذلك ، بأن كبار الصحابة كانوا لا يفتون فى أحكامهم إلا بما يرجع للقرآن والسنة ، ثم يجنحون الى الرأى والقياس ان لم يجدوا الى غير هذا سبيلا . على أنهم كانوا لا يميلون الى الرأى الا للضرورة وبقدر ، مخافة القول بلا علم وتثبت فى شريعة الله ، ومن ثم يروى عن الكثير منهم ذم القول بالرأى والأخذ به .

فلما ذهب صدر الصحابة وجلتهم ، وجد بعدهم من احتذى حذوهم فى الوقوف فى رأيه الى القرآن والسنة لا يعدوهما ، وهؤلاء هم أهل الحديث . كما وجد من ذهب الى أن شريعة الله معقولة المعانى ، ولها مقاصد يجب رعايتها ، وأصول يجب الرجوع اليها ، ولم يلحق الرسول بالرفيق الاعلى حتى بين ذلك كله .

ولهذا يجب الأخذ بالرأى الذى هو نتيجة عمل العقل والاجتهاد الصحيح كما

(١) ولذلك يلاحظ جولد تسيهر المستشرق المعروف . ان الشك فى الحديث كان من عوامل ظهور الراى فى الفقه انظر العقيدة والشريعة فى الاسلام . ترجمتنا مع اخرين ص ٤٧

كان يفعل كبار الصحابة احيانا ، والا جمدت الشريعة ولم يتقدم الفقه ، وبخاصة وقد دخل الشك والكذب فى الحديث .

وهؤلاء الذين ذهبوا هذا المذهب هم أهل الرأى أو القياس ، الذين يرون ـ مع هذا ـ أن الأصل الأول للتشريع هو الكتاب والسنة الصحيحة ، كما أن الأولين اصحاب الحديث لم يكونوا طبعا يهملون استخدام العقل والرأى فى استنباطهم الاحكام من القرآن والسنة ، والسنة ، ولكن كان يصح لديهم من الاحاديث مالا يصح لدى الآخرين .

وقد كان جمهرة اهل الحديث بالحجاز ، وجمهرة اهل الرأى والقياس بالعراق . ولا عجب فى شىء من ذلك . فان الحجاز مهد السنة وموطن حملتها من الصحابة الأولين ، والعراق بلد جديد وبعيد عن موطن السنة ، وله حضارته التليدة وحظه الكبير من المعارف القانونية قبل الاسلام ، وفيه حصل الامتزاج بين عقليات مختلفة ، فكانت حاجته شديدة الى الرأى والقياس فيما لا يجدون فيه نصوصا من القرآن والسنة الصحيحة التى يعرفونها .

وكان لكل طائفة من اصحاب هاتين النزعتين رئيس يحمل لواءها . فرئيس أهل الحديث كان أولا سعيد بن المسيب السابق ذكره ، وهو رأس علماء التابعين وأحد الفقهاء السبعة الذين نشروا الحديث والعلم والفقه . وكان زعيم مدرسة أهل الرأى والقياس هو ابراهيم بن يزيد بن قيس النخعى(١) ، وهو شيخ حماد بن ابى سليمان الذى يعتبر شيخ الامام ابى حنيفة ، وقد توفى عام ٩٦ هـ .

وقد تفرع ، فيما بعد ، اصحاب الحديث الى مالكيه وشافعية وحنابلة ، كما كان منهم الظاهرية ـ أتباع داود بن على ثم ابن حزم ـ الذين يتمسكون بالظاهر من القرآن والحديث . اما الاحناف فيرجعون الى مدرسة اهل الرأى ، اذ كان مؤسسها ـ كما قلنا ـ شيخا لشيخ ابى حنيفة صاحب المذهب .

وان الذى يتتبع بعض مراجع الفقه المهمة ، يرى بوضوح كثرة الاختلافات فى الأحكام الفقهية بين اهل الرأى واهل الحديث ، وذلك نتيجة اختلافهم فى

---

(١) نسبة الى قبلية كبيرة من مذحج باليمن . انظر وفيات الاعيان لابن خلكان . طبعة بولاق . جـ ١ ، ٤ .

الاصول التى يرجعون اليها فى التشريع ، ولكل وجهة هو موليها ·

هذا ، ونختم الحديث فى الكلام عن حياة الفقه وتطوره فى هذا الدور ، بالاشارة الى انه ظهر فى هذه المرحلة عدد ضخم من المفتين ذوى نزعات مختلفة أى مـن أهل الحديث ، وأهل الرأى ، وغير هؤلاء وأولئك من رجال الفرق الأخرى · ولا نرى الاطالة ولو بذكر بعضهم ، مكتفين بالاشارة الى مظانهم من المراجع السهلة الوجود بأيدى الدارسين للفقه والفقهاء ·

٤ ـ كمالها

هذا ، وقد جاء بعد ذلك دور نضج وكمال ، وقد كان هذا الدور أطول أدوار الفقه عمرا ، حاشا ـ بكل أسف ـ دور التقليد ، اذ استمر نحو مائتين وخمسين عاما ، فقد بدأ فى اوائل القرن الثانى الهجرى واستمر الى منتصف القرن الرابع ·

وفى هذا الدور بدأ تدوين السنة ومذاهب الفقه ، وفيه ظهرت المذاهب الكبرى التى لا تزال معروفة ومتبعة ـ كل فى نواح مختلفة من العالم الاسلامى ـ الى الآن ، نعنى مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل من اهل السنة ، ومذاهب الزيدية والامامية من الشيعة ·

كما ظهر فيه ايضا فقهاء أعلام آخرون ، وكان منهم اصحاب مذاهب مستقلة عرفها التاريخ ، الا أنها اندثرت بمضى الزمن ، اذ لم تجد من يقوم بها ويرعاها ويعمل على تخليدها كما وجدت المذاهب الاولى ·

وينبغى من أول الأمر أن نشير الى أهم الخصائص التى تميز بها هذا الدور ، فكان مرحلة خاصة من مراحل حياة الفقه ، وهذه الخصائص هى :

قيام الدولة العباسية بعد سقوط الدولة الأموية ، وأول خلفائها أبو العباس عبد الله الملقب بالسفاح لكثرة ما تسبب فى اراقة دماء خصومه ، وكان بدء قيام الدولة العباسية عام ١٩٣٢ هـ ·

ويعتبر قيام هذه الدولة حدثا ملحوظا فى حياة الفقه والتشريع ، لأنها قامت باسم الدين وعلى الدين ، فلا عجب ان يعنى رجالها بالحياة الدينية ، وأن

يعملوا على أن تقوم على قانون مستمد من صميم الفقه الاسلامى ، فكانت الحاجة ماسة للفقه والفقهاء .

حقا ، لقد كان حكم العباسيين عاملا قويا من عوامل ازدهار الفقه وتطوره ، وفقا للحياة العامة التى كان عليها المسلمون ابان هذه الدولة ، وتمشيا مع ما كان يجد من مشاكل ووقائع تتطلب احكاما شرعية لها .

ومن مظاهر تلك العناية الطيبة ، ما نعرفه من اجلال الخلفاء العباسيين ايام عزهم ومجدهم لرجال الفقه . ومن هذا ، نجد الامام مالك بن انس يوجه الى الخليفة الرشيد رسالة ينصح فيها ويذكر بما يجب عليه لله وللمسلمين ، كما نرى هذا الخليفة يرسل اليه بالمسجد ابنية الأمين والمأمون ليسمعا منه حديث الرسول مع سائر من يحضر مجلسه من المسلمين (١).

وفى ذلك ايضا ، نجد الرشيد نفسه يطلب من ابى يوسف تلميذ ابى حنيفة وصاحبه أن يضع له كتابا يستهديه فى نظم الدولة المالية وادارتها ، فيكتب له مؤلفه المعروف ، كتاب الخراج . وفى مقدمة هذا الكتاب القيم يقول للخليفة وهو أقوى سلطان فى ذلك العصر (٢) .

« فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك .. ولا تزغ فتزيغ رعيتك ، واياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب .. وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء ، القريب والبعيد .. وان الله سائلك عما أنت فيه ، وعما عملت به ، فانظر الجواب !..

وانى أوصيك ، يأمير المؤمنين ، بحفظ ما استحفظك الله ، ورعاية ما استرعاك الله ، وألا تنظر فى ذلك الا اليه وله ، فانك الا تفعل ، تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى فى عينك ، وتتعفي رسومه ، ويضيق عليك رحبه ، وتنكر منه ما تعرف وتعرف منه ما تنكر . فخاصم نفسك خصومه من يريد الفلج لها لا عليها ، فان الراعى المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة باذن الله » .. الى آخر ما قال .

---

(١) مفتاح السعادة . جـ ٢ . ٨٦ .

(٢) ص ١ ـ ٣ من طبعة بولاق الاميرية .

على أن الخليفة الرشيد لم يكن الفريد فى إجلال الفقهاء ، وسؤالهم النصح والتوجيه ، فقد كان شأن غيره أيضا من خلفاء هذه الدولة ، والأمر معروف لمن شدا شيئا من التاريخ الاسلامى المجيد .

لا عجب ـ اذن ـ أن يجد الفقه في هذه الفترة الطيبة من حياته تربة صالحة للنمو والكمال ، ويكون من ذلك نشر سنة الرسول وظهور كبار المجاميع فيها ، وكثرة ما ذخرت به كتب الفقه من الأحكام والتشريعات العملية ، وتدوين ذلك كله فى مؤلفات رويت عن أئمة الفقه وكبار أصحابهم وتلاميذهم المباشرين وغير المباشرين .

ثم ، لقد قامت هذه الدولة الجديدة فى العراق مهد المدنية الفارسية وغيرها من المدنيات التى تواردت على هذه البلاد . فكان أن التقت هذه الحضارات والعقليات التى تمثلها بالحضارة العربية والعقلية العربية ، وأن تعاون فى بنائها العقل العربى والعقل الفارسى والعقل الرومى ، فأخذت من كل عقل بأحسن ما كمن فيه من قدرة الإبداع ، وقد ظهر هذا الإبداع فى الفقه والتشريع ، كما ظهر فى نواح مختلفة أخرى .

ثم كان أن قويت الحركة العلمية واشتدت بسبب عوامل عدة ، وكان من أهم هذه العوامل بلا ريب ترجمة العلوم والفلسفة اليونانية للغة العربية ، فضلا عما نقل للعربية أيضا من تراث فارس والروم . ومن الحق ، أن حركة الترجمة بدأت أيام الأمويين ، ولكنها لم تأخذ قوتها العجيبة وازدهارها الكبير إلا فى عهد الدولة العباسية بفضل الخليفة المأمون .

وكان مما نقل للعربية منطق ارسطو وفلسفته وفلسفة غيره من أساطين اليونان ، والمنطق ـ كما نعرف ـ يقدم ما يلزم من آلات ووسائل للوصول الى المجهول بطريق القياس والاستنباط . ومن البدهى أن يكون الفقهاء ، ومثلهم فى هذا مثل سائر العلماء فى الميادين المختلفة ، قد أفادوا فائدة كبرى من المنطق وسائر فروع الفلسفة الأخرى (١).

---

(١) علماء الكلام او التوحيد هم الذين استفادوا . اكثر من غيرهم . من فلسفة اليونان

ولما كثر التحديث عن الرسول ، وغزر الى حد كبير ما روى عنه أو نسب اليه من الأحاديث ، ندب بعض أعلام المسلمين من رجال الحديث أنفسهم للفحص عن هذه الأحاديث وتصنيفها وبيان صحيحها والموضوع منها ، ثم لتدوينها فى دواوين خاصة يرجع اليها المسلمون كما يرجعون للقرآن لمعرفة دينهم وشريعتهم ، وكان هذا الصنيع فضلا وتوفيقا عظيمين من الله لحفظ الأصل الثانى للاسلام وهو سنة رسوله .

وأهم هذه المجموعات أو الدواوين ، هو ما يعرف « بالكتب الستة » ، اذ فاق أصحابها فى الدقة والفحص والاختيار سواهم ، ففاقت الكتب نفسها غيرها فى الاعتبار لدى المسلمين وتقديرهم لها ، وأصحاب هذه الكتب هم :

١ ـ ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ، المتوفى عام ٢٥٦ هـ .

٢ ـ مسلم بن الحجاج النيسابورى ، المتوفى عام ٢٦١ هـ

٣ ـ ابو داود سليمان السجستانى ، المتوفى عام ٢٧٥ هـ .

٤ ـ ابو عيسى محمد بن عيسى التومذى ، المتوفى عام ٢٧٩ هـ

٥ ـ ابو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجه ، المتوفى عام ٢٧٣ هـ

٦ ـ ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائى ، المتوفى عام ٣٠٣ هـ

هذه المجاميع وأمثالها ، ومنها ما صنف على ابواب الفقه المختلفة ، والتى أنفق مؤلفوها ـ الآئمة الحفاظ الأعلام ـ ما انفقوا من جهود ، قدمت بلا ريب مادة غزيرة خصبة للفقهاء ، يستخلصون منها الأحكام الفقهية بجانب القرآن ، ولذلك كان لها أثرها الكبير فى نمو الفقه واكتماله .

واخيرا ، كان من الطبيعى لكل ما قدمناه أن تكثر الآراء والفتاوى فى المسألة الواحدة ، وذلك للاختلاف فى اعتبار الحديث صحيحا او غير صحيح ، او للاختلاف فى بعض اصول الفقه نفسها ـ كالقياس ـ واعتبارها او عدم اعتبارها من أدلة الأحكام الفقهية .

وكذلك كان طبيعيا أن يتعصب كل من الفقهاء لآرائه ، وأن يحتج لها ما وسعه الاحتجاج ، وأن يجتهد ـ هو وتلاميذه وأنصاره ـ فى إقامتها على أسس وأصول متينة يكون عنها منطقيا كل ما يريد من تطبيقات وتفريعات .

ومن هنا ، كان للفقه مذاهبه الكثيرة المعروفة . ومن هذه المذاهب ما اندثر وذهب مع الزمن ، ومنها ما كتب له الخلود حتى اليوم والى ما شاء الله . وسنتحدث فى بحث قريب ، عن هذه المذاهب وتلك ، إن شاء الله تعالى .

الفصل الثانى

خصائص التشريع الإسلامى وأسسه العامة

١ - الخصائص

لهذا التشريع طبيعة خاصة ، وخصائص تميزه عن غيره من ضروب الفقه العالمية . ومن هذه الخصائص ما يرجع الى طبيعة الفقه نفسها ، وما يرجع الى الطريق الذى سار ويجب أن يسير فيه حتى يصل الى الغاية التى يرضاها الشارع الحكيم للعالم كله .

وليس من الممكن استيعاب تلك الخصائص ، التى مرجعها بداهة طبيعته الخاصة ، فى القدر المحدود من الصفحات التى خصصناها لهذا البحث ، ولكن يمكن تعرفها بإجمال مما يأتى :

(أ) انه يرجع فى أسسه العامة الى وحى الله تعالى .

(ب) التمهيد لاحكامه بوازع الدين والاخلاق

(جـ) جزاؤه دنيوى وأخروى معا .

(د) نزعته جماعية .

(هـ) قبوله للتطور حسب بيئات الزمان والمكان .

(و) غايته تنظيم الحياة الخاصة والعامة ، وتيسيرها ، واسعاد العالم كله .

ولنأخذ الآن فى بيان هذا الإجمال بشىء من التفصيل ، على الا نتعرض للمقارنة بين الفقه الاسلامى والقانون الا بقدر وفيما تكون المقارنة ضرورية فيه ، لأن القصد الاول هو ما يختص بشريعة الاسلام وحدها .

أسسه العامة رحيبة

جاء الإسلام بعد أن استنفد كل من الأديان السابقة أغراضه ، وصارت الانسانية مستعدة لتقبله ، وأحست بالحاجة الملحة لرسالة سماوية تكون خاتمة

الرسالات جميعا ، وتشوقت لدين جديد يسير بها قدما الى حياة العز والكرامة والسعادة ، لا فرق بين جنس وجنس ولا بين أمة وأخرى ، حتى لا يكون للناس جميعا الا آله واحد ويكون العالم كله معبده ·

وكانت رسالة الاسلام لذلك ، بيان العقيدة الحقة ، بعد أن اختلفت فى ذلك اليهودية والنصرانية اختلافا كبيرا مزق العالم الى فرق كثيرة متعادية ، ووضع النظم والقوانين الصالحة لحياة الفرد والجماعة ، وبخاصة أن حظ ما سبقه من الأديان للسماوية كان ضئيلا فى هذه الناحية ، ومن هذه النظم والقوانين ، ما نعرفه اليوم باسم « الفقه » ·

أساس هذا الفقه اذن هو وحى الله تعالى ، هذا الوحى الذى نجده فى كتابه الكريم وسنة رسوله العظيم الذى لا ينطق عن الهوى · ففى هذين المصدرين ، نجد ـ كما ذكرنا من قبل ـ جماع ما نعرف اليوم من أقسام القانون الحديث المختلفة ، المدنى ، التجارى ، العقوبات ، الدستورى ، الدولى ·· الى آخر فروع القانون ·

وكل فقيه مقيد بهذين المصدرين أو الأصلين الأساسيين ، ما ساعفته النصوص ، والا فهو مقيد كذلك باستلهام روح الشريعة ومبادئها وأصولها ومقاصدها ، وفى ذلك مجال ـ أى مجال ! ـ للاجتهاد بلا ريب ، ومن ثم كان تعدد المذاهب الفقهية واختلافها ·

هذا ، فى حين أن القانون الوضعى ـ على اختلافه باختلاف الأمم ، وعلى تعدد أقسامه وفروعه ، وعلى اختلاف المذاهب فى طبيعته وكيفية تكونه ـ من عمل الإنسان ·

ولهذا عكفوا على دراستها وتفسير نصوصها نصا نصا ، كما يفعل مفسرو الكتب المقدسة كالقرآن مثلا ، زاعمين انها حوت كل شىء فى بابها ·

ولذلك نراهم جميعا يصدرون عن فكرة واحدة تجمع بينهم ، وهى « أن النصوص التشريعية قد حوت كل القواعد القانونية ، ولم تفرط فيها من شىء ، فليس أمام الفقيه إلا أن يستعرض هذه النصوص ويفسرها نصانصا · فاذا أعجزه

استخلاص قاعدة منها فليس الذنب فى هذا على التشريع فإنه حتما يتضمن كل القواعد القانونية ،وإنما العيب عيب الفقيه الذى لم يوفق الى استخلاص القاعدة من النصوص » (١) .

وليس من شأننا استعراض سائر المذاهب فى طبيعة القانون ، ولو إشارة وإجمالا ، ولهذا نكتفى منها بهذين المذهبين اللذين يخيلان فى بادىء الرأى أن فيهما مشابه لرأى المسلمين فى طبيعة الفقه ومصدره

حقيقة ، أننا نجمع على أن الفقه فى أسسه وأصوله العامة مصدره الوحى الإلٓهى فى مصدريه العظيمين المقدسين ، كتاب الله المحكم وسنة رسوله الصحيحة ، وفى هذا ما قد يشبهه مذهب مدرسة « أوسنتن » من ان القانون مشيئة هيئة عليا مطلقة السلطان . وكذلك نعرف أن من فقهاء المسلمين من رأوا التزام النصوص ، كالظاهرية مثلا ، فعكفوا على تفسيرها لاستخلاص قواعد الفقه منها .

ولكن يبقى مع هذا وذاك ، الفروق الضخمة فى النتائج التى تجىء عن الفروق الضخمة أيضا من جعل القانون وليد صاحب السلطان الأعلى فى المجتمع ، او اعتباره مشيئة الله العظيم بما فيه صلاح الفرد والمجتمع والانسانية كلها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، يبقى الفرق الكبير فى النتائج التى تجىء عن الفرق الكبير أيضا من اعتبار القانون وليد مجموعة قانونية وشرحها وتفسيرها لمجموعة نابليون مثلا ، وبين إرجاعه الى نصوص القرآن والسنة المعصومة من الخطأ ، بينما عمل الإنسان مهما كان أمره عرضة للخطأ كما هو عرضة للصواب .

ومن هذا ، نرى أن رأى الفقهاء المسلمين فى طبيعة الفقه ومصدره ، وأنه فى أسسه واصوله العامة يرجع الى وحى الله لرسوله ، ليس فيه شىء من العيوب التى يراها رجال القانون للمذاهب المختلفة فى تفسير طبيعة القانون وبيان كيفية تكونه ، ومن هذه العيوب إهمال العرف واثره فى القانون ، وانه ـ مادام مصدره التشريع وحده ـ يبقى جامدا لا يتطور حسب الزمان والمكان وطبقا لما توجبه مصلحة الأمة .

---

(١) اصول القانون . للاستاذين السنهورى وحشمت ابو ستيت . ص ٣٨ .

وأخيرا ، نرى من نتائج اختلاف النظريتين لطبيعة القانون والفقه الاسلامى ، أن الاحكام الفقهية يكون لها من الاحترام ما لا يكون للأحكام التى يوجبها القانون ، وذلك لاختلاف مصدريهما : الوحى الآلهى من ناحية ، وعمل الإنسان من ناحية أخرى .

ومن ثم ، تكتسب الأحكام الفقهية الاستقرار ، ويعمل بها الآخذون بها عن اقتناع داخلى ورضا نفسى ، ما دامت ترجع فى أساسها الى الله العلى الحكيم الذى لا يجىء عنه الا ما يحقق مصلحة الإنسان ، والذى لا يأمر إلا بالمعروف ولا ينهى إلا عن المنكر .

التمهيد لأحكامه

ولا تتحقق الغاية المرجوة من القانون بحسن وضعه وأحكامه فحسب ، وإنما تتحقق ، مع ذلك ، بتنفيذه ممن شرع لهم ، علي ان يكون هذا التنفيذ بوازع من انفسهم وقلوبهم . وهذا الوازع يجىء من إيمانهم بعدالة القانون ، ورضاهم به ، واعتقادهم المثوبة من المشرع على النزول راضين على تشريعاته واحكامه .

وقد لاحظ شيئا من هذا ، فيما قبل التاريخ الميلادى ، عظيم من عظماء فلاسفة اليونان وهو افلاطون المتوفى عام ٣٤٧ ق م . فان الذى درس كتابيه الخالدين : « الجمهورية » و « القوانين » ، يتبين أنه كان حريصا على التمهيد لكل من تشريعاته التى أراد ان يقيم عليها دولته (La Cilé) الفاضلة المثالية ، بما يجعلها مقبولة ومرضيا عنها من اهل هذه الدولة او الجمهورية التى ارادها لبنى وطنه ، والتى لم يتمكن بكل اسف من تنفيذها .

أما التشريعات الاسلامية كما نعرفها من القرآن والسنة النبوية ، فانها بلغت الكمال من ذلك كله ، إذ قامت جميعها على اعتبارات من الدين والأخلاق تجعلها تبلغ غاية الرضا والإيمان ممن وجهت اليهم من المؤمنين جميعا ، لا فرق بين المسلمين وغير المسلمين ، وحسبنا ان نشير من ذلك الى ما يأتى :

للجار على جاره حقوق ، وعليه له واجبات ، وهى ما تعرف فى الفقه بحقوق الجوار التى سيجىء بحثها فى القسم الثانى من هذا الكتاب . وهذه الحقوق ربما

لا يرضى من هى عليه بالتسليم بها ، فيضطر صاحبها لاقتضائها للجوء للمحاكم . ومن ثم يجدُّ كثير من المشاكل والحوادث والقضايا التى يفصل فيها القضاء ، ويكون تنفيذها بعد ذلك بقوة القانون ، على أن هذا لا يمنع من بقاء الخصومة والعداء بين المتقاضين .

لكن الله العليم الحكيم والمشرع الوحيد بحق ، والذى يعلم ما طبعت عليه النفس الانسانية من انانية واثره ، يؤكد حق الجار على جاره الى درجة أنه قرنه بالأمر بعبادة الله وعدم الشرك به ، فقال : « **وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ** (١) » .

ولذلك ، نجد الرسول يتناول هذا المعنى فيؤكده فى أحاديث كثيرة ، نذكر منها قوله : « **مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** » ، وقوله : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره** » ، وقوله : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره** » .

فمتى جاء الفقهاء بعد هذا ، وبينوا هذه الحقوق التى للجار لا يسع من يؤمن حقا بالله وكتابه ورسوله الا المسارعة بأداء هذه الحقوق ، مادام الدين يبلغ من ذلك الى حد الأمر بإكرام الجار ، لا باعطائه حقوقه فحسب . وحينئذ ، ما الحاجة للقضاء والقانون ، إلا لمعالجة من لم يخالط الإيمان قلوبهم وفطرت نفوسهم على الشح ومنع الناس حقوقهم !

وفى الزكاة ، وهى الصدقة المفروضة على ما يملك الانسان من الأموال النقدية والزروع والأنعام ، نجد القرآن يغرس فى نفس المؤمن به أن أداء هذه الزكاة ، بل التصدق المندوب اليه بشىء مما يملك ، خير للمتصدق نفسه ، **فيقول** : « **خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** » (٢) .

ثم نجد ، بعد القرآن ، أحاديث كثيرة فى الحث على الصدقة وتغليظ عقوبة من لا يؤدى الزكاة وتصوير هذه العقوبة بصور شنيعة . وبعد ذلك يؤكد

---

(١) سورة النساء ، ٣٦ .
(٢) سورة التوبة ، ١٠٣ .

للمتصدق ان الله سيعوضه عما اتفق خيرا كثيرا ، فيقول : « **ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان ، فيقول احدهما : اللهم اعط منفقا خلفا ! ويقول الآخر : الله ! أعط ممسكا تلفا** » .

والذود عن الوطن من مقاصد الإسلام وكل قانون ، ولهذا كتب الله الجهاد على المسلمين ذيادا عن الوطن ودفاعا عن الدين ونشرا له ، لكنه لم يأمر بذلك أمرا مجردا فحسب كما يفعل قانون التجنيد عندنا مثلا .

إن الله يعلم أن اكثر النفوس فطرت على الضن بالنفس كما فطرت على الضن بالمال ، ولهذا رغب فى الجهاد بضروب الترغيب المختلفة ، وبين أنه خير من الدنيا وما فيها ، وأنه لا جزاء له فى الآخرة الا الجنة ، ولكل هذا ونحوه ، جاء كثير من الآيات والأحاديث .

من هذه الآيات ، قوله تعالى : « **فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** » (١) ، وقوله : « **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** » (٢) .

وبجانب هذه الآيات ، نجد هذه الأحاديث عن الرسول : « **تكفل الله لمن جاهد فى سبيله ، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله وتصديق بكلماته ، أن يدخله الجنة أو يرده الى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة** » ، « **لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها** » .

وكان لهذا المنهج فى التمهيد لتشريع الجهاد وتحبيب بذل النفس فى سبيل الدين ، اثره الكبير بلا ريب فى قلوب المؤمنين . فهذا جابر بن عبد الله يحدث أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم يوم احد : أرأيت ان قتلت ، فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قتل » .

هذا ، وقد كان فى النية الإتيان بمثل أخرى ، رأيت بعد البحث والاستقراء

---

(١) سورة النساء . ٧٤

(٢) سورة التوبة . ١١١

تطبيق هذه الطريقة ـ طريقة التمهيد بالدين والأخلاق ـ ظاهرا فيها ، وهذه المثل خاصة بتحريم الربا ، وبتشريعات الطلاق والميراث ، والأمر بأداء الشهادة وعدم كتمانها ، ونحو ذلك كله · كانت النية على هذا ، ولكن رأيت الاكتفاء بما ذكرت رغبة فى الإيجاز ، مادام فى المثل التى جئنا بها ما يفى بتأكيد هذه الخاصية للتشريع أو الفقه الاسلامى ·

هذا هو الشأن فى الفقه ، أما فى القانون الوضعى فلا نجد لذلك مثيلا · حقيقة أن كل تشريع وضعى جديد يقدم له واضعه بمذكرة إيضاحية تعتبر تمهيدا له ، يبين فيها السبب فى وضعه ، والطرق التى سلكها فيه ، والغاية منه ، الى آخر ما تعنى به امثال هذه المذكرات أو التمهيدات لكل قانون جديد ·

ولكن هذا شىء ، وما انفردت به الشريعة الاسلامية من التمهيد لكثير من احكامها على الوجه الذى ذكرناه شىء آخر · فانه بهذه التمهيدات التى نصادفها هنا وهناك فى القرآن والسنة والآثار ، يقتنع المخاطب حقا بأنه يدعى الى التزام قانون يحقق العدالة لا العدل فقط ، وان فى هذا الالتزام والنزول على هذه التشريعات رضا الله ورسوله وثوابا للانسان نفسه فى هذه الدار والدار الأخرى ، وليس بعد هذا ما يبعث على طاعة القانون ·

جزاؤه دنيوى واخروى

وهذه خصوصية أخرى تتصل شديد الاتصال بسابقتها ، حتى تكاد تكون ملازمة لها · ذلك بأن القانون يمكن أن يعرف بأنه مجموعة القواعد التى تنظم الروابط الاجتماعية ، والتى تقسر الدولة الناس على اتباعها ولو بالقوة عند الاقتضاء وهو يجازى على انتهاك أحكامه ، الا أن هذا الجزاء يكون دنيويا دائما ، لأن واضع القانون لا يملك طبعا من أمره الآخرة شيئا · ومن ثم ، لا جناح فى الدنيا على من يستطيع الإفلات من هذا الجزاء ·

أما القانون السماوى ، وهو ـ فى أسمى صوره ـ الفقه الاسلامى ، فعلى غير ذلك فيما يختص بالجزاء · إنه يثيب ويعاقب فى هذه الحياة وفى الدار الأخرى أيضا ، والجزاء الأخروى أعظم دائما من الجزاء الدنيوى · ومن أجل ذلك ، يحس

المؤمن بوازع نفسى قوى بضرورة العمل بأحكامه واتباع أوامره ونواهيه ، ولو أمكنه التفلت من الجزاء فى هذه الحياة الدنيا ، وليس كهذا باعثا على اتباع التشريعات التى تستند الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والتشريع الذى يستند الى الدين هكذا ، يقصد صلاح الفرد والمجتمع ، وهذه غاية نفعية بلا ريب . بيد أنه يريد بناء مجتمع مثالى نقى مما ينافى الدين والأخلاق ، ولذلك لا يمكن أن يقر شيئا ينافى شيئا منهما .

كما أنه لا يقصد فقط الى بناء مجتمع سليم ، بل الى سعادة الفرد والمجتمع والبشرية كلها فى هذه الدار وفى الدار الأخرى أيضا . كما يهدف كذلك الى احسان قيام الانسان بواجبه نحو نفسه واخوانه فى الإنسانية ، ونحو الله تعالى بعبادته حق العبادة .

نزعته جماعية

قلنا بأن التشريع الاسلامى يرمى الى صلاح الفرد والمجتمع ، فالنزعة السائدة فيه هى النزعة الجماعية ، ونقول « جماعية » ، لا « اشتراكية » ، لأن هذه الكلمة أخذت فى هذه الايام معنى خاصا حددها أو قصرها على الناحية المالية ، ونحن نريد « بالجماعة » معنى اوسع يتناول الناحية المالية وغيرها حتى ليعم الحقوق والواجبات جميعا .

وهذه النزعة أو الطابع الجماعى للتشريع الاسلامى نجده واضحا فيما جاء به الاسلام من عبادات ، كما هو واضح فيما أتى من أحكام المعاملات التى نراها فى الحياة العملية فكل هذه التشريعات فى هاتين الناحيتين ، تهدف الى تهذيب الفرد وصالحه والصالح العام للمجتمع بأسره ، والمثل لذلك واضحة ندركها وتكفينا فيها الاشارة (١).

ونشير ، مثلا ، الى حكمة شرعية الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وحل البيع وتحريم الربا ، والأمر برعاية الجار والوفاء بالعقود ، وتجليل الزواج لانشاء الاسرة

---

(١) سيجىء لهذا زيادة تفصيل . وذلك حين نتعرض لبحث الغاية من الفقه .

وتحريم الزنا ، وإقامة الحدود صيانة للمجتمع ، الى آخر ما نعرف من الأحكام التى جاءت بالأمر والنهى والحل والحرمة ·

وبعد هذا التعميم لابد من التخصيص ، وذلك بالإتيان ببعض المثل المحدودة الواضحة الدلالة على ما نقول ، اى على الطابع العام للتشريع الاسلامى وهو الطابع الجماعى ·

ومن حق الزوج أن تكون زوجته فى طاعته ، لتكون سكنا له ، وليثمر الزواج ثمراته المنشودة منه ، ولكن هذا الحق مقيد بألا يكون فى استعماله ضرر للزوجة وإلا منع منه القاضى أو حد من استعماله ، حتى ليكون للزوجة فى بعض حالات الضرر طلب التطليق منه ، ومن ثم ، يقول الله تعالى : « **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا** » (١) وهذا الأمر وإن جاء حالة التطليق الرجعى إلا أنه القاعدة فى حالة قيام الزوجية أيضا ·

ومن حق الحكام أن تسمع لهم الرعية ويطيعهم الشعب ، ولكن ذلك مشروط بأن يصدروا فى حكمهم وسياستهم للأمة عن المصلحة العامة ، وفى هذا نرى الرسول يقول : « **السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ، مالم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة** » (٢) · وهو ، كما نرى ، اصل من أصول الحكم له خطر الكبير · إذ أنه يحدد فى دقة تامة سلطان الحكام وحقوق المحكوم ، وفى اتباعه مصلحة الأمة جميعا ·

ثم ، يروى ابو عبيدة بن الجراح أن رجالا من اهل البادية سألوه ان يرزقهم من مال الأمة الذى تحت يديه ، فقال : لا والله ، حتى أرزق أهل الحاضرة ، فمن أراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة ، وبمثل هذا كتب عمر بن عبد العزيز الى يزيد بن الحصين يقول « مر للجند بالفريضة ، وعليك بأهل الحاضرة ، وإياك والأعراب فانهم لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم » ·

ويروى الإمام أبو يوسف (٣) انه لما فتح الله العراق والشام على المسلمين أيام

---

(١) سورة البقرة ، ٢٣١ ·
(٢) رقم ٤٦٦٨ من مسند الامام احمد ، طبعة الاستاذ الشيخ احمد شاكر ·
(٣) كتاب الخراج ، ص ١٤ ــ ١٥ ·

عمر بن الخطاب ، أراد فريق كبير من الصحابة قسمة الارض وما عليها بين اصحاب الحق من المسلمين الفاتحين ، لكن الفاروق رأى أن يترك الأرض بيد ملاكها على أن يدفعوا الخراج والجزية للمصلحة العامة للمسلمين جميعا ، وكان هذا الرأى توفيقا من الله لعمر بن الخطاب كما عوده فى كثير من الحالات .

ومن المعروف أن للمالك الحق فى أن يتصرف فى ملكه كما يشاء ، ومن ذلك حق البيع لمن يريد ، كما ان للمشترى الحق فى شراء ما شاء إذا رضى مالكه بيعه له . ومع ذلك ، فالفقه الاسلامى أوجب حق الشفعة للشريك أو الجار على ما هو معروف ، فيكون له تملك ما اشتراه الاجنبى جبرا عنه وعن المالك الذى باعه له ، وذلك لأن الحقوق لم يشرعها الله لضرر الغير بلا ضرورة أو سبب

إن الفقه الاسلامى يحفظ الحق لصاحبه ويبيح له استعماله كما يريد ، ويحميه له من اعتداء الغير عليه ، بشرط ألا يضار الغير باستعمال صاحب الحق حقه ضررا يكون أكبر من ضرر الحد من حرية صاحب الحق ، وذلك تطبيقا لقاعدة : لا ضرر ولا ضرار ، ودفعا لأكبر الضررين بالاخف منهما . فهذه القاعدة تحكم استعمال الحقوق ، وفى تطبيقها تحقيق صالح صاحب الحق وصالح الغير معا .

وكذلك ، تطبيقا لهذه القاعدة ، يبيح التشريع السماوى للغير أحيانا أن يحفر فى أرض غيره مجرى ماء ليروى ارضه البعيدة عن مصدر الماء . لقد روى يحيى ابن آدم القرشى(١) أنه كان للضحاك بن خليفة الأنصارى ارض لا يصل اليها الماء الا اذا مر ببستان لمحمد بن مسلمة ، فأبى محمد هذا أن يدع الماء يمر بأرضه

فأتى الضحاك عمر بن الخطاب ، فقال لابن مسلمة : أعليك فيه ضرر ؟ قال : لا ، فقال له : والله لو لم أجد له ممرا إلا على بطنك لأمررته ! وكان أن نفذ ما قضى به ، وكان فى هذا مصلحة للاثنين معا ، فقد جاء ببعض الروايات أن الضحاك ، حين ابى عليه مسلمة أن يحفر الخليج بأرضه ، قال له : تشرب منه أولا وآخرا .

---

(١) كتاب الخراج ، ص ١١٠ ــ ١١٢ .

تلك المثل ، ولو شئنا لأتينا باخرى كثيرة ، فيها الكفاية لإثبات الطابع الجماعى للفقة الاسلامى ، هذا الطابع الذى نجد فى القرآن وسنة الرسول واحكام وآراء الجلة من الصحابة المصدر الأصيل له ، وذلك ، كما قلنا ، لأن الشريعة الإسلامية لم تأت لصالح الفرد وحده ، بل لصالح المجتمع كله فى أكبر حدوده ·

أما القوانين التى هى من صنع البشر ، فلم تلاحظ فى أول أمرها هذه النظرة الجماعية او الاجتماعية السامية ، بل كانت تسودها الروح الفردية ، ولنأخذ مثلا لذلك القانون المدنى الفرنسى الذى صدر عام ١٨٠٤ م ·

فقد كان هذا القانون وليد الثورة الفرنسية التى كان هدفها الأول تحرير الفرد مما كان ينوء به من قيود وأثقال ، فى السياسة والقانون والاقتصاد وغير ذلك كله من نواحى الحياة العامة · فجاءت هذه الثورة عام ١٧٨٩ م لتقرر أن للانسان ، باعتباره فردا ، حقوقا طبيعية بلغت من القداسة ألا يجوز العبث أو المساس بها ، ولو لصالح الغير ·

« ومن ثم ، ساد هذا القانون روح فردى قوى يلتئم مع الروح الذى أملى اعلان حقوق الانسان ، وهو تدعيم حقوق الافراد وحمايتها ، وينظر الى الفرد باعتباره العنصر الأهم فى الحياة لا باعتباره جزءا من كل هو الجماعة · ولقد كان من نتائج ذلك ، أن أتى وقت اعتبرت فيه الحقوق مطلقة المدى ، وأن صاحب الحق فى استعماله سيد لا يسأل عما يترتب على هذا الاستعمال من الأضرار التى تحيق بغيره » (١) ·

ومن الحق ، أن ما حدث بعد عصر الثورة الفرنسية من تطورات اجتماعية واسعة المدى والأهمية ، قد أدى الى تطور مماثل فى القوانين جعلها تنظر الى الفرد وحقوقه باعتباره عضوا فى الجامعة ، ومن ثم اخذت فى الحد من حريته فى استعمال حقوقه ، فنشأت نظرية سوء استعمال الحقوق La théorie de L'abus des droits

الا أنه مع ذلك ، بقى من الثابت الذى لا ريب فيه أن نظرة الشريعة

---

(١) انظر « مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به الشريعة الاسلامية والقانون المصرى الحديث » ، للاستاذ الدكتور السعيد مصطفى السعيد ، ص د .

الاسلامية لحقوق الأفراد وتقييدها ، مما يحقق مصلحة الجماعة ولا يضر مصلحة الفرد نفسه صاحب الحق ، أوسع مدى وأبعد أثرا من نظرة القوانين الحديثة فى هذه الناحية ، ولهذا نراها جميعا تبيح التعامل « بالربا » مع ما فيه من صالح صاحب رأس المال والضرر بالمحتاج للقرض .

ونعتقد أن هذه التفرقة الواضحة ، بين طابع الشريعة الالٓهية وطابع القانون البشرى ، ترجع الى تفرقة أساسية فى أصل حقوق الفرد فى الشريعة والقانون .

إن القانون فى أول أمره ، يعتبر حقوق الفرد حقوقا طبيعية له ، فهو يملكها ويتصرف فيها حسب ما يرى ، ومن ثم لا حرج عليه ولا تثريب إن أساء استعمالها . أما الشريعة الالٓهية فترى أن الفرد نفسه ، وكل ما يعتبر له عادة من حقوق ، ملك الله تعالى وحده ومنحة منه لعبيده ، ولا يمنح ما يمنح من حقوق الأفراد إلا لغرض حكيم هو تحقيق الخير للفرد والمجتمع معا ، ولذلك نجد تقييد استعمال الحقوق من نواح عديدة مختلفة .

ذلك ، بأن من المسلم الذى لا جدال فيه أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معا ، وأن هذا ثابت في جميع الأحكام بالاستقراء(١) وهذا ما اختاره أكثر الفقهاء المتأخرين . ويترتب منطقيا على ذلك الأساس ، وجوب أن يكون الإنسان فى عمله واستعماله لحقوقه متفقا مع قصد الله من التشريع ، وإلا كان عمله باطلا ، لمناقضته للشريعة ومقاصدها .

قبوله للتطور

كل ضرب من الفقه يجب أن يكون فى طبيعته وأدواته وأصوله ما يجعله قابلا للتطور حسب الزمان والمكان ، ليكون صالحا للبقاء ، وإلا كان « فقها » ميتا غير صالح للحياة .

والفقه الاسلامى له من كل ما ذكرنا ما جعله خالدا يتطور مع الزمن ، وقد رأينا ، فيما مضى ، بدء هذا التطور وشيئا منه فى زمن الخلفاء الراشدين أنفسهم . ولو أن رجاله قاموا عليه كما يجب ولم يجمدوا على القديم ، لما كانت

---

(١) الموافقات فى اصول الاحكام للشاطبى . جـ ٢ : ٦ وما بعدها .

الأمة الاسلامية بحاجة مطلقا للجوء للفقه والقوانين الغربية تأخذ منها تشريعاتها وقوانينها ٠

وهكذا صرنا الى حالة مؤلمة من الأخذ عن الغرب فى كل شىء حتى كأننا أمة ليس لها مقوماتها الذاتية وتقاليدها الطيبة ، وإن كنا بحمد الله تعالى نرى الآن فجرا جديدا ليوم جديد نعمل فيه لاستقلالنا حتى فى التشريع ، وهذا بفضل الالتفات للشريعة الإسلامية والإفادة مها ٠

ووسائل تطور الفقه الاسلامى كثيرة ، ولكن أهمها : الإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، ومبدأ المصالح المرسلة ، ووجوب رعاية العرف على شروط خاصة ٠ ونكتفى الآن بالكلام على المبدأ الخامس مكتفين فى الحديث عنه بالكلام عن : نشأته وتعريفه ، واعتبار الرسول نفسه له ، وشروط اعتباره ، ومثل له فى أزمنة وأمكنة مختلفة (١) ٠

العرف فى اللغة التتابع ، يقال : جاء القوم عرفا ، أى بعضهم خلف بعض ، ومنه قوله تالى : « **والمرسلات عرفا** » ٠وينشأ العرف عن العادة ، وهى ما يستقر فى النفوس من الأمور المتكررة المعقولة عند الطباع السليمة ، وذلك لأن اشتقاق كلمة « العادة » من المعاودة مرة بعد أخرى ، فاذا تعارفها الناس فى بلد أو بلاد عديدة صارت أمرا معروفا أو عرفا ٠ وبعض هذه الأمور المتعارفة يرجع الى دين الأمة ، ومنها ما يرجع الى تاريخها ، ومنها ما يرجع الى تقاليدها ٠

وللعرف على المرء سلطان كبير ، فهو ينزل على أحكامه ، وإن كان لا يوافق على بعضها ، كمن يسرف فى أمور الزواج والمآتم استجابة لداعى العرف وهو ساخط إلا أنه يخشى أن تصيبه المعرة إن خرج على ما تعارفه قومه ٠

ولما للعرف من هذا السلطان ، نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يقر ما كان حسنا منه وبخاصة في باب المعاملات ، كما فى السلم والمضاربة ، وقد تقدم حديث الرسول فى السلم ٠

---

(١) راجع ايضا فى قبول الفقه للتطور . الدكتور على بدوى فى بحثه بالفرنسية عن تطور الفقه الاسلامى ومناقشته لمن ينفى ذلك من الاجانب بسبب اصله الدينى . ومقارنة بين المسيحية والاسلام من هذه الناحية وعنوان البحث هو : العلاقة بين الدين والقانون من الوجهتين التاريخية والجنسية

وفى المضاربة يقول فخر الدين الزيلعى ، فانه عليه الصلاة والسلام بعث والناس يتعاملونها ،

فتركهم عليها ، وتعاملها الصحابة رضى الله عنهم . ألا ترى الى ما يروى أن عباس بن عبد المطلب كان اذا دفع مالا مضاربة شرط عليه (أى على المضارب الذى يعمل فى المال تجارة) ألا يسلك به بحرا ، وألا ينزل واديا ، وألا يشترى ذات كبد رطب ، فإن فعل ذلك ضمن . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فاستحسنه ".

واذا كان العرف ، عاما أو خاصا على الخلاف ، يجيز تخصيص الأثر أو « الحديث » ويترك من أجله القياس ، فبالأولى يترك من أجله أقوال الفقهاء ، وإن كانوا من أئمة المذهب ، لأن هؤلاء الفقهاء يفتون فى كثير من أحكامهم بحسب عرف أهل زمانهم ، بحيث لو كان هذا الفقيه أو ذاك فى زمن العرف الحادث لقال بخلاف ما قال أولا ، ولذلك نرى مشايخ المذهب كثيرا ما يذهبون الى خلاف ما نص عليه المجتهد (٢) .

ومن هذا ، الفتوى أخيرا بجواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والأذان وإمامة الناس ونحو ذلك ، على خلاف ما اتفق عليه الإمام أبو حنيفة وصاحباه ، لانقطاع أعطيات من كانوا يلون هذه الأعمال فى الصدر الأول ، وخوف ضياع القرآن والدين لو لم يأخذ من يقوم بهذه الأعمال أجرا عليها .

ومن ذلك أيضا جواز بيع الثمار والخضر على الأشجار والأصول ولم تكن ظهرت كلها وقت عقد البيع ، فقد أجازه بعض العلماء للعرف . ومنه عدم جواز اتجار الوصى بمال اليتيم فى هذا الزمن ، لفساده بفساد أهله ومنع النساء من حضور المساجد لصلاة الجماعة للسبب السابق نفسه ، وكان ذلك مباحا أيام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومسائل أخرى كثيرة ، فى الاقرار والإيمان والنذور والزواج وغيرها .

وأخيرا ، نرى ـ مما تقدم ـ مقدار صلاحية الفقه الإسلامى للتطور إلى الخير

---

(١) الزيلعى . جـ ٥ : ٥٢ ـ ٥٣

(٢) ولهذا . لابد للمجتهد والمفتى من معرفة عادات الناس واعرافهم فى زمنه . تيسيرا عليهم

دائما بوسائله الخاصة ، حسب الزمان والمكان وما يتجدد من الأحوال والعادات والأعراف وأن من وسائل هذا التطور رعاية العرف ، وأن كتب الفقه مليئة بالأدلة على هذا التطور وبالمثل لبناء الأحكام على الأعراف المتجددة ٠

ولذلك لا يصح لنا فى هذه النهضة التشريعية أن نغل أيدينا وعقولنا عن الإفادة من هذا الفقه ، بجمودنا على القديم وحده ، دون مسايرة الزمن الذى يتطور دائما ، مادمنا لا نخرج عن مقاصد الشرع وأصوله الصحيحة ٠

غايته

لكل نظام غاية يريدها واضعه منه ، وإلا كان وضعه عبثا لا يليق من عاقل ٠ والقانون الوضعى نظام من النظم بلا ريب ، فما هى الغاية التى يقصدها المشرع منه ؟ إن الكلام فى هذه الغاية سهل ميسور كل اليسر ، إنها ليست إلا استقرار المجتمع الذى وضع له هذا القانون ٠ وذلك بتنظيمه وبيان حقوق وواجبات كل من أفراده فيما يختص بعلاقاتهم بعضهم مع بعض ٠

هذه الغاية إذن غاية نفعية محدودة ، وهى إقامة النظام فى المجتمع على نحو من الأنحاء ٠ وهى غاية يحرص عليها واضع القانون كل الحرص ، حتى ولو « اقتضاه ذلك أن يحيد أحيانا عن مقتضى قواعد الأخلاق والدين ، فالقانون مثلا يقر بملكية العقار لمن يضع يده عليه خمس عشرة سنة بنية تملكه حتى لو كان غاصبا ، كما أنه يقضى بسقوط الحق بالتقادم ، إذ يرى أن ذلك أدنى إلى قيام النظام فى المجتمع مجاوزا ما تقضى به قواعد الأخلاق فى هذا الخصوص » ٠

والقانون مع هذا ـ لأنه لا يقصد إلا غاية نفعية محدودة كما قلنا ، ولأن ذلك قد يقتضيه أن يبعد أحيانا عن بعض قواعد الدين والأخلاق ـ نراه يبيح وينظم ـ هكذا يرون ! ـ غير قليل من الأمور التى لا يبيحها دين أو خلق ٠

هذا هو القانون الوضعى فى عامة صوره ومذاهبه ، أما التشريع الاسلامى فهو نظام آخر فى غايته ، وذلك من نواح عديدة مختلفة ، ونكتفى هنا بالإجمال دون التفصيل ٠

فمن ناحية أولى ، أن هذا الفقه له مجال لم يتعرض له القانون بحال ، هو

تنظيم علاقة الفرد بربه ، وذلك بأحد قسميه الكبيرين ، نعني قسم « العبادات » . فهذه العبادات ، من صلاة وصوم وزكاة وحج ، تهدف ، كما نعلم جميعا ، إلى تطهير الروح ووصلها بالله جل وعلا ، وتزكية النفس وصحة الجسم ، وصلاح الفرد والجماعة معا من وجوه عديدة فى هذه الحياة الدنيا وفى الحياة الأخرى أيضا .

ومن ناحية أخرى ، نجد هذا « الفقه » إذا اقتصرنا على ناحية المعاملات منه ، « وهى تشمل فروع القانون المتعددة ، قد أوفى على الغاية وضرب المثل الأعلى لرعاية الفرد والمجتمع والإنسانية بعامة » .

وذلك بما وضع من مبادىء عامة وأصول كلية تحكم تصرفات الإنسان ، وبما قرره من أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، وبما صدر عنه من أن المصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة ، وبما حرمه أو نهى عنه من تصرفات وعقود تضر بالمجتمع والأمة ، وإن كان فيها منفعة لأحد أطرافها .

أما المبادىء العامة والأصول أو القواعد الكلية ، فقد حفلت بالكثير منها كتب معينة ، مثل كتب « الأشباه والنظائر » لابن نجيم الحنفى والسيوطى الشافعى ، و « الموافقات » للشاطبى ، و « الفروق » للقرافى . وعلى كل ، فسنذكر جانباً صالحا منها عند الكلام على « أسس التشريع العامة » فيما يأتى إن شاء الله تعالى .

على أن من هذه الأصول القاعدة التى تقرر أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، وأن المصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة . وهنا نجد الإمام الشاطبى ، بعد أن قرر هاتين القاعدتين ، ذكر فى ذلك تفصيلات لا نرى من الضرورى سردها .

ولكننا نستخلص من هذا الذى ذكره أن المرء قد يمنع شرعا من عمل هو فى الأصل مباح له وفيه مصلحة له ، وذلك إذا ترتب عليه ضرر قطعى لغيره أو يكاد يكون كذلك ، أو إذا ترتب عليه ضرر عام ، وذلك لأنه لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام ، « ولأن المصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة » ، إلى آخر ما قال (١) .

---

(١) الموافقات . جـ ٢ . ٣٤٨ وما بعدها

ويتصل بهذا ، نهى الشارع أو تحريمه · لبعض التصرفات التى تضر بالغير ـ مع إجازة القانون الوضعى للكثير منها ـ وإن كان فيها منفعة ، والمثل لذلك كثيرة فنكتفى بذكر بعضها :

(أ) حرم الله تعالى الربا فى جميع صوره تحريما قاطعا ، وتوعد عليه بأغلظ عقاب ، وذلك إذ يقول (سورة البقرة ٢٧٥) : **« وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ »، وإذ يقول فى السورة نفسها : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » .**

(ب) ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن « بيع الغرر » والغرر هو الذى لا يدرى هل يحصل أو لا يحصل ، وذلك كبيع الطير فى الهواء والسمك فى الماء قبل صيده ، وبيع ما سينتج من الخضر أو الزرع من هذه الأرض ، أو ما سيكون من الفاكهة فى هذا البستان ، وبيع السيارة الضائعة أو الحيوان الضال · كل ذلك نهى عنه الشارع ، لأن فيه مخاطرة أو مقامرة من البائع والمشترى على السواء ·

(جـ) وكذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : **« ولا بيع بعضكم على بيع بعض ، ولا يخطب على خطبة أخيه ، إلا أن يأذن له »** وكما يحرم هذا البيع ، يحرم أن يشترى المرء على شراء أخيه لأن فى كليهما ضررا بالآخر ، ولا ضرر ولاضرار فى الاسلام كما جاء فى الحديث ·

وبعد هذا كله ، نجد فى الناحية الإدارية ، وهى جانب مما يسمى « السياسة الشرعية » ، عناية كبيرة من الفقه الإسلامى ورجاله بما فيه المصلحة العامة للمسلمين جميعا ، لا بما يحقق مصلحة فرد بعينه أو جماعة بعينها · والفقهاء فى هذا يرجعون إلى القرآن الكريم وحديث الرسول المصطفى وإلى روح الإسلام عامة

ونكتفى هنا بمثال واحد فيه غنية عن سواه فى هذه الناحية ، وهو خاص بمناصب الدولة وأعمالها ومن يليها ·

إن المعروف فى الدولة التى يسودها القانون الوضعى، أن المناصب والأعمال توكل لمن هم أهل لها ، والمقياس الاول ـ ان لم نقل الوحيد ـ فى هذه « الأهلية » هو الشهادة أو الدرجة العلمية التى يفترض أن الحاصل عليها يكون أهلا لهذا المنصب أو ذلك ·

أما فى الفقه الاسلامى السياسى ، إن صح هذا التعبير ، فالمقياس هو الصلاحية الحقة لا العلم أو الدراية وحدها ، بمعنى أنه يجب على ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال الدولة أصلح من يجده لهذا العمل · وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه للمسلمين فقد خان الله ورسوله » ·

ولهذا يقول تقى الدين بن تيمية فى بعض كتبه (١) : « وينبغى أن يعرف (أى ولى الأمر) الأصلح فى كل منصب ، فإن الولاية لها ركنان : القوة والأمانة ، كما قال تعالى : « إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَئْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ » (٢) ثم يذكر بعد هذا أن القوة في كل ولاية بحسبها فهى فى إمارة الحرب مثلا ، ترجع إلى الخبرة بها ، وإلى شجاعة القلب ، وهى فى ولاية الحكم بين الناس ، ترجع إلى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام ·

ثم يذكر بعد ذلك أن اجتماع القوة والأمانة فى الناس قليل ، فالواجب فى كل ولاية الأصلح حسب نوع هذه الولاية ، فيقدم فى إمارة الحرب الرجل القوى الشجاع على الضعيف العاجز وإن كان أكثر أمانة منه · وإن كانت الولاية فى حفظ المال ونحو ذلك ، وجب تقديم الأمين على القوى ، وهكذا إلى آخر ما ضرب من مثل تعتبر تطبيقات لمبدأ تقديم الأصلح للولايات والمناصب المختلفة (٣)

هذا ، وفى الناحية الاجتماعية فيما يختص برعاية المحتاجين ، نرى فى الفقه الإسلامى نظاما لا نظير له فى أى قانون وضعى أو دين آخر ، ونعنى به نظام « الزكاة » (٤) التى تؤلف بابا مهما من قسم « العبادات » فى الفقه ·

---

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية . ص ١٢

(٢) سورة القصص ٢٦

(٣) وراجع بحثا جيدا ايضا فى هذا ونحوه فى كتاب « الفروق » للامام القرافى ج ٢ : ١٧٩ ـ ١٨٤

(٤) تؤخذ الزكاة من صنوف معينة من المال . كالنقود والزروع والحيوان . وذلك على نسبة معينة فى كل منها . كما هو معروف فى كتب الفقه

إن المشرع الحكيم ، وهو الله اللطيف الخبير بعباده والعليـم .. بهم ، يعلم أن الناس تتفاوت حظوظهم من المال ومتاع هذه الحياة تفاوتا كبيرا ، ولذلك فرض فى مال الأغنياء حقا معلوما للسائل والمحروم ، كما فى القرآن ، وهذا الحق المعلوم يؤخذ من الأغنياء ليعطى للفقراء والمحتاجين معونة لهم من الدولة والأفراد .

والتاريخ الصادق الأمين يحدثنا بما كان من عمر بن الخطاب ، وغيره من الرعيل الأول من رجالات الإسلام رضوان الله عليهم جميعا ، فى هذه الناحية .

ومن ذلك نعلم أنه كان هناك أيضا فى ذلك العصر المجيد أعطيات تعطى للوالدات وأولادهن ، وأن هذا العطاء يتدرج كلما زاد أبناء الأسرة الواحدة ، وأنه كان من « بيت المال » الذى يقابل ما نسميه اليوم « وزارة الخزانة » .

كما يحدثنا أن هذه الرعاية كانت تمتد حتى تشمل المحتاجين من غير المسلمين . فهذا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يرى رجلا من « أهل الذمة » يتكفف الناس فسأله عما ألجأه إلى ذلك ، وحين عرف أنه فى حاجة إلى العون قال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبتـه وضيعناه عند الهرم ! ثم أمر برفع الجزية عنه ، وأن يعطى وعياله ما يكيفهم من بيت المال طوال مدة اقامتهم بدار الإسلام وصار ذلك مبدأ له ولأمثاله من المحتاجين .

ومما تقدم كله ـ وهو قليل من كثير يمكن أن يقال بحق فى هذه النواحى كلها ـ نعلم صدق ما قلناه فيما سبق ، من أن الفقه الإسلامى قد أوفى على الغاية ـ وضرب المثل العليا لرعاية الفرد والمجتمع والإنسانية .

ومنه عرفنا كذلك بحق ، أن لهذا الفقه طبيعة خاصـة بـه وأن له خصائص ينفرد بها عن غيره من ضروب الفقه والقوانين العالمية ، وأن من الخير أن نعرف له قدره فنجعله الأساس الأول لتشريعاتنا الحديثة التى نحكم بها فى بلدنا وفى غيره من بلاد العروبة والإسلام

٢ - أسس التشريع العامة

خلق الله العالم بعنايته ، وأحاطه دائما برعايته ، فلم يتركه بلا هداة يرشدون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر · فكان من رحمته وعدالته أن يرسل له الرسول بعد الرسول · وقد عرفت البشرية كثيرا من رسل الله هؤلاء ، وكلٌّ كان يرسل إلى قومه وأمته ، فكان له عصره الموقوت وناسه المحدودون ·

وظل الأمر كذلك ، حتى استعدت البشرية لتقبل رسالة عامة تظل أبد الدهر · وكانت هذه الرسالة هى الشريعة الإسلامية ، بعد أن استنفدت الشرائع والديانات السابقة أغراضها ، وأصبحت غير وافية بحاجات البشرية ، وغير صالحة لكل عصر ومكان فيما يأتى من الزمان إلى يوم الدين ·

وإذا كانت الرسالة الإسلامية ليس بعدها رسالة إلٓهية أخرى ، وإذا كان رسولها هو خاتم النبيين ، وإذا كان من النتائج المنطقية لذلك أن أرسل للناس كافة - نقول إذا كان الأمر هكذا ، وجب أن يكون ما فيها من تشريعات قد قامت على أسس تجعلها صالحة للناس عامة فى كل مكان وزمان ·

والأمر كذلك حقا ، فإن هذه الشريعة ، بما قامت عليه من أسس قوية ومرنة معا ، صالحة حقا لكل بلد وناس وعصر وآن · ولا نجد هنا ضرورة لتعداد هذه الأسس وشرحها فى تفصيل ، ولهذا نكتفى بالإجمال الذى فيه غناء ، وهذا يكون بالكلام عن هذه الأسس وحدها :

(أ) عدم الحرج ودفع المشقة ·

(ب) رعاية مصالح الناس جميعا ·

(جـ) تحقيق العدل بل العدالة الشاملة ·

وسنتكلم عن كل واحد من هذه الأسس الثلاثة كلمة ، وذلك على هذا الترتيب

عدم الحرجِ :

يقول الله تعالى (سورة المائدة : ٦) : « مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ » ، ويقول (سورة الحج : ٧٨) : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » ، ويقول (سورة الفتح : ١٧) : « لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ » . ويقول : (سورة البقرة : ١٨٥) : « يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ » ، ويقول (سورة النساء : ٢٨) « يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا » .

وهكذا ، نرى من هذه الآيات أن الله ، الرحمن الرحيم ، والعالم بتفاوت الناس صحة ومرضا وقوة وضعفا ، رفع عنا الحرج ودفع المشقة عن الناس جميعا بعامة ، وعن المرضى والمصابين بخاصة .

ولرفع الحرج ودفع المشقة عنا مظاهر كثيرة ، منها ما هو فى العبادات ، ومنها ما هو فى المعاملات ، ومنها ما هو فى العقوبات وما يتصل بها . ولنذكر مُثلاً توضح كلا من هذه النواحى:

ففى العبادات نرى أولا عدم كثرة التكاليف التى جاءت بالقرآن خاصة بها ، حتى صار من اليسير القيام بها دون عنت ولا مشقة . كما نرى إباحة قصر الصلاة حال السفر ، والفطر للصائم إذا كان مريضا أو على سفر ، وهذا ما نجده منصوصا عليه فى القرآن ، وإباحة التيمم بدل الوضوء للصلاة لمن لم يجد الماء أو كان فى استعماله ضرر به ، وتناول المحرم كالخمر ولحم الخنزير عند الضرورة .

بل ، إن الله لم يفرض علينا الصوم إلا شهرا واحدا فى العام ، وهذا لما يعلمه الله فيه من جهد الجسم والنفس ، ومع ذلك أباح الفطر لمن يشق عليه الصوم .

وفى الحج كثير من التكاليف البدنية والمالية ، وفى ذلك بلا ريب مشقة على كثير من الناس ، ولهذا لم يفرضه إلا مرة واحدة فى العمر كله ، ثم لم يفرضه إلا على من استطاع اليه سبيلا (١) .

---

(١) ورد ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم الناس فريضة الحج . فقد سأله رجل ثلاث مرات يقول : كل عام يا رسول الله ؟

والأمر كذلك فى الزكاة ، فلم يفرضها إلا على القادر الذى يفيض ماله عن حاجته ، وجعلها العشر أو نصف العشر فقط ، وهذه نسبة تقل كثيرا عن أنواع من الضرائب التى تجبيها الحكومات الحديثة هذه الأيام (١) .

وفى ناحية المعاملات ، نجد اليسر شاملا ، فليس هناك إجراءات رسمية أو شكلية يجب اتباعها ليكون العقد صحيحا كما كان الأمر عند الرومان ، بل تكفى فى هذا رغبة المتعاقدين فقط كما هو معروف ، ومن ثم لا نجد فى القرآن فى جواز العقود إلا شرط الرضا ، ومصداق ذلك الآية رقم ٢٩ من سورة النساء المدنية التى تقول : « **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ** » فإن كلمة « تجارة » تشمل كل أنواع المعاملات .

ومن باب التيسير فى المعاملات أيضا ، ابتناء كثير من الأحكام على العرف الصحيح نوعا ، وفى هذا ملاحظة لاختلاف العرف والعوائد باختلاف المكان والزمان ، وسيجىء لذلك بيان وتفصيل فى القسم الثانى من الكتاب .

وفى باب العقوبات ، نجد أن منها ما يسمى فى الفقه « بالحدود » وهى عقوبات الزنا والقذف والسرقة وشرب الخمر ، صيانة للعرض والنسل والمال والعقل . وفى هذا ، نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « **إدرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم** » . وفى بعض الروايات : « **ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله ، فإن الامام لأن يخطىء فى العفو ، خير من أن يخطىء فى العقوبة** » .

= والرسول يعرض عنه . فسأله مرة رابعة . فقال الرسول مجيبا له . « لا . والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت ما استطعتم ! ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم » .

وفى هذا نزل. نزل قوله تعالى (سورة المائدة ١٠١ ، ١٠٢ . « يأيها الذين أمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم . وان تسألوا عنها حين ينزل القران تبد لكم . عفا الله عنها والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » .

وللرسول غير هذا . أقوال وأقوال كثيرة تدعو كلها الى التيسير على الناس ودفع المشقة عنهم . وفى هذا ما يدل على ان رعاية التيسير والتخفيف مقصودة من الشارع الحكيم .

(١) وراجع « الموافقات » للشاطبى . جـ ٢ . ١٣٦ وما بعدها . حيث تكلم جيدا عن رفع الحرج فى الشريعة الاسلامية عنا جميعا .

ولذلك ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بلص قد اعترف اعترافا ولم يوجد معه متاع، فقال له: «ما أخالك سرقت»، قال: بلى (أى سرقت). فأعاد عليه مرتين أو ثلاثا، فأمر به فقطع. ولذلك أيضا، يسقط الحد عن السارق لما يقتات به، حفظا لنفسه، إذا كان لا يجد شيئا غيره، وعمن سرق ما يسد حاجته من مال يدعى أن له حقا فيه.

هذا ومن دلائل اعتبار التيسير فى التشريعات من أسس الشريعة الإسلامية، أن الله تعالت حكمته تفضل ورفع عنا تكاليف كثيرة شاقة وعقوبات شديدة ضربها على اليهود جزاء بغيهم وعدوانهم، وفى ذلك نزلت هذه الآيات.

(أ) «فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا» سورة النساء اية ١٦٠

(ب) «وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ (١) وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ» الأنعام ١٤٦

(جـ) «وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ، ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ» الأعراف ١٥٦، ١٥٧

واذا وضعنا هذه الآيات بجانب آية أخرى يخاطب بها رسول المسلمين، وهى قوله تعالى: «قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ»، الزمر ٥٣ نلمس أى رحمة ويسر خص بهما عباده المسلمين المؤمنين به وبما أنزل على رسله!

---

(١) كل ذى ظفر: ما له أصبع او مخلب أو حافر. كالابل والسباع والطيور. والحوايا: الامعاء.

هنا رحمة وسعت كل شىء ، ودعوة إلى التوبة التى تمحو الذنوب ، وهناك أخذ بالعقاب الغليظ المتعدد الألوان ! هنا ، تحليل للطيبات من الرزق ، فلا تحريم إلا للخبائث كالخمر والميتة والخنزير ، ووضع لما كان على اليهود من إصر وأغلال ! وهناك ، هذا الإصر وهذه الأغلال تضرب عليهم فى صور تكاليف ثقيلة وتشريعات شديدة ! فهل بعد هذا يسر وتسهيل !

فقد ذكر المفسرون « للإصْر» معانى كثيرة ، وكلها ترجع إلى الأمر الغليظ الصعب ، فمنها ، أنه المسخ قردة وخنازير ، وأنه الذنب ليس له توبة ولا كفارة(١) وقد بين « الإصر » فى مكان آخر بأنه التشريعيات الشديدة ، وذلك مثل : أن الجزء النجس من الثوب يجب قرضه ، وتحريم الانتفاع بغنائم الحرب ، وتحريم العمل يوم السبت ، وعدم قبول « الدية » بدل القصاص ، والأمر بقتل أنفسهم علامة لتوبتهم (٢) . وهذا كله ، فضلا عن تحريم ما حرم عليهم من لحوم بعض الحيوانات وشحوم بعض آخر على ما ذكر من قبل .

رعاية مصالح الناس جميعا :

إنه ليكفينا هنا أن نرجع إلى ما ذكرنا من قبل عن « نزعة الفقه الجماعية » ، ففيه غناء أى غناء ، فى بيان مقصد التشريع الإسلامى الأول ، وهو تحقيق المصالح الحقيقية للناس عادة ، لا فرق بين جنس وجنس وأمة وأخرى . ومن ثم جاء فى القرآن الكريم أنه أنزل رحمة للعالمين ، مادام رسوله كان رسولا للناس كافة .

وهنا ، يظهر فرق واضح بين التشريع الإسلامى وبين القانون الوضعى لهذه الدولة أو تلك من دول الأرض جميعا . أن كلا منهما يسرى فى حق جميع المخاطبين بأحكامه . ولكن المخاطبين بأحكام القانون محدودون بحدود الإقليم ، أو بجنس الدولة التى يعتبر القانون قانونا لها ، على حين أن الأمر ليس كذلك فى الشريعة الإسلامية .

---

(١) تفسير القرطبى . جـ ٣ : ٤٣٠

(٢) نفسه حـ ٧ / ٣٠٠ ومن المفهوم أن الامر على غير ذلك كله فى شريعتنا السمحة المعتدلة .

ذلك بأن مبدأ سريان القانون حتى يعم جميع المخاطبين به ، يكون على أحد هذين النوعين

(أ) سريان اقليمى ، وهو ما يعبرعنه بمبدأ اقليمية القانون Territorialité de la loi فيطبق على كل المقيمين فى هذا الاقليم من وطنيين وأجانب . ولا يطبق على من يوجد خارجه وإن كان مواطنا .

(ب) سريان شخصى ، وهو ما يعرف بمبدأ شخصية القانون Personnalité de la loi فيطبق على كل المواطنين حتى من كانوا خارج الوطن ولا يطبق على الأجانب المقيمين فى الوطن (١).

أما الأمر فى التشريع الإسلامى ، فهو مختلف عن ذلك تماما الا فى بعض الحالات المستثناه ، وهذا من ناحيتين :

(أ) أن المسلمين جميعا مخاطبون بالتشريع الإسلامى ، مهما كانوا فى أى بلد من بلاد الله ، وهذا ما يخرجه عن نطاق « الإقليمية » ، وذلك لأن الاسلام يعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة بنص القرآن ، وإن تعددت أوطانهم التى استخدمت أخيرا (٢) .

(ب) وبالنسبة لغير المسلمين ، نرى أن الفقهاء قد اختلفوا فى مسألة هل يعتبر « الكفار » مخاطبين بأحكام الإسلام من الإيمان والعبادات والعقوبات ، أم غير مخاطبين بها جميعا ، أم هم مخاطبون بالبعض دون البعض . وفى هذا يذكر ابن عابدين ما نصه .

« الرأى المحرر فى المنار وشرحه لصاحب البحر أن الكفار مخاطبون بالايمان وبالعقوبات سوى حد الشرب (لاعتقادهم حل الخمر) والمعاملات . وأما العبادات فقال السمرقنديون أنهم غير مخاطبين بها آراء واعتقادا ، وقال البخاريون أنهم غير مخاطبين بها أداء فقط ، وقال العراقيون انهم مخاطبون بهما

---

(١) راجع الدكتور حسن كيره . محاضرات فى المدخل للقانون . ص ٢٦٨ وما بعدها . ومن المعروف ان القاعدة فى القانون المصرى هى الاقليمية للتطبيق . ما عدا بعض مستثنيات .

(٢) وفى هذا جاء قوله تعالى (سورة الانبياء ، ٩٢ . « ان هذه امتكم امة واحدة . وانا ربكم فاعبدون » .

(أى بالاداء والاعتقاد) فيعاقبون عليهما ، وهو المعتمد) ثم ذكر بعد ما تقدم بسطر واحد : « وحاصله ، أن لهم حكمنا فى العقوبات والمعاملات إلا ما استثنى ، دون الإيمان والعبادات ، فلا نطالبهم بهما وإن عوقبوا عليهما فى الآخرة » (١) .

والنتيجة لهذه الناحية وتلك ، أن التشريع الإسلامى يعتبر ساريا فى حق جميع المخاطبين به سريانا اقليميا وشخصيا معا ، إلا بعض ما استثنى وهو قليل .

واذا كان الأمر كذلك ، كان من الطبيعى أن يستهدف هذا التشريع مصلحة الناس كافة ، لا فرق بين أجناسهم وأديانهم ، وفى هذا يقول الإمام الشاطبى :

« إننا وجدنا (بالاستقراء) الشارع قاصدا لمصالح العباد ، والأحكام العادية (أى أحكام المعاملات) تدور معه حيثما دار . فترى الشىء الواحد يمنع فى حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز ، كالدرهم بالدرهم إلى أجل يمتنع فى المبايعة ، ويجوز فيه القرض ، وبيع الرطب باليابس (كالتمر) مثلا يمتنع حيث يكون مجرد غرر وربا من غير مصلحة ، ويجوز إذا كان فيه مصلحة راجحة » إلى آخر ما قال (٢) .

ومن المعروف أن المصالح تتضارب كثيرا ، فربما كان الخير لهذا فى ضرر يصيب ذاك ، وهنا بينت الشريعة أنه يجب فى هذه الحالات تقديم المصلحة العامة على الخاصة ، وأن الضرر الأكبر يجب أن يزال بالضرر الأدنى ، وفى هذا وذاك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » . ولكل من هاتين القاعدتين تطبيقات كثيرة ، وقد ذكرنا بعضها فى بحث « نزعة الفقه الجماعية » .

ونذكر من باب التطبيق أيضا : إباحة نزع ملكية بعض الناس ، توسعه لطريق أو مجرى أو غير هذا وذاك من المنافع العامة ، وإيجاب نفقة القريب المحتاج على قريبه ، وإكراه المدين الموسر على الوفاء بدينه ولو بالحبس ، وفرض الزكاة حقا معلوما فى أموال الأغنياء للسائل والمحروم من الناس .

---

(١) حاشية ابن عابدين . جـ ٣ / ٢٢٩ .
(٢) الموافقات جـ ٢ / ٣٠٥

ومن باب التطبيق كذلك لهاتين القاعدتين ، ولقواعد عامة أخرى قام عليها التشريع الإسلامى يجىء ذكر بعضها فيما بعد ، كان تحريم الربا والقمار ، وشرب الخمر ، والخداع والتغرير فى المعاملات ، وأمثال هذا كله ، وذلك حفظا للمال والعقل وتدعيما للأخوة بين المسلمين والآخذين بهذه الشريعة العامة للناس جميعا ٠

تحقيق العدل للناس عامة :

ما ينبغى لنا أن نقف هنا طويلا ، فإنه ليس كالشريعة الإسلامية رعاية للعدالة لا للعدل فقط ، ولم ترع هذا للمسلمين وحدهم ، بل للناس كافة حتى للأعداء وإن كانوا فى حالة حرب فعلية معنا ٠ فإن هذه الشريعة قد بينت حقوق الفرد والجماعة أيا كان ذلك الفرد وهذه الجماعة ، وعملت بأحكامها على صيانة هذه الحقوق لأربابها ، وبذلك أصبح الكل آمنا على نفسه وماله وجميع حقوقه ٠

والقرآن الكريم ـ وكذلك سنة الرسول العظيم طبعا ـ حافل بالآيات التى ورد فيها الحث على العدل والأمر به والوعد بالإثابة عليه ، والآيات الأخرى التى ورد فيها تحريم الظلم والتنفير منه والتوعد بالعقاب عليه ٠ والذى يقرأ القرآن لهذه الناحية ، يرى أنه أتى فيه كلمة « عدل » ومشتقاتها بالمعنى الذى نريد نحو ٢٠ مرة وكلمة « ظلم » ومشتقاتها نحو ٢٩٩ مرة ٠ كما أتت فيه كلمة « عدوان » ثمانى مرات ! وكلمة « اعتدى » ومشتقاتها نحو ٢٠ مرة !

ولنأت الآن ببعض هذه الآيات الآمرة بالعدل مع الأولياء والأعداء على حد سواء :

(أ) « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » النحل ٩٠

(ب) « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » النساء ٥٨

(جـ) « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ » (١) النساء ١٣٥

(د) « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ » المائدة ٨

ومن هذه الآيات ، ترى مقدار حرص القرآن على اقامة العدل وعدم التقصير فيه ، ولو اقتضانا ذلك أن نشهد به على أنفسنا وأقرب الناس إلينا ، وعلى ألا يدفعنا بغض قوم على عدم الغدل اليهم . وذلك لأن العدل هو الأساس المتين الذى لا تقوم الحياة والعالم بدونه .

هذا ، ونختم الحديث هنا بإيراد ملاحظتين ، وبهما ينتهى هذا الفصل ، وهما :

الأولى - أن الشريعة التى تقوم على فكرة العدل الكامل على هذا النحو ، يجب آن تكون شريعة مثالية تنظر الى الناس جميعا نظرة واحدة ، فهم أمامها سواء لا فرق بين سيد ومسود ونبيل ووضيع ، ومن ثم ، فهى تعدل بينهم فى أحكامها ، هذه هى الشريعة الإسلامية .

إن هذه الشريعة لا تنظر بحال ما إلى نبالة المولد ، ولا إلى وجاهة الغنى والثروة ، بل هى لاتعرف ميزانا يتفاضل به الناس إلا التقوى والعمل الصالح ، وفى هذا يقول القرآن العظيم : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ » الحجرات ١٣ ، ويقول الرسول المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم : « **لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى** » .

أمام هذه الشريعة ليس الا العدل المطلق بقدر ما يتاح لبشر ، سواء فى ذلك ما يقتضى الثواب أو ما يقتضى العقاب . ومن ذلك أن أسامة بن زيد حب الرسول صلى الله عليه وسلم شفع لديه فى المرأة المخزومية ، التى سرقت ، مدفوعا

---

(١) اى كراهة ان تعدلوا

من قريش ، فقال الرسول : « يا أسامة : أتشفع فى حد من حدود الله ؟! ثم قام فقال : إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

والثانية ــ أن القانون الوضعى يقتصر مبدئيا على مجرد تحقيق العدل ، La justice، لا العدالة L'equité ، لأن العدل يقتضى المساواة فى الأحكام على أساس الوضع الغالب فى الحياة ، من غير اعتداد بتفاوت الظروف أو اختلاف الجزئيات فى الحالات المتماثلة ، على حين أن العدالة تقتضى المساواة المجسمة الواقعية فى المعاملة للحالات المتماثلة إذا تماثلت فى ظروفها وجزيئاتها الواقعية وهذا النوع من المساواة لا يستطيع واضع القانون تحقيقها ، لأنه لا يستطيع قبل وضعه للقواعد القانونية التنبؤ مقدما بتلك الظروف أو الجزئيات الواقعية لكل من تلك الأوضاع والحالات المستقبلية (١) .

هذا بينما واضع التشريع الاسلامى فى أسسه وقواعده العامة وفى كثير من أحكامه التفصيلية ، هو الله العليم بكل شىء والخبير بكل ما كان ويكون إلى آخر الدهر ، فهو بلا ريب قادر على تحقيق العدل والعدالة معا .



(١) الدكتور حسن كيره ، محاضرات فى المدخل للقانون ، ص ١٤ ــ ١٥

الفصل الثالث

مستقبل التشريع الإسلامي

ماذا نريد من هذا التشريع ؟ حاله بالأمس القريب ، حاله اليوم ، كيف نصل لما نريد ؟ واجبنا فى هذا السبيل .

ماذا نريد من هذا التشريع ؟

والآن ماذا نريد من هذا التشريع الاسلامى الذى عرفنا الكثير عنه ، والذى به صلحت أمة عظيمة سادت البشرية قرونا طويلة ؟ إننا لانريد إلا شيئا واحدا ، لنا الحق كل الحق فى أن نريده ، بل يجب علينا أن نريده ونعمل ونجاهد فى سبيله ، وهو أن يكون هذا التشريع الإسلامى الأساس الأول لتشريعاتنا ولكل ماتؤخذ به الأمة من قوانين . ولا علينا مع هذا أن نفيد من كل خير نجده فى التفكير القانونى لأى أمة من الأمم ، بل لعل هذا يكون واجبنا ، فما كانت أمة لتستغنى عن غيرها فى كل شئونها .

وإننا حين نريد هذا ، لانريد بدعا من الأمر ، فإنه ليس الا مظهرا من مظاهر الاستقلال الذى تحرص عليه كل أمة ، وأنه ليس أضر من الاستعمار الفكرى والتبعية القانونية من أمة لأخرى .

إن من المسلم به أن القانون هو أساس النظم التى يقوم عليها بناء الأمة ، وليس من الرشد أن تقيم أمة نظمها على أساس مستعار من أمة أخرى ، وهو مع هذا قد لايتفق ودينها وماضيها وتقاليدها الطيبة .

وإنا لنعلم تماما أن هذا الذى نريد أن يتحقق مرة واحدة وفى زمن قريب ، فقد نمنا زمنا طويلا ركد فيه الفقه الإسلامى وجمد على حالة واحدة ، فلا بد من زمن نفيق فيه من هذا النوم الذى طال أمده ، ولا مناص من زمن يطول أو يقصر

يتطور فيه هذا الفقه ليكون منه حلول لكل مشاكل العصر التى تجد وتتغير من حين إلى حين ، وهذا مايحتاج منا إلى عمل جاد متواصل .

وما ينبغى لنا أن نجبن أمام ما يقتضيه تحقيق ما نريد من جهد شاق وعمل ضخم ، ولا أن نيأس إن طال بنا الزمن في جهادنا هذا . ونظرة إلى ما كان عليه هذا الفقه الإسلامى بالنسبة للقانون الوضعى بالأمس القريب ، ثم إلى ما صار عليه اليوم ، تقنعنا بما نقول وتجعلنا نسير مطمئنين إلى ما نريد وسيكون إن شاء الله تعالى .

حال الفقه بالأمس القريب :

حالة الفقه ، من الوجهة الرسمية ، بالأمس القريب لاتزال ماثلة أمام أعيننا بواقعها وآثارها - فقد نحى عن الحكم والقضاء - إلا فيما سموه « الأحوال الشخصية » من الزواج والطلاق والوصية والميراث - والإدارة وسياسة الدولة بعامة . فكان أن انزوى بين جدران الأزهر والمعاهد التى تفرعت عنه ، وصار لا يعنى بدراسته أحد دراسة علمية جدية ، مادام لا حاجة إليه فى القوانين الرسمية وتطبيقها فى غير المحاكم الشرعية !

وكان ذلك كله ، بعد أن أخذنا القوانين الفرنسية قوانين لنا وسميناها القوانين الأهلية ، وحدث هذا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد صدرت « المجموعة الأهلية » عام ١٨٨٣ م ، وسنت على نسق « المجموعة المختلفة » وجاء فيها أكثر أحكامها (١) .

صرنا إذا ، فى هذه الفترة - بعد أن تركنا فقهنا الإسلامى الأصيل - لا نعنى إلا بفقه أجنبى دخيل ، أو فقه يحتله الأجنبى إذا أردنا التخفيف من الواقع قليلا واصطنعنا تعبير الأستاذ الدكتور السنهورى ، فقد كتب منذ عشرين عاما يقول « علينا أولا أن نمصر الفقه ، فنجعله فقها مصريا خالصا نرى فيه طابع قوميتنا ، ونحس أثر عقليتنا . ففقهنا اليوم لايزال هو أيضا يحتله الأجنبى ،

---

(١) راجع الحقوق العينية الأصلية ، للاستاذ الدكتور محمد كامل مرسى ، جـ ٢ : ٩٥

والاحتلال هنا فرنسى ، وهو احتلال ليس بأخف وطأة ولا بأقل عنتا من أى احتلال آخر . لا يزال الفقه المصرى يتلمس فى الفقه الفرنسى الهادى المرشد ، لا يكاد يتزحزح عن أفقه أو ينحرف عن مسراه ، فهو ظله اللاصق وتابعه الأمين »

حاله اليوم :

ذلك ماكان عليه الفقه رسميا بالأمس القريب كما ذكرنا ، أما اليوم فنرانا خطونا خطوة كبيرة فى سبيل الغرض الذى نقصد . ولهذه النقلة أسبابها ، كما أن لها مظاهرها ، وسنتناول كلا من هذه الأسباب والمظاهر بكلمة موجزة .

أحست الأمة إحساسا شديدا بشدة وطأة الاحتلال الأجنبى ومعرته ، وسواء فى هذا الاحتلال العسكرى والاحتلال الفكرى ، فهبت جميعا تطلب الاستقلال فى كل شىء ، وطالبت بهذا بكل وسيلة ، وعملت له بما تملك من قوى . ونبغ من رجال القانون من رأى أنه آن للقانون الذى نحكم به أن يكون مصريا (وليتهم قالوا : أن يكون إسلاميا) [١] يتفق مع قوميتنا وعقليتنا ، وعلموا لهذا الاستقلال بالطرق التى رأوها صالحة ناجعة فى رأيهم . يقول : وإن الإجرام

وصحب هذا ، أن وجد « وعى قومى » أخذ يشتد من يوم لآخر ، كما أخذ يطالب أخيرا بقوة ، بضرورة أن يكون الحكم بقوانين مأخوذة من الشريعة الإسلامية ، لأن « الإسلام دين ودولة » ودنيا وأخرى ، وذلك لما جاء به من قوانين صالحة لحكم الجماعة والإنسانية فى مختلف شئونها .

ولاعجب أن ننادى بهذا ، ففى الإسلام ـ بتشريعاته ونظمه ـ مايغنينا عن الأخذ دائما عن الغرب من غير ضرورة ، وفى ذلك يقول المغفور له الأستاذ حسن البنا فى رسالة عنوانها : إلى أى شىء ندعو الناس ، يقول :

« وإن لكل أمة قانونا يتحاكم إليه أبناؤها ، وهذا القانون يجب أن يكون مستمدا من أحكام الشريعة الإسلامية ، مأخوذا عن القرآن الكريم ومتفقا مع أصول الفقه الإسلامى . وأن فى الشريعة الإسلامية ، وفيما وضعه المشرعون المسلمون ،

---

(١) الوسيط ص / هـ من الكلمة الافتتاحية .

ما يسد الثغرة ويفى بالحاجة وينقع الغلة ، ويؤدى الى أفضل النتائج وأبرك الثمرات ·

وإن فى حدود الله ـ لو نفذت ـ لزاجرا يردع المجرم وإن اعتاد الاجرام ، ويكف العادى وإن تأصل فى نفسه العدوان ، ويريح الحكومات من عناء التجارب الفاشلة · وإن التجربة تثبت ذلك وتؤيده ، وأصول التشريع الحديث تنادى به وتدعمه ، والله تبارك وتعالى يفرضه ويوجبه »

وهناك سبب ثالث نعتقد أنه دفع بعض رجال القانون عندنا إلى تقدير الفقه الإسلامى ، والأخذ فى العناية به والإفادة منه ، ونعنى به اهتمام كثير من رجال القانون بهذا الفقه والإشادة به فى كثير من مؤتمراتهم فى « لاهاى » و « نيس » و « باريس » مثلا ·

واهتمام الغربيين بالتراث الإسلامى المجيد يرجع إلى العصور الوسطى ، حين أرادوا معرفة عوامل مجد المسلمين ووصولهم إلى مركز القيادة فى العالم الذى كان معروفا حينذاك (١) ، فأقبلوا على هذا التراث دراسة وإفادة وترجمة ونشرا لكثير من عيون مراجعه الأصيلة ·

وكان من آثار هذا الاهتمام الذى لا يزال مستمرا حتى اليوم ، أن ظفرنا بكثير من هذه المراجع منشورة بعناية هؤلاء المستشرقين ، وأن ظفر العلم أيضا بكثير من مؤلفاتهم ودراساتهم الخاصة القيمة فى الفقه وغير الفقه من جوانب ثقافة الإسلام وحضارته ·

نريد أن نقول بأن هذه العناية من جانب الغربيين الذين تخصصوا فى الفقه الإسلامى وقصروا جهودهم عليه ، وبأن ما كان منهم ـ ولا يزال ـ من إشادة به باعتباره فقها أصيلا حيا وقابلا للتطور ومسايرة الحياة الحاضرة ، وللإسهام فى تقدم الفقه العالمى ، ربما دفع الكثير من رجال القانون عندنا للإيمان به وللإقبال على دراسته والانتفاع به ·

---

(١) على انه قد يكون من بواعث هذا الاهتمام فى القرن التاسع عشر الى اليوم بخاصة . ما يرجع الى الناحية الاستعمارية . رغبة فى معرفة ماضى البلاد التى نكبت باستعمارهم وحاضرهم . ولكن تحقيق هذا ليس من قصدنا الآن .

تلك هى جماع الأسباب التى أدت إلى أن خطونا خطوة واسعة مباركة فى سبيل تحقيق الغرض المنشود ، وهو العناية بالفقه الإسلامى ودراسته وجعله الأساس الأول لتشريعاتنا الحديثة ، تحقيقا لاستقلالنا الذى نحرص عليه أشد الحرص . أما مظاهرة هذه الخطوة أو النقلة ، فإننا نستطيع أن نجملها فى هذه الأمور :

(أ) اتجاه غير قليل من طلاب القانون ورجاله لكتابة بحوث ورسائل دكتواره فى مواضيع من الفقه الإسلامى ، أمثال الدكتور شفيق شحاته فى « نظرية الالتزامات فى الشريعة الإسلامية » ، والدكتور السعيد مصطفى السعيد فى « مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به الشريعة الاسلامية والقانون المصرى الحديث » ، والدكتور صبحى محمصانى فى « النظرية العامة للموجبات والعقود فى الشريعة الإسلامية » ، والدكتور محمد زكى عبد البر فى « تحمل التبعة فى الفقه الاسلامى » .

وذلك إلى مؤلفات وبحوث أخرى ، مثل « التشريع الجنائى الإسلامى » ، و « الإسلام وأوضاعنا القانونية » ، وكلاهما للاستاذ عبد القادر عوده ، إلى غير هذا وذاك من الرسائل والمؤلفات والبحوث المختلفة .

(ب) جعل الفقه الإسلامى مصدرا رسميا من مصادر القانون المدنى الجديد ، ولهذا أثره الطيب بلا ريب من ناحيتين ، التوسع فى الأخذ منه ، وأن دراسته أصبحت واجبة على رجال القانون والقضاء .

وعن الناحية الأولى ، يقول الدكتور السنهورى بعد أن أشار إلى ما استبقاه القانون الجديد مما كان أخذه القانون القديم من الفقه الإسلامى .

« وقد استحدث التقنين الجديد أحكاما أخرى استمدها من الفقه الإسلامى ، وبعض هذه الأحكام الجديدة هى مبادىء عامة ، وبعضها مسائل تفصيلية . فمن المبادىء العامة التى أخذ بها النزعة الموضوعية التى نراها تتحلل كثيرا من نصوصه ، وهذه هى نزعة الفقه الإسلامى والقوانين الجرمانية ، آثرها التقنين الجديد على النزعة الذاتية التى هى طابع القوانين اللاتينية ، وجعل الفقه الإسلامى عمدته فى الترجيح .

ومن هذه المبادىء أيضا ، نظرية التعسف فى استعمال الحق ، لم يأخذها التقنين الجديد عن القوانين الغربية فحسب ، بل استمدها كذلك من أحكام الفقه الإسلامى . ولم يقتصر فيها على المعيار الشخصى الذى اقتصرت عليه أكثر القوانين ، بل ضم إليها معيارا موضوعيا فى الفقه الإسلامى يقيد استعمال الحق بالمصالح المشروعة ، ويتوقى الضرر الجسيم الذى قد يصيب الغير من استعماله .

وكذلك الأمر فى حوالة الدين ، أغفلتها القوانين اللاتينية ، ونظمتها القوانين الجرمانية متفقة فى ذلك مع الفقه الإسلامى ، فأخذ بها التقنين الجديد . ومبدأ الحوادث الطارئة imprévision أخذ به بعض التقنينات الحديثة ، فرجح التقنين الجديد الأخذ به استنادا إلى نظرية الضرورة ونظريـة العذر فى الفقه الإسلامى

ومن الأحكام التى استحدثها التقنين الجديد مسائل تفصيلية كما قدمنا ، وقد اقتبسها من الفقه الإسلامى . ومن هذه المسائل الأحكام الخاصة بمجلس العقد ، وبايجار الوقف ، وبالحكر ، وبإيجار الأراضى الزراعية ، وبهلاك الزرع فى العين المؤجرة ، وبانقضاء الإيجار بموت المستأجر وفسخه للعذر ، وبوقوع الابراء من الدين بإرادة الدائن وحده (١) .

وعن الناحية الثانية ، وهى ناحية ضرورة التوسع فى دراسة الفقه الإسلامـى بعد أن صار المصادر الرسمية للقانون الجديد ، نرى الأستاذ السنهورى أيضا يقول

« ولاشك فى أن ذلك يزيد كثيرا فى أهمية الشريعة الاسلامية ويجعل دراستها دراسة علمية فى ضوء القانون المقارن أمرا ضروريا لا من الناحية النظرية الفقهية فحسب ، بل كذلك من الناحية العملية التطبيقية . فكل من الفقيه والقاضى أصبح الآن مطالبا أن يستكمل أحكام القانون المدنى ، فيما لم يرد فيه نص ولم يقطع فيه عرف ، بالرجوع الى أحكام الفقه الإسلامى .

ويجب عليه أن يرجع إلى هذه الأحكام قبل أن يرجع إلى مبادىء القانون

---

(١) الوسيط . ٤٧

الطبيعى وقواعد العدالة ، بل لعل أحكام الشريعة الاسلامية ، وهى أدق تحديدا وأكثر انضباطا من مبادىء القانون الطبيعى وقواعد العدالة ، هى التى تحل محل هذه المبادىء والقواعد ، فتغنينا عنها فى كثير من المواطن » (١) .

(جـ) ونذكر أخيرا من هذه المظاهر ، أن فكرة أن يكون الفقه الاسلامى هو الأساس الأول لكل قوانيننا وتشريعاتنا الحديثة قد « تبلورت » فى أذهان كبار رجال القانون ، وأخذت مكانها اللائق بها فى تفكيرهم وفى كتاباتهم ، وكان من هذا أن رأينا الدكتور السنهورى يقول فى بحث آخر له ما ننقله كذلك حرفيا (٢) :

« والهدف الذى نرمى اليه هو تطوير الفقه الاسلامى ، وفقا لأصول صناعته ، حتى نشتق منه قانونا حديثا يصلح للعصر الذى نحن فيه .. وليس القانون المصرى الجديد أو القانون العراقى الجديد الا قانونا مناسبا فى الوقت الحاضر لمصر أو العراق .

والقانون النهائى الدائم لكل من مصر والعراق ، بل ولجميع البلاد العربية ، انما هو « القانون المدنى » الذى نشتقه من الشريعة الاسلامية بعد أن يتم تطورها . وقد تكون البلاد العربية عند ظهور هذا القانون قد توحدت ، فيأتى القانون ليدعم وحدتها ، وقد تكون فى طريقها الى التوحيد ، فيأتى القانون عاملا من عوامل توحيدها ، ويبقى على كل حال رمزا لهذه الوحدة » (٣)

كيف نصل إلى ما نريد ؟

من الأقوال المأثورة أنه ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، وأنه ما نيل الأمانى بالتمنى وحده ، ولكن بأن تشتد الأمنية فتصير رغبة ، وأن تشتد هذه الرغبة

---

(١) الوسيط . ص ٤٨

(٢) وذلك بعد ان قرر ان الفقه الاسلامى لا تقل عراقته عن عراقة القانون الرومانى وهو لا يقل عنه فى دقة المنطق ومتانة الصياغة والقابلية للتطور وهو مثله صالح أن يكون قانونا عالميا بل كان بالفعل قانونا عالميا يوم امتدت دولة الاسلام من اقاصى البلاد الاسيوية الى ضفاف المحيط الاطلسى وهذا الفقه الاسلامى اذا احييت دراسته وانفتح فيه باب الاجتهاد قمين ان ينبت قانونا حديثا لا يقل فى الجدة ومسايرة العصر عن القوانين اللاتينية والجرمانية .

(٣) راجع العالم العربى مقالات وبحوث . الكتاب الثانى . بحث القانون المدنى العربى ص ٢٨ ـ ٢٩ . نشر الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية . مطبعة مصر عام ١٩٥٣ م .

بالعزم الصادق عليها فتصير ارادة . ولا يصل الانسان الى أن يريد شيئا الا إن فكر فيه ورآه ممكنا ، ثم أجمع أمره عليه وأخذ فى تذليل ما يعترضه من صعاب أو عقبات .

وهنا ، نحن نريد أن يكون الفقه الاسلامى فى مستقبل الأيام الأساس الأول لتشريعنا وأن يكون لنا منه قانون عربى أو اسلامى عام للبلاد العربية الاسلامية كلها . وهذا الذى نريد أمر عظيم دونه صعاب ، وهو يتطلب منا عملا جادا دائبا ، فما ينبغى لنا ـ اذا ـ أن نخدع أنفسنا بأن نزعم أننا نريد ، ثم لا نعمل ما يجب أن نعمل ليكون ما نريد أمرا واقعا فى مستقبل الأيام .

إن هذه الغاية التى يرجو كل مسلم الوصول اليها ، تلقى علينا ـ معشر رجال الفقه والقانون ـ تبعات ثقالا ، وتتطلب من كل فريق منا أن يقوم بواجبه كاملا فى هذا السبيل .

إن علينا ، معشر المعنيين بالشريعة الإسلامية ، بيان هذا الفقه فى مراجعة الأولى الأصيلة ، وهذا لا يتأتى الا بنشر هذه المراجع نشرا علميا ييسرها للباحثين . ثم علينا بعد ذلك نشر أمهات الكتب الفقهية الأخرى التى جاءت فى العصور التالية ، فلا نقتصر منها على مذهب واحد أو على المذاهب الأربعة المعروفة ، بل علينا أيضا عرض المذاهب الأخرى ، مثل مذهب الزيدية ومذهب الإمامية من مذاهب الشيعة ، والمذهب الظاهرى . ففى هذه المذاهب الأخرى كنوز من الثروة الفقهية ، وفيها كثير ينفعنا فى نهضتنا التشريعية والاجتماعية (١)

ومتى تم لنا معرفة الفقه الاسلامى فى مختلف مذاهبه ، كان علينا أن ندرسه على نحو جديد غير النحو الذى يدرس عليه الفقه فى الأزهر ، نعنى الدراسة التاريخية المقارنة ، بين بعضها البعض من ناحية ، وبينها وبين ضروب الفقه والقوانين الحديثة من ناحية أخرى .

---

(١) وفى هذا يقول الاستاذ السنهورى : (هذه هى الشريعة الاسلامية . لو وطئت اكنافها وعبدت سبلها . لكن لنا فى هذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وفى قضائنا وفى تشريعنا ثم لاشرفنا نطالع العالم بهذا النور الجديد فنضىء به جانبا من جوانب الثقافة العالمية فى القانون » من الكلمة الافتتاحية لكتاب النظرية العامة للالتزامات الجزء الاول فى نظرية العقد . ص و .

إن هذه الدراسة ـ كما قلنا من قبل فى بعض ما كتبناه (١) تساعدنا على التحرر من ربقة التقليد الذى أخذ منا بالخناق وتجعلنا نعرف يقينا أن الله لم يخص بالحق كله فقيها أو مذهبا واحدا بعينه ، ونقدم مادة خصبة للذين يقومون بالقوانين الوضعية الحديثة ، وذلك ما يعرفهم بما للفقه الاسلامى من منزلة كبرى ، فيفيدون منه أجل فائدة حتى يكون المصدر الرسمى الأول لما يضعون من قوانين

فضلا ، عن أن هذا النوع من الدراسة يرسم لنا لوحة أمينة صادقة لجهود العقل الإنسانى فى هذه الناحية ، ولتطور الفكر العالمى فيما يتصل بالتشريع والتقنين ليتناسب مع مايجد للناس من مشاكل الحياة العملية وأحوالها العديدة المختلفة ، وسواء فى ذلك جهود الفقهاء فى الشرق والغرب من المسلمين وغير المسلمين ·

هذا ما قلناه منذ أكثر من عامين ، ونزيد عليه اليوم أن على رجال القانون واجبا لا يقل جهدا ولا خطرا مما على رجال الفقه · عليهم أن يعاونوا زملاءهم في دراسة الفقه الإسلامى فى سائر نواحيه وقد ذكرنا فيما سبق ـ فى البحث الخاص بفروع الفقه وفروع القانون ـ أن هذا الفقه يشتمل على كل النواحى التى يدرسها القانون بقسيمة « العام والخاص » وبسائر فروعه ·

وبذلك التعاون والدرس المشترك ، يتبين للمشتغلين بالقانون أن فى التراث الفقهى الاسلامى ما يغنينا فى نواح كثيرة عن الأخذ عن الفقه والقوانين الأجنبية ، وأنه من الميسور أن نشتق من هذا الفقه قانونا عاما صالحا لجميع البلاد العربية لإسلامية ، ونعتقد أن هذا ما سيكون فى يوم ليس بعيدا إن شاء الله تعالى ، ما دمنا نطلبه ونريده ونعمل له متعاونين بكل سبيل ·

لابد من الاجتهاد :

ومع هذا وذاك كله ، لابد من فتح باب الاجتهاد فى الفقه للقادر عليه ، فما تخلف الفقه الإسلامى عن القافلة إلا بسبب سد هذا الباب منذ قرون · ونحن نعلم أن الاعتزاز بتراث الماضين من الأسلاف أمر طبيعى وغرزى فى الإنسان ، وأنه

(١) الأموال ونظرية العقد فى الفقه الاسلامى ، ص ٥ ـ ٦

من العبث والحمق أن نحاول التنكر لهذا التراث والاستغناء عنه ، وأنه من المستحيل أن نقيم علما من العلوم دون أن نفيد من جهود الماضين وثمار تفكيرهم فى دائرة هذا العلم ·

ولكنا نعلم مع هذا ، أن الجمود من سمات الموت ، وأن الحركة هى الخاصة الأولى للحياة ، وأن القرآن العظيم نعى فى كثير من آياته على التقليد والمقلدين وقد نهى الأئمة أنفسهم رضوان الله عليهم عن تقليدهم بلا حق ، وقد نقل هذا النهى عن ابى حنيفة وغيره ، ومن ذلك قول الشافعى : مثل الذى يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة من حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدرى » ! ويذكر اسماعيل بن يحيى المزنى فى أول مختصره فى الفقه ، بأنه اختصر من علم الشافعى ليقربه على من أراده ، مع إعلامية نهيه عن تقليده وتقليد غيره ، لينظر فيه لدينه ويحتاط لنفسه (١).

وليس لأحد منا أن يخلط بين التقليد المنهى عنه ، وبين الاتباع الذى أثنى الله عليه بقوله : « وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ » التوبة ١٠٠ فيقول بأن فى التقليد اتباعا يرضاه الله جل ثناؤه نعم ! ليس لنا ان نلجأ لمثل هذا القول ، فان اتباع الجلة من المهاجرين والأنصار ـ فى هذه الناحية ـ هو احتذاؤهم فى طرق اتسدلالهم واستنباطهم الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، والفرق كبير بين هذا وبين التقليد !

وقد ذكرأبوداود أنه سمع الإمام احمد بن حنبل يقول : « الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم هو من بعد فى التابعين مخير » · كما أنه قال أيضا : « لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الثورى ولا الأوزاعى ، وخذ من حيث أخذوا (٢) فأين هذا مما نحن عليه اليوم من تقليدنا غير قليل من الفقهاء المتأخرين زمنا ، وجعل آرائهم شرعة واجبة الاتباع ·

على أن للمسألة وجها آخر يوجب علينا الاجتهاد للقادر عليه ، والا كنا آثمين

---

(١) اعلام الموقعين ، جـ ٢ ، ١٣٩

(٢) اعلام الموقعين . جـ ٢ ، ١٣٩ ـ ١٤٠ .

فى حق الفقه والأمة . إن فقهاءنا الماضين رضي الله عنهم وأثابهم خيرا كثيرا ، قد نظروا لدينهم وأمتهم وأنفسهم ، وبحثوا عن حكم الله فى كل ما كان فى أيامهم من حوادث ونوازل ومسائل ومشاكل ، فما جبنوا عن مواجهة شيء منها ، ولا قصروا فى بيان حكم الله ورسوله فيها .

ولكن الزمن يتغير ، والمعاملات تجد وتتطور ، فكان أن وجد منها اليوم مالم يكن موجودا بالأمس ، فليس لنا أن نمسك عن بيان حكم الفقه فى كل منها متعللين بأن الفقهاء الماضين لم يتكلموا فيها ، بل علينا أن نجتهد فى ذلك مستفيدين من جهود الماضين ، ومعتمدين قبل كل شيء على كتاب الله المحكم وسنة رسوله الصحيحة .

إن علينا ، اذا ، أن نجتهد فى بيان حكم الله فى هذه المسائل ونحوها ؛ المعاملات التى جدت فى سوق العقود ، وبخاصة ما يتصل منها بالقطن وغيره من المحاصيل الزراعية ، والأعمال التى تقوم بها البنوك العادية (١) ، وبنوك التسليف الزراعى والصناعى ، والأعمال التى تقوم بها الجمعيات التعاونية ، مثل إقراض الزراع مثلا ما يحتاجون اليه لزراعاتهم ، وأمور الاقتصاد وسياسة المال ، والشركات بأنواعها المختلفة ، وبخاصة شركات التأمين بمختلف ضروبها وتنوع ميادينها ، وسياسة الحكم وأصوله ، وعلى أى النظم والقواعد يجب أن يكون حكم الأمة ، الى غير ذلك كله من شئون الحياة ، هذه الحياة التى لا تعرف الجمود ولا الوقوف .

ولكن ، لكى نخرج من هذا بنتيجة عملية فى هذه الناحية ، يجب ان يكون لنا مجمع للفقه والشريعة الاسلامية ، بجانب مجمع اللغة الذى يؤدى للغة القرآن خدمات جليلة حقا ، غير أن حاجاتنا لمجمع الفقه أشد بلا ريب .

وذلك بأن المسائل التى يجب بيان حكم الله ورسوله فيها أكبر عددا وأكثر تنوعا ، وأدق بلا شك من مسائل اللغة ولا يستطيع فرد واحد ، أو أفراد منا كل منهم يعمل مستقلا ، أن يقوم بالعبء كله فى هذه الناحية التى لها خطرها .

---

(١) مثل الخصم . وتحصيل الاوراق التجارية . وفتح الاعتمادات

بل يجب أن تعنى « القاهرة » بصفة خاصة ، بسبب المركز الذى جعلها الله فيه ، بتكوين هذا « المجمع » من أعلام الفقه والقانون فيها وفى غيرها من البلاد الإسلامية .

وحينئذ ، يكون على مكتب هذا المجمع ، الذى دعوت له جاهدا منذ أكثر من أربعة أعوام ، أن يعد كل عام المسائل التى يجب بحثها وبيان حكم الشريعة الاسلامية فيها .

وبعد ذلك ، يعمل كل من أعضائه عقله فيها وهو فى بلده ، ثم يجتمعون كل عام مثلا مرة ، فى مصر أو غير مصر ، للمناقشة واستعراض ما وصل اليه كل منهم فيها باجتهاده فى هذه المشاكل ، تمهيدا لإصدار قرار إجماعى بما ينتهى اليه رأى الجميع .

ومن ثم ، تكون هذه الأحكام التى أجمعوا عليها أحكاما تشريعية ملزمة للمسلمين جميعا ، ما دامت تستند الى هذا الأصل الخصب من أصول الفقه الإسلامى ، وهو الإجماع .

إننا حين نفعل ذلك الذى تكلمنا عنه ، من دراسة الفقه الاسلامى دراسة علمية صحيحة متعاونين مع رجال القانون ، وحين نجتهد فى بيان حكم هذا الفقه في المعاملات التى تجرى بيننا ، وفى القواعد العامة التى تقوم عليها سياسة الحكم ونظم الأمة والدولة ، إننا حين نفعل ذلك نصل بالفقه الإسلامى الى أن يكون هو الأساس الأول لتشريعاتنا وقوانيننا ، ومن الله العون والتوفيق لكل خير



القسم الخامس

مقاصد الإسلام وغاياته

الفصل الأول

تربية الفرد

كل دين من الأديان المعروفة ، بل كل نظام فلسفى أو اجتماعى للحياة ، له أهدافه ومقاصده وغاياته ، والإسلام الذى ندعو جاهدين للأخذ به ، له مقاصده السامية وغاياته الإنسانية النبيلة .

وسنتناول بعض ذلك فى ثلاثة فصول ، الأول تربية الفرد ، والثانى إصلاح المجتمع ، والثالث السلام العالمى .

من المعروف أن الفرد هو اللبنة الأولى التى يتكون منها المجتمع ويقوم عليها فمتى نشىء الفرد تنشئة صالحة صلح المجتمع بلا ريب . وهنا ، نجد الإسلام قد عنى عناية كبيرة بتربية الفرد ، عناية لا نجدها ـ من ناحية الشمول والتفصيل ـ فى دين آخر من الأديان السماوية التى جاءت قبله .

إن الانسان مكون من جسم ونفس ، وفيه غرائزه الطبيعية الأصيلة ، وله عقل يفرق بينه وبين الحيوان . وقد عرف الإسلام لكل من ذلك حقه ، فلم يأمر بإرهاق الجسم وحرمانه من طيبات الحياة على حساب الروح أو العقل ، ولم يأمر بكبت الغرائز وعدم إروائها بالطريق الحلال الذى لا لوم فيه ولا تثريب .

لذلك نراه يعنى بصحة الأجسام ووقايتها من الأمراض والأسباب التى تجىء بها ، بل إنه ليجعل حفظ الحياة فرضا مقدسا ، ومن ثم ، يجيز التبلغ بأكل الميتة ودفع الظمأ بشرب شىء من الخمر حال الضرورة ، كما رخص فى الإفطار لمن لا يتسطيع الصوم ، الى غير ذلك من الرخص التى أباحها فى العبادات .

وأباح لنا التمتع بالطيبات مما تشتهيه النفوس ، والتزين فى غير إسراف يخرج عن الاعتدال المشروع ، وفى هذا يقول العليم الحكيم فى سورة الاعراف ٣١ ، ٣٢ « يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

وفضلا عن هذا ، نراه جل ذكره يمتن علينا بما نتمتع به من كثير من أسباب النعيم والجمال والزينة ، فيقول فى سورة النحل : « وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ، وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » آية ٥ ـ ٨ ثم يقول بعد ذلك فى السورة نفسها : « وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . آية ١٤

بل إن الاسلام فى هذه الناحية ـ ناحية إحلال التمتع بضروب النعم المختلفة وناحية معرفة حق الإنسان فى إرضاء غرائزه فى اعتدال ـ يستجيب لما هو مشاهد من رغبة المرأة فى التزين والتجمل أكثر من رغبة الرجل ، فيبيح لها ما حرمه عليه من التزين بالحلى ولبس الحرير ، على حين يعتبر ذلك فى الرجل نعومة وترفا مؤذيا ومنافيا لطبيعته .

لكن الانسان هو إنسان بما خصه الله به من نفس ليست كالروح التى للحيوان ، ولهذا وجب أن يعنى الإسلام بالإنسان من هذه الناحية عناية شديدة ، فهو يعمل من طرق عديدة تهدف كلها الى تربية هذه النفس حتى يكون الإنسان جديرا بوصف الإنسانية .

ففى القرآن من سورة الشمس آية ٧ ـ ١٠ قوله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا » (١)

---

(١) نقصها واخفاها بالفجور

معتدلة ، وهذا ها طريق الخير وطريق الشر ، لتسلك أيهما تريد وتكون مسئولة عن أعمالها ، كما تبين لنا أن الذى يفلح ويفوز فى حياته هو من تتطهر نفسه بالأعمال الفاضلة ، والذى يخيب هو من لم يجاهد نفسه فمالت الى الشر .

ولهذا ، أمر الإسلام بأن يجاهد الانسان نفسه حتى لا تميل مع الهوى وتضل طريق الرشاد ، وجعل الجنة جزاء من يعمل ذلك ، فجاء فى القرآن من سورة النازعات قوله تعالى آية ٤٠ ، ٤١ « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ » . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد : « مرحبا بكم ! قدمتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الأكبر ، قيل : يارسول الله ! وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « جهاد النفس » ، وفى هذا يقول أيضا : « المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل » .

ومتى نجح الإنسان فى جهاد نفسه فاعتدلت قواها المختلفة ، نشأ عن ذلك الفضائل المعروفة ، هذه الفضائل التى ترجع الى أربع تسمى أمهات الفضائل ، لأنها جماع كل خير ، وهى : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة (١)

والأخلاق قابلة للتغير بالتربية ، ولذلك كانت الحاجة ماسة للرسل والأنبياء والمصلحين ، ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حسنوا أخلاقكم » .

واذا كان الأمر هكذا ، كان على المرء مراقبة نفسه حتى لا تنحرف عن الجادة ، وحتى لا تجنح الى الإفراط أو التفريط فيما تعمل .

وعليه أيضا أن يحاسبها بعد العمل ، لتعرف حظها من الرضا والثواب ، أو من السخط واللوم ؟ وهذا الحساب لابد منه ، وله خطر أى خطر ! له خطر يتناسب وربح النفس المرجو وهو السعادة ، أو خسارتها المخوفة وهى الشقاء .

واذا كان التجار يحاسب بعضهم بعضا ، أو يحاسب الواحد منهم نفسه ، كل شهر أو كل عام يعترض هذه الحياة ، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه والربح والخسران ما قدمنا .

---

(١) كل فضيلة من هذه الاربع تعتبر أمًا لفضائل اخرى تنبعث عنها وتندرج تحتها . وهذا البحث لا يتسع لبيان كل هذه الفضائل المتفرعة عن الفضائل الامهات .

وقصارى القول فى هذه الناحية الأخلاقية ، أن الإسلام يهدف الى تربية ضمير الإنسان حتى يكون مستقيما يعرف الخير من الشر ، وإن لم يجد فى هذا أو ذاك فى مختلف شئون الحياة العملية نصا من كتاب الله أو سنة رسوله ، أو رأيا لرجال الأخلاق . وحينئذ ، ينبغى ان يصدر فى هذه الحالات عن وحى ضميره وإلهامه وإن خالفه الناس فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وفي هذا ، ورد أن وابصة بن معبد رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « جئت تسأل عن البر ؟ فقلت : نعم ، قال : « البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

ومتى كان للإنسان هذا الضمير الهادى المستقيم ، كان مستقلا فيما يأتى ويذر ونأى بنفسه عن الشر رغم ما قد يعيش فيه من وسط سيىء . وقد حث الرسول على ذلك ونحوه إذ يقول : « ولا تكونوا إمعة ، تقولون ان أحسن الناس أحسنا ، وان ظلموا (أى أنفسهم أو غيرهم) ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » .

على أن القرآن الكريم ، وهو كتاب الإسلام الأول ، قد عنى أكثر من غيره من الكتب السماوية السابقة عليه ببيان الفضائل والرذائل ، حتى لا نجد فضيلة يأمر بها الضمير المستقيم والعقل السليم إلا قد أمر بها وحببها الى النفوس ، ولا رذيلة يمجها الضمير ويأباها العقل إلا وقد نهى عنها وكرهها الى القلوب ، ويكفى فى هذا أن نذكر هذه الآيات :

١ ـ « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ » المائدة ١

٢ ـ « وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ » المائدة ٢

٣ ـ « قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ » الانعام ١٥١

٤ ـ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » الانعام ١٥٢

٥ ـ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » النحل ٩٠

٦ ـ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » النحل ٩١

٧ ـ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » الاسراء ٢٣

٨ ـ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ۚ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا » الاسراء ٢٤

٩ ـ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا » الاسراء ٢٥

١٠ ـ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا

١١ ـ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا » الاسراء ٢٦ ، ٢٧

١٢ ـ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ (أى عن الوالدين) ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا » الاسراء ٢٨

١٣ ـ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا » الاسراء ٢٩

١٤ ـ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » الاسراء ٣٠

١٥ ـ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا » الاسراء ٣١

١٦ ـ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا » الاسراء ٣٢

١٧ ـ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا » الاسراء ٣٣

١٨ ـ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا » الاسراء ٣٤

١٩ ـ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » الاسراء ٣٥

٢٠ ـ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » الاسراء ٣٦

٢١ ـ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا » الاسراء ٣٧

٢٢ ـ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا » الاسراء ٣٨

٢٣ ـ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا » الاسراء ٣٩

٢٤ ـ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَا » النساء ٨٦

٢٥ ـ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » النور ٢٧

٢٦ ـ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » النور ٢٨

٢٧ ـ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ (أى لا تعرض عنهم تكبرا عليهم واحتقارا لهم) ، وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا (أى متبخترا متكبرا) ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » لقمان ١٨

٢٨ ـ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ » لقمان ١٩

٢٩ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١). المجادلة ١١

٣٠ - فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ » البقرة ٢٨٣

٣١ - إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ » النساء ٥٨

٣٢ - وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ » فصلت ٣٤

٣٣ - خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ » الأعراف ١٩٩

٣٤ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ (أى لا يدفعكم بغض قوم) عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » المائدة ٨

٣٥ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » الأنفال ٢٧

هذه آيات من سور مختلفة ، وهناك مئات أخرى أمثالها ، وكلها تأمر كما رأينا بالخير فى كل ضروبه ، وتنهى عن الشر فى كل ضروبه .

وهى تتناول كما رأينا فضائل الفرد وفضائل المجتمع ، وتضع القواعد والأصول التى يكون عنها تربية الإنسان تربية مثالية ، وتأمر بالآداب التى يجعل العمل بها الإنسان ملكا نزل من السماء ليقود العالم الى العز والسعادة فى الدنيا والآخرة

فأى عناية فى أى كتاب سابق من الكتب السماوية ، أو فى أى فلسفة أخلاقية واجتماعية ، تبلغ معشار ما جاء به القرآن فى هذه الناحية ، وذلك كله

---

(١) من معانى النشز : التنحى . ونشز ينشز بضم الشين وكسرها تنحى من موضعه . ويذكر القرطبى أن الصحيح أن الاية عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والاجر . سواء كان مجلس حرب او ذكر او مجلس يوم الجمعة . فان كل واحد أحق بمكانه الذى سبق اليه . ولكن يوسع لاخيه ما لم يتاذ بذلك . ثم اذا قيل لكم انهضوا للصلاة . أو الجهاد او أى عمل من أعمال الخير . فقوموا لما دعيتم له .

غير الأحاديث النبوية العديدة التى تأمر بالعرف وتنهى عن المنكر بكل ما تتسع له هاتان الكلمتان من معنى ومدلول .

هذا ، والفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان هو العقل ، ولا يتم للإنسان كماله الا باستعمال هذه القوة فيما خلقت له استعمالا كما ينبغى ، وقد عرف الإسلام لهذه القوة قدرها ، ودعا الى استعمالها ، ولذلك نجد كثيرا من هذه التعبيرات وأمثالها فى القرآن « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » البقرة ٢٤٢ « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ » الزمر ٢١ « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » النحل ٤٤ « أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ » الحج ٤٦

كما نجد فيه ايضا آيات كثيرة تنعى بشدة على التقليد واتباع ما كان عليه الآباء والأسلاف من غير حجة أو برهان ، لأن فى هذا التقليد إغفالا للعقل والتفكير ، ومن هذه الآيات :

١ - « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ » البقرة ١٧٠

٢ - « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ » المائدة ١٠٤

٣ - « قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا » يونس ٧٨

٤ - وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ، قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ » . الزخرف ٢٣ ، ٢٤ .

ولعل من مظاهر تقدير الاسلام والمسلمين للعقل وأثره فى الحياة فى مختلف شئونها ، اتفاق العلماء ، الا قليلا من الشواذ ، على أنه إذا تعارض الرأى يذهب اليه العقل السليم مع بعض النصوص المنقولة وجب الأخذ بما يدل عليه العقل ،

وحينئذ إما أن نعترف بالعجز عن فهم النص المنقول إن كان صحيحا ونفوض علمه الى الله ، اوما نؤوله تأويلا تجيزه قوانين اللغة حتى يتفق مع ما أدى اليه العقل بنظره المنطقى السليم . فأى إجلال للعقل مثل هذا !؟ وبذلك مهد الاسلام للعقل كل سبيل ، وأزاح أمامه كل ما قد يعترضه من عقبات .

واذا كان الاسلام يعرف للعقل منزلته وخطره الى هذه الدرجة ، فإنه ارتفع بكرامة الإنسان الى أعلى عليين ، فليس هناك قديسون ورجال كهنوت بين الخالق والمخلوق . بل الكل أمام الله سواء ، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى ، وبمزيد من الفهم فى كتاب الله وسنة رسوله ، وبفضل من العلم ينفع الناس فى دينهم ودنياهم ، وبالعمل الصالح يكون به قدوة طيبة لغيره من الناس

ولهذا لا نجد فى الإسلام رياسة دينية تجب لها الطاعة فى كل ما تأمر به أو تنهى عنه ، بل نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر صراحة أنه : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، كما نرى خليفته الأول أبا بكر الصديق يقول : أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم .

وهكذا ، نجد الإسلام يجىء بقلب السلطة الدينية التى كانت معروفة من قبل لرجال الاديان السابقة ، ونراه يوفر للإنسان كرامته ليشعر أنه إنسان حر فى نفسه وجميع أمره ، لا يقيده فى هذا إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وبذلك يحس حقا أنه إنسان مسئول عن عمله .



الفصل الثانى

إصلاح المجتمع

أول حلقة فى سلسلة المجتمع التى تمتد حتى تشمل العالم كله هى الأسرة ، وهناك نجد الإسلام قد حاط الأسرة بكل الحقوق والضمانات التى تجعلها أسرة هانئة حقا ، والتى تجعل منها عدة ومددا لمجتمع سليم سعيد ، إذا قام كل من أفرادها بما له من حقوق ، وما عليه من واجبات كما يفرضه الإسلام .

لذلك شرع الله الزواج ولم يبح الإسلام ولا تقاليده أى صلة تنشأ بين الرجل والمرأة بغير هذا الطريق الطيب الحلال . وإننا لنحس مقدار خطر الأسرة وتكوينها والحاجة إليها من هذه الآية التى نكتفى هنا بها ، وهى قوله جل ذكره فى سورة الروم : « **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** » الآية ٢١

فالزواج ـ إذا ـ صلة نفس بنفس مثلها ، والرجل يسكن الى زوجته ويستريح إليها مما يلاقيه من متاعب الحياة ، ويبث إليها آلامه وآماله فتعينه عليها ، ومن ثم يشملهما ما ينبغى أن يكون بينهما من المودة والرحمة ، ويجد كل منهما من شريكه ما يجعل الحياة ميسورة هانئة .

ولكى يعيش الزوجان فى وئام ، بين الله لكل منهما حقوقه وواجباته ، فللزوج العمل خارج البيت لضمان ما يقيم حياة الأسرة ، وللزوجة شئون البيت وتربية الأولاد حتى لا تضطر لامتهان نفسها فى عمل خارجى ، وعلى الأولاد إطاعة الوالدين والعناية بهما إذا نال منهما الكبر واحتاجا الى رعاية أبنائهما .

وعناية الله الرحمن بما يجب للوالدين على أولادهما ـ إزاء مالهم عليهما من الحقوق ـ كبيرة أكيدة ، إلى درجة أنه يكثر من التوصية بهما خيرا ويقرن الأمر ـ

بعبادته تعالى بالأمر بالإحسان إليهما فى آية ، كما يقرن الأمر بشكره بالأمر بشكرهما فى آية اخرى وهذا له مغزاه الذى لا يخفى .

وذلك إذ يقول فى سورة الإسراء : « **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا • وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ۚ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا** » الآية ٢٣ ، ٢٤

وإذ يقول فى سورة لقمان : « **وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ۚ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ** » الآية ١٤

والأسرة الواحدة بمعناها الواسع قد تضم غير الأبوين وأولادهما ، كالأجداد والأعمام والإخوة وأولاد العم ، إلى آخر القرابات المعروفة . وهنا ، نجد الاسلام يوجب نفقة القريب المحتاج على قريبه القادر على الإنفاق ، وذلك لضمان التكافل العائلى فى الأسرة ، كما هو معروف .

ولعل من الخير أن أذكر هنا أنى حين إقامتى بفرنسا كانت تخدم الأسرة التى نزلت فى بيتها فترة من الزمن فتاة تظهر عليها مخايل أو علائم كرم الأصل ، فسألت ربة الأسرة : لماذا تخدم هذه الفتاه ؟ أليس لها قريب يجنبها هذا العمل غير الكريم لكسب ما تقيم به حياتها ؟ فكان جوابها أنها من أسرة طيبة فى البلدة ، ولها عم غنى موفور الغنى ، ولكنه لا يعنى بها ولا يهتم بأمرها ، فسألت : لماذا لا ترفع الأمر للقضاء للحكم لها عليه بالنفقة ؟ » فدهشت السيدة من هذا القول ، وعرفتنى أن ذلك لا يجوز لها قانونا .

وحينئذ أفهمتها حكم الإسلام فى هذه الناحية ، فقالت : من لنا بمثل هذا التشريع ! لو أن هذا جائز قانونا عندنا ، لما وجدت فتاة أو سيدة تخرج من بيتها للعمل فى شركة أو مصنع أو معمل ، أو ديوان من دواوين الحكومة مثلا .

وقد يتفق أن يحدث من الأمر بين الزوجين ما يدعو إلى قطع صلة الزوجية بينهما ، وهنا نرى من محاسن الإسلام إجازته الطلاق مع اعتباره أبغض الحلال إلى الله كما يقول رسوله العظيم . ولكن القرآن ينصح بمحاولة التوفيق والإصلاح

اولا ، فيقول فى سورة النساء : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا » الآية ٣٥

فإن لم تفد محاولة الإصلاح بين الزوجين ، وتبين أن المعيشة الزوجية الطيبة بينهما أصبح لا سبيل إليها ، كان الطلاق حينئذ لا بد منه ، وكان من الخير لهما أن يتفرقا ، وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة النساء نفسها : « وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ » ، الآية ١٣٠

ومن ذلك ، نرى أن هذا النظام الذى انفرد به الإسلام قد يكون خيرا فى كثير من الحالات حين تكون الحياة الزوجية شرا على كل من الزوجين ولا يستطيعان منها فكاكا (١) .

وكان من الطبيعى بعد هذا أن ينظم القرآن الحال بعد الطلاق ، فوضع القواعد التى يجب اتباعها فيما يختص بنفقة الزوجة المطلقة ، وفيما يختص بنفقة الأولاد والإشراف على تنشئتهم وتربيتهم ، إلى آخر ما ينبغى فى هذه النواحى .

فإذا تركنا الأسرة الى المجتمع العام فى الوطن الواحد أو الأمة الواحدة ، نجد الإسلام يقيم العلاقات بين أفراد هذا المجتمع على أسس وقواعد تضمن له الأمن والسلامة ، والحياة الرغيدة السعيدة التى تبنى على التضامن فى سبيل خير الأفراد والجماعة .

وذلك ، بأن الاسلام يقيم المجتمع على أسس متينة من الرحمة والتعاون والمحبة ، وعلى قاعدة التساوى فى الحقوق والواجبات ، والتنسيق بين الجهود فى سبيل الصالح الخاص والعام .

ويكفى فى بيان هذا أن ننظر إلى قوله تعالى فى سورة الحجرات : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » الآية ١٠ وإلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر

---

(١) لعلنا نرى من هذا أن اباحة الطلاق أصون لكرامة المرأة مما لو كان محرما ، فانه لا تقبل امرأة تحرص على كرامتها أن تظل مفروضة على زوج لا يريدها أو لا تريده .

الجسد بالسهر والحمى » . وقوله : « ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا » ، وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وهذه الرحمة التي يعمل الإسلام على توليدها فى نفوس المؤمنين به ، ثم على تثبيتها فى قلوبهم ، تتسع حتى لتشمل سائر الأحياء من الإنسان والحيوان ، فها هو ذا رسوله العظيم يقول : « دخلت إمرأة النار بسبب قطة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

ثم يقول فى حديث آخر رواه الإمامان البخارى ومسلم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بى ، فنزل البئر فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » قالوا : يارسول الله ! ، وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : « نعم ، فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

فإذا كان الإسلام يحث الإنسان هكذا على الرفق بالحيوان ورحمته ، فكيف بأخيه الإنسان ، وقد جمع بين الناس جميعا وحدة الأصل وهو آدم عليه السلام ، ووحدة الخالق جل وعلا الذى وسعت رحمته كل شىء .

ولا نستطيع هنا أن نلم بكل ما آقام عليه الدين الإسلامى المجتمع من أسس وقواعد وحاطه به من ضمانات ، ليكون مجتمعا سليما رشيدا يهدف إلى الخير فى كل شئونه . ولذلك ، نكتفى بالكلام بإيجاز عن ثلاث نواح لا يزال الغرب فى كل دوله ومجتمعاته منقسما فيها ومختلفا على علاج كل منها ، وكان لذلك أثره السيىء فى العالم كله ، وهى ناحية الحكم ، وناحية المال ، وحراسة المجتمع من البغى والعدوان .

(أ) فمن الناحية الأولى ، نجد الإسلام يقيم الحكم على دعامتين : الأولى الشورى ، والثانية المسئولية ، فليس لحاكم أن يستبد برأيه ، وليس لأحد أن يتنصل مما عليه من المسئولية فيما يعمل وإن كان هو الخليفة والإمام .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ـ كما هو معروف ولا يحتاج لبيان منا ـ يستشير أولى الرأى من أصحابه فى كل ما يعرض من الأمور التى فيها مصالح عامة ، وهذا حين لا يجد وجه الحق فى كتاب الله تعالى ، وذلك اتباعا لقوله تعالى فى سورة آل عمران : « وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ » الآية ١٥٩ ثم نرى الله يقول فى صفات المؤمنين (سورة الشورى) : « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » الآية ٣٨

ونظام الحكم الذى يقوم على هاتين الدعامتين ، يقتضى عدم الاستبداد بالرأى كما قلنا ، كما يقتضى طاعة الحكام والولاة فيما يأمرون به مادام لا معصية فيه لله ورسوله ، كما يتطلب مع هذا وذاك تقديم النصيحة التى ترشد الى الحق وتقيم العوج .

والشواهد من التاريخ الاسلامى ـ فى أيامه الأولى ، أيام وضع الأسس والقواعد التى تبين الحقوق والواجبات ـ كثيرة على حبل الذراع لمن يريد ، فنكتفى بذكر هذه منها ، وفيها كفاية أية كفاية :

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الامام احمد بن حنبل وغيره : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة » ، كما يقول فيما رواه البخارى : « اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى »

ويقول صاحبه الخليفة الأول أبو بكر الصديق حين ولى الخلافة : أما بعد ، أيها الناس ! إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقوموني .. اطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

ويقول عمر بن الخطاب الخليفة الثانى رضى الله عنه : « من رأى منكم فى عوجا فليقوّمه ، فيقول له اعرابى : لو رأينا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا ، فيحمد عمر الله بقوله : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوّم عوج عمر بسيفه » .

ومتى قام نظام الحكم على هذه الأسس الصالحة والدعامات القوية ، كانت النتيجة ، العدل بين الناس جميعا ، وهذا هو ما يتطلبه الإسلام ويعمل له بكل

سبيل . وهو عدل مثالى ، لا يتاثر بالقرابة أو الجاه أو السلطة ، كما لا ينبغى أن يتأثر بالبغض أو العداوة ، ولا لهذا السبب الآخر أو ذاك .

ولنسمع فى هذا قوله تعالى فى (سورة النساء آية ١٣٥) : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ » . أى يكون اتباع الهوى سببا لترك العدل .

والى قوله فى (سورة المائدة آية ٨) : « **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ (اى بغض وعدواة) قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ** » .

ففى الآية الاولى أمر بالمساواة فى العدل والشهادة ، لافرق فى ذلك بين قريب وغريب ، وغنى وفقير . وفى الثانية ، وهى مكملة للأولى فى هذه الناحية نجد الأمر صريحا بالمساواة فى العدل والشهادة بين الانسان وأعدائه ، ونجد حكم الله بأن العدل فى كل حال هو أقرب الى تقوى الله العليم الخبير .

وان تاريخ الاسلام لزاخر بالأمثلة والواقعات التى كان فيها كل تلك الأسس والقواعد محل التطبيق بين المسلمين وأنفسهم ، وبين المسلمين وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى ، مما كان سببا فى دخول الكثيرين من هؤلاء فى الاسلام أفرادا وجماعات .

(ب) ومن الناحية الثانية ، وهى الناحية المالية ، نعرف أن حضارة الغرب المادية ـ بل حياته كما نلمسها ـ تقوم على المال وجمعه بكل سبيل ، واعتباره العنصر الحاسم فى تقدير القيم للأفراد والشعوب والأمم والدول .

ومن أجل هذا ، نرى الغرب يأكل بعضه بعضا ، ونراه يتقاتل فى سبيل الاستيلاء على مصادر المال والثروات العامة ، ومن ثم ، كان استعماره فيما مضى لكثير من أمم الشرق ، ومحاولته هذه الايام الاحتفاظ بهذا الاستعمار .

وهم فى ذلك قد طرحوا وراءهم ظهريا المعانى الانسانية النبيلة ، والاخلاق

القويمة التى ينبغى ن تحكم العلاقات بين الجماعات والامم والشعوب ، ونسوا يوم الحساب والدار الآخرة ، فصارت الدنيا عندهم هى الحياة التى لاحياة بعدها .

على أن الاسلام ينظر لذلك كله نظرة تخالف تلك النظرة تماما ، ذلك بأن الله تعالى خلق لنا ما خلق من صنوف النعيم وضروب الاموال ، سواء فى هذا ما كان على ظهر الأرض أوفي باطنها ، وفى أجواف البحر ايضا ، وأباح لنا التمتع بهذه الثروات متى جمعت من طريق حلال ، وذلك بإنفاقها فى الوجوه المشروعة ، فهذا يتفق وطبيعة الانسان وطبيعة هذه الحياة الدنيا التى نعيش فيها .

الا انه يلفت نظرنا بقوة الى أمرين : الأول ، هو ان هذه الحياة ليست حياة خالدة ، وأنها ليست كلّ شىء ، بل هناك حياة اخرى من الواجب أن نعمل لها اكثر مما نعمل للحياة الدنيا ، فإن ما عند الله فى تلك الحياة الاخرى خير وأبقى

وهذا المعنى نجده واضحا فى كثير من آيات القرآن ، كما نجد آيات أخرى تبين لنا أن المال وسائر ضروب النعم ليس خيرا دائما فى كل حال ، وأنه قد يكون فتنة أحيانا كثيرة .

ولنسمع فى هذا وذاك الى قوله تعالى : « **وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ** » سورة الأنفال الآية ٢٨ ، والى قوله : « **ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا** » سورة الكهف الآية ٤٦

ثم يرينا الله العليم بكل شىء ، ما للحياة الدنيا من قدر بجانب الآخرة وانها بكل ما تحوى من مال ومتاع أمر زائل ، وذلك فى هذه الآية من (سورة الحديد آية ٢٠) التى تصورها أحسن تصوير وهى : « **ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ** » .

فإذا ما استقرت هذه الحقيقة فى قلب المؤمن وعقله ، وآمن بها إيمانا لا ريب

فيه ، منعته من أن يتكالب على جمع المال بكل سبيل مشروع أو غير مشروع ، وجعلته يفهم أن المال ليس غاية فى نفسه ، بل هو وسيلة الى هدف آخر ، وهو الاستعانة به على أن تكون هذه الحياة طيبة كريمة هانئة وسعيدة له ولغيره من الناس الذين يضطربون معه على هذه الأرض .

هذا هو الأمر الثانى الذى يلفتنا اليه الإسلام ، سواء فى ذلك كتاب الله نفسه وأحاديث رسوله وسير صحابته ومن سار على هديهم .

نعم إن الإسلام يحرص كل الحرص على بيان أن للمال فى هذه الحياة وظيفة أو عملا اجتماعيا يجب أن يستخدم لأجله ، وإلا كان مصدر شر لصاحبه ولغيره من الناس .

وهذا « العمل الاجتماعى » هو كما ذكرنا آنفا جعل الحياة الطيبة ميسرة سعيدة لصاحبه ولإخوانه فى الدين والوطن والإنسانية ، ولا سبيل لذلك إلا بالإنفاق منه لهذه الغاية .

وقد مهد القرآن لهذا ببيان أن الإنسان ليس إلا خليفة لله تعالى فيما يكون تحت يده من الأموال ، فيجب ـ اذا ـ أن يؤدى الحقوق الواجبة عليه ، وفى هذا يقول «ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ» سورة الحديد آية ٧

وأول هذه الحقوق الواجبة فى المال على صاحبه ، إخراج زكاته لدفع حاجة المحتاجين . وليست هذه الزكاة صدقة بالمعنى السيىء المعروف اليوم لهذه الكلمة ، بل هى حق معلوم للسائل والمحروم كما جاء فى القرآن نفسه . ثم تأتى بعد ذلك ، حقوق أخرى غير الزكاة المفروضة ، وكلها تعود الى معاونة الفقراء والمساكين بصفة عامة .

وإن من الخطأ الظن بأنه ليس فى المال حق سوى الزكاة ، ويكفى أن نقرأ الآية رقم ١٧٧ من سورة البقرة ، ففيها تصريح بأن على صاحب المال أن يؤتى من ماله ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين ، وفيها بعد هذا أن عليه أن يؤدى أيضا القدر الواجب عليه من الزكاة فى ماله .

والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد هذه الحقوق الواجبة على صاحب المال فى ماله حين يقول فيما رواه مسلم وأبو داود ، « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد ، فليعد منه على من لا زاد له » ، وحين يقول : « ما آمن بى من بات شبعانا وجاره الى جنبه جائع » .

إنه بهذا النظام المالى ، وبهذه الفكرة الإسلامية فى ملكية الأموال والإنفاق منها فى وجوه الخير ، يتحاب المؤمنون ، ويقوى بينهم شعور التكافل والتضامن الاجتماعى .

وبهذا يتحقق التوازن الاجتماعى ، هذا التوازن الذى يحفظ لكل واحد حقه فى العمل والرزق الذى يجعله يحيا حياة إنسانية كريمة ، وهذا واجب وضعه الإسلام على عواتق الأفراد والدولة معا .

(جـ) وأخيرا ، يحرص الاسلام الحرص كله على أن يعيش الناس إخوانا متعاونين متحابين ، وذلك على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ، فلا يبغى بعضهم على بعض ، ولا يعتدى أحدهم على آخر . ولكن هذه أمنية ليس من الممكن أن تتحقق لو ترك كل الى نفسه وضميره ، فليس كل الناس أخيارا بطبائعهم يمتنعون عن الشرور بوازع من أنفسهم .

ولذلك كان لا بد من حراسة المجتمع الاسلامى من البغى والعدوان ، ولن يكون هذا إلا بالتشريعات الزاجرة . ومن ثم ، عنى الإسلام ببيان الجرائم الكبيرة وبيان عقوبة كل منها ، وهذه هى « الحدود » المعروفة التى تصون الأنساب وتحفظ على الإنسان عرضه وعقله وماله(١) . وذلك ، فضلا عن العقوبات الرادعة الخاصة بالاعتداء على الأجسام والأرواح ، وفضلا أيضا عن عقوبات الجرائم أو الجنايات الأخرى غير هذه وتلك . وعلينا أن نلاحظ بعد هذا ، أن الإسلام فى سبيل حراسة المجتمع من اعتداء المعتدين يأخذهم بالعلاج الرادع على ما أشرنا اليه ، كما عنى أيضا بالعلاج الوقائى ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل ما تتسع له هاتان الكلمتان من معان ومدلولات ، حتى لقد جعل ذلك أصلا من الأصول التى يقوم عليها الدين .

---

(١) هذه الحدود معروفة ، وهى : حد الزنى ، وحد القذف ، وحد الشرب وحد السرقة .

وانه فى هذا ليحرص الحرص الشديد على بيان المنكرات ، وتصوير سوء عاقبتها فى الدنيا والآخرة ، وهذا مما يجعل النفوس الطيبة تنفر منها وتبتعد عنها ويكفى هنا أن نتحدث بإيجاز عن بعض ما أشرنا اليه .

ففى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يأمرنا الله تعالى بأن تكون منا طائفة تتجرد لهذه المهمة الكبيرة الخطر والأثر فى المجتمع ، وفى هذا يقول : « **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** » . آل عمران ١٠٤

كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه أبو داود والترمذى والنسائى ، « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

وفى تحريم الظلم والوعيد عليه بالعقوبات الغليظة ، وبخاصة فى الدار الأخرى ، نرى الله تعالى يقول : « **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** » غافر ١٨ ويقول : « **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** » الحج ٧١

ويذكر رسوله المصطفى من حديث طويل رواه الامام مسلم فى صحيحه ، أن الله تعالى يقول :

« ياعبادى ! إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ويقول في حديث آخر متفق عليه : « ان الله ليملى للظالم ، حتى اذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ قوله تعالى : « **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** » هود ١٠٢

ولا يكون المجتمع على ما ينبغى أن يكون عليه إلا إذا كان كل واحد من أفراده أمينا فيما يعهد به إليه ، مؤديا للأمانة متى طلبت منه ، وفيا إذا عاهد وقد أمرنا الله بذلك كله ، ونهانا عن الغش فى المعاملات ، وعن الغدر فى كل ضروبه وأشكاله .

ولنستمع فى ذلك الى قوله تعالى : « **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** » النساء ٥٨ ، والى قوله فى مفتتح سورة المائدة : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ » المائدة ١ وقوله فى (سورة الاسراء آية ٣٤) : « وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا » .

ويعد الرسول صلى الله عليه وسلم من خصال المنافق أنه « إذا اؤتمن خان ، واذا عاهد غدر » ، وذلك فى حديث متفق عليه . كما يقول فى حديث آخر متفق عليه أيضا : « ولكل غادر لواء يوم القيامة ، يقال : هذه غدرة فلان » .

ومن صور الغدر وعدم الأمانة فى المعاملات ، أن يغش ، الانسان من يبيع له أو يشترى منه ، ولهذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم ينهى عنه بشدة ، وفى ذلك روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول مر على صبرة (كومة) طعام ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا ، فقال : « ما هذا ياصاحب الطعام » ؟ قال : أصابته السماء يارسول الله ، قال : « أفلا جعلته (أى القدر الذى أصابه الماء) فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا » .

هذا ، ويقول كثير من الناس عن عناد أو غير علم : إن فى القوانين الوضعية ما يكفى لضمان سلامة المجتمع وحراسته من البغى والعدوان ، وإذا فما ميزة التشريعات الإسلامية ! وهؤلاء وما أكثرهم فى المسلمين فى مصر وغير مصر ، ينسون أو يتناسون حقيقة نفسية وواقعية تفرق بين التشريع الإلٓهى والتشريع الوضعى ، وهى حقيقة كان لها أثرها الطيب فيما مضى من الزمان ، وجدير ان يكون لها هذا الأثر فى كل زمان لو رعيناها حق رعايتها .

ذلك بأن القانون الوضعى ، لأى شعب أو أمة ، هو من صنع الإنسان الذى يصيب ويخطىء ، ويعدل ويظلم ، ولهذا ، لا نراه يحقق العدالة الحقة للناس جميعا فى كل عصر ومكان .

ولا يمكن أن يحقق هذه العدالة على هذا النحو الشامل لسبب آخر ، وهو أن واضعه لا يعلم ما يصلح به العالم فى كل زمان ومكان ، ومن ثم ، لا تكتسب أحكامه وأوامره ما يجب من الاستقرار والطاعة بوازع داخلى من نفس الإنسان .

أما التشريع الإلٓهى ، وهو فى أسمى صوره وأكملها التشريع الاسلامى ، فهو من عمل الله العليم الحكيم الذى لا يصدر عنه الا ما يحقق مصلحة الإنسان فى كل

عصر والذى لا يأمر إلا بالمعروف ولا ينهى إلا عن المنكر ، والعادل الذى لا يظلم ، والحق الذى لا يخطىء ، ولذلك ، يكون لأحكامه طابع الاستقرار والاحترام والقبول ، ويعمل الآخذون بها عن اقتناع داخلى ورضا نفسى .

ومن ناحية أخرى ، نرى القانون الوضعى لا يرتب على مخالفة ما يجىء به من أحكام إلا جزاء فى هذه الحياة الدنيا وحدها ، لأن واضعه لا يملك من أمر الحياة الأخرى شيئا ، ومن ثم لا جناح على من يستطيع الإفلات من هذا الجزاء . وأما القانون السماوى ، فجزاؤه دنيوى وأخروى ، وهذا الجزاء يكون ثوابا أو عقابا ، والجزاء الأخروى أعظم دائما من الجزاء الدنيوى .



الفصل الثالث

السلام العالمى

والاسلام ليس دينا مغلقا على شعب واحد أو أمة واحدة ، بل هو دين مفتوح لكل من يطلب الحق ويؤمن به ، هو دين عالمى للناس جميعا فى جميع العصور وقد قدمنا شواهد من القرآن على هذه الحقيقة التى لا يسع أحد إنكارها .

ولذلك كان من الطبيعى أن يرعى الإسلام هذه الحقيقة الواضحة ، وأن يعمل على أن يعيش الناس بسلام فى جميع أنحاء العالم وفى كل الازمان ، وتتجلى هذه الرعاية من نواح عديدة مختلفة :

(أ) فهو أولا ، لا يعادى غير المسلم لأنه مخالف له فى عقيدته ، بل انه ليأمر بمودة المخالفين له فى هذه العقيدة ، التى مرجعها الى الله والى القلوب ، ما داموا لم يقفوا من المسلمين موقف الاعداء الباغين المعتدين ، وإلا ، وجب علينا ان نرد الاعتداء بمثله .

وفى هذا وذاك يقول الله جل شأنه (فى سورة البقرة آية ١٩٠) :
« وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ » . وفى موضع آخر من السورة نفسها يقول فى (الآية ١٩٤) : « فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ » .

ويقول فى سورة الممتحنة فى (آية ٨ و ٩) : « لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ » .

(ب) ومن مودة المخالفين فى العقيدة الذين يعيشون فى بلاد الإسلام ، ورعاية المحتاجين منهم بتيسير الحياه لهم ، وإعانة العاجزين عن العمل . وفى هذا يروى التاريخ أن عمر بن الخطاب أمر أن ترفع الجزية عن كل ذمى لا يقدر على أدائها ، وبأن يفرض له فى بيت المال ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الإسلام .

والسبب فى هذا ، أنه رأى ذات يوم رجلا ضريرا يسأل على باب ، فسأل عنه فعلم أنه يهودى ، فقال له : ما ألجأك الى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فأعطاه ما يكفيه في ساعته ، وأرسل الى خازن بيت المال يقول له : انظر هذا وأمثاله ، فوالله ما أنصفناه حين أكلنا شبيبته ثم نتركه عند الهرم (١) .

(حـ) وليس هذا فحسب ، بل إن الإسلام ليأمر ـ طلباً لحسن العشرة والعيش بين العالم جميعا ـ أن نحسن القول لهم ، وأن نغفر لهم ، وأن نعاملهم كما نعامل أنفسنا فيما يتصل بالآداب الانسانية .

ويكفى فى هذا أن نذكر قوله تعالى فى (سورة العنكبوت آية ٤٦)

« **وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ** » .

كما يجب أن نستمع اليه تعالى شأنه حين يتوجه الى رسوله بهذا الأمر (فى سورة الجاثية آية ١٤) : **قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** » .

ومن هذا الباب ايضا ، ما رواه البخارى فى صحيحه ، عن جابر بن عبد الله ، قال : مرت بنا جنازة فقام النبى وقمنا ، فقلنا : يارسول الله ، إنها جنازة يهودى ، فقال : « أوليست نفسا ؟ اذا رأيتم الجنازة فقوموا » .

هذه الكلمة الصغيرة المبنى والكبيرة المعنى من الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر الاموال لابى عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤ هـ . طبع القاهرة ص ٤١ ـ ٤٢ ، وص ٤٥ ـ ٤٦ .

« أو ليست نفسا » تدلنا على مقدار ما يراه نبى الإسلام من المساواة بين الناس جميعا بلا فرق بين عقائدهم وأجناسهم ، وهى سماحة لا نجدها إلا فى الإسلام اذا فهمناه على وجهه الصحيح دون نظر الى ما يعرف التاريخ من افهام ضيقة متعصبة كانت لنفر من المسلمين فى بعض الأيام الماضية .

(د) ولن يقوم السلام بين دول العالم المختلفة إلا إذا احترمت كل دولة كلمتها ، ووفت بعهودها ومواثيقها ، وهذا التاريخ الحديث المعاصر الذى نعيش فى تياراته يشعرنا بهذه الحقيقة ، ويكفى أن نشير الى أن الاستعمار لم تتوطد أركانه فيما مضى إلا بسبب نكث الأمم القوية بعهودها للأمم الضعيفة . وكذلك لم يسيطر القلق على العالم إلا بسبب خيانة المؤسسات الدولية ، مثل عصبة الأمم فيما مضى ، وهيئة الأمم المتحدة اليوم ، للمواثيق التى اعلنتها رسميا لتطمئن الدول والأمم الصغيرة . ومن أجل هذا لازلنا نرى القوى معتزا بقوته ، والضعيف يرسف فى قيوده ، والعالم كله يتسابق فى الاستكثار من آلات التدمير والفناء .

أما الاسلام الذى من أهدافه السامية أن يعش العالم كله فى سلام ، بل أن يعيش تسود أممه المحبة والتعاون ، فإنه يحرص الحرص كله على الوفاء بالعهود والمواثيق التى تكون بين بنيه وغيرهم حتى ولو كانوا فى حالة عداء أو حرب ، وحتى لو كان نقض العهد فى مصلحة المسلمين فى بادىء الرأى ، وبهذا جعل الوفاء بالعهود هو الأساس الأول الذى تقوم عليه العلاقات الدولية بين المسلمين وغير المسلمين .

وعلينا هنا أن نستعرض بعض ما جاء فى ذلك فى القرآن العظيم ، على أن نكتفى بالقليل الذى يثبت ما نقول ، ثم نعرض الى شىء من التاريخ يثبت لنا أن هذا الأساس العام كان من فجر الاسلام موضع التنفيذ فيما كان بين العرب والمسلمين وغيرهم من علاقات . ومن ثم يكون التفسير الصحيح لبقاء حب السلام من أسس المجتمع العربى الإسلامى حتى اليوم فإن هذا يرجع الى تعاليم القرآن نفسه .

« جاء فى سورة النحل (آية ٩١ و٩٢) قوله تعالى : « وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا

عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۔ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا (١) تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ؛ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ» ..الى آخر الآية .

والذى نريد أن نقف عنده هنا هو هذه الجملة : (**أن تكون أمة هى أربى من أمة** » فإن الذى يدفع أمم هذا العصر ودوله لنقض بعض ما أبرمت من عهد وميثاق ، هو أنها ترى أن فى هذا النقض مصلحتها .

ولكن الله يلفتنا بقوة الى أن هذه الحجة لا ينبغى أن تكون سببا لنقض شىء مما عاهدنا أمة أخرى عليه ، وإلا ، صار أمرنا ضعيفا . كالتى تنقض ما أبرمت من غزل كان قويا ، فيعود بعد النقض شعرا لا يتماسك كما كان أولا .

وبعد هذا ، نجد الله العليم الحكيم يقول (فى سورة التوبة آية ٤) بعد أن بين أنه ورسوله بريئان من المشركين الذين سيصيبهم عذاب أليم « **إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ** » .

فهؤلاء المشركون الذين آذوا النبى والمسلمين أذى شديدا ، يجب أن نفى بما يكون بيننا وبينهم من عهد ، ما داموا لم ينقضوا شيئا منه ولم يعينوا علينا غيرهم من الأعداء .

بل إن الأمر أكثر من هذا ، فإن الواجب الدينى يقضى بتعاون المسلمين جميعا وأن يكونوا يدا واحدة على العدو المشترك ؛ ولكن إذا كان بيننا وبين بعض هؤلاء المشركين أو غيرهم من الكفرة عهد وميثاق بعدم الاعتداء ، ثم طلب منا فريق من المسلمين أن نكون معهم عليهم ، وجب علينا أن نمتنع وفاء بذلك العهد والميثاق .

وهذا ما بينه الله تعالى فى هذه الآية رقم ٧٢ من سورة الأنفال ، اذ يقول :

---

(١) جمع نكث ، بكسر النون وسكون الكاف . وهو ما نقض من الاكسية ليغزل ثانية .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

وبذلك بلغ المجتمع الإسلامى ، نزولا على أواصر القرآن وتعاليمه ، من الوفاء بالعهود والمواثيق الذروة التى لم تقاربها أمة من الأمم الأخرى فيما مضى ولا يمكن أن تقاربها أمة في هذا الزمان أو فى زمان آخر بعد اليوم .

هذا ، وليست هذه مبادىء لم توضع موضع التنفيذ فى الإسلام ، ولم تشهد لتطبيقها وقائع من التاريخ الصحيح ، بل إن هذا التاريخ ليقدم لنا مثلا رائعة لتطبيقها فى حالات كان يعتبر العمل بها ، محالا فى رأى غير المسلمين .

هذا حذيفة بن اليمان ، يذكر أنه لم يمنعه من الاشتراك فى معركة « بدر » إلا أنه خرج مع صاحب له يريدان الرسول بالمدينة ، فأخذتهما قريش وقالوا لهما ، إنكم تريدون محمدا فقالا لهم : ما نريده ولا نريد إلا المدينة ، فتركوهما بعد أخذ العهد عليهما ألا يقاتلا مع الرسول ، فأتياه وأخبراه بما كان ، فقال لهما : « انصرفا ، نفى بعهدكم ، ونستعين الله عليهم » .

وفى صلح الحديبية المعروف ، كان سهيل بن عمرو هو الذى يفاوض الرسول فيه ، وبينما كان يكتب عهد الهدنة ـ وكان من شروطه أن من جاء محمدا من قريش وأتباعهم يرده عليهم ـ وقبل أن يوقع من الطرفين ، جاء ابنه أبو جندل مسلما يرسف فى قيوده فلما رآه كذلك أخذ بتلابيبه وقال : يامحمد ! قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، فقال الرسول : « صدقت » .

هذا ، وأبو جندل ينادى : يامعشر المسلمين ! أورد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ! ولكن ، لم يكن بد فى رأى الرسول من إرجاعه لقريش عملا بوثيقة الصلح وبعهد الهدنة ، ونزولا على قوله تعالى :

« وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ » الأنفال ٧٢ مع أن هذا الميثاق لم يكن قد وقع بعد !

وبعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، نجد أصحابه رضوان الله عليهم يسيرون هذه السيرة المثلى ، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب حين جىء اليه بالهرمزان أسيرا ، وكان من رجالات فارس الصناديد الذين لقى المسلمون منهم عنتا ، يقول له : تكلم ، فقال الهرمزان : أكلام حى أم كلام ميت ؟ فقال عمر : تكلم ، لا بأس ·

وبعد ان انتهى الحديث أراد عمر قتله جزاء ما قتل من المسلمين ، فقيل له : ليس الى قتله من سبيل ، اذ قلت لا بأس يعنى القائل إن هذه الكلمة العابرة تعتبر أمانا له ، فخلى عمر سبيله فأسلم وفرض له نصيبه من العطاء (١)

ولا عجب أن يكون هذا الصنيع المثالى من عمر ، فهو الذى يقول فى كتاب له الى سعد بن أبى وقاص حين وجهه لقتال الفرس : فإن لاعب أحد منكم أحدا من العجم بأمان : أو قرفه (٢) بإشارة أو لسان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به ، وكان عندهم أمانا ، فأجروا ذلك مجرى الأمان · الى آخر ما قال ، رضوان الله عليه ·

وحدث أكثر من هذا ، فقد حاصر المسلمون حصنا فى بلاد فارس حتى أوشكوا أن يفتحوه ، ولكن عبدا مسلما كتب من نفسه ، دون أن يدرى أحد ، أمانا لأهل الحصن ورمى به إليهم فى سهم فقال المسلمون ليس أمانه بشىء ، وقال أهل الحصن لسنا نعرف الحر من العبد ·

فكتب المسلمون بذلك الى سيدنا عمر بن الخطاب ، فكتب إليهم يقول : « إن العبد المسلم من المسلمين ، ذمته كذمتكم ، فلينفذوا أمانه » فأنفذوه (٣) وفى رواية أخرى ، أن عمر كتب الى أبى عبيدة ، وكان قائد الجيش ، يقول : وإن الله عظم الوفاء ، فلا تكونو أوفياء حتى تفوا ، فوفوا لهم ، وانصرفوا عنهم ·

وهنا ينبغى أن نقف قليلا لنسجل أن عمر رضى الله عنه أراد بإجازة أمان

---

(١) فتوح البلدان . للامام ابى الحسن البلاذرى . المطبعة المصرية بالازهر عام ١٩٣٢ . ص ٣٧٤ .

(٢) اى داناه . او القى اليه .

(٣) البلاذرى . فى فتوح البلدان . ص ٣٨٢ – ٣٨٣ .

العبد العمل بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » ففى هذا بيان واضح لما جاء به الإسلام من المساواة التامة بين متبعيه ، بلا تفرقة بسبب الأحساب والأنساب والأجناس والألوان .

كما أراد أن نسير على نهجه فى تربية الرجال ، من إشعار كل فرد بالمسئولية التى عليه لنفسه وللأمة ؛ فإذا عرف أن كلمته ستلزم الأمة كلها ، أخذ نفسه بالحساب الشديد قبل أن يقولها .

ولعله أراد أيضا أن يبين للأجيال التى تأتى بعده وللأمم جميعا فى مستقبل الزمان ، أن الإسلام لا يعنيه من المبادىء السامية لألاؤها وبريقها ، بقدر ما يعنيه تطبيقها بالعمل بها فى كل حال من الرخاء والشدة .

وننتهى من الحديث عن تقديس الإسلام للوفاء ، وحرصه الشديد على صيانة المجتمع الإسلامى من الغدر بما كان بين أهل « سمرقند » وعمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الأموى المشهور ، فقد شكا هؤلاء إليه أن قتيبة بن مسلم ، وهو الذى فتح بلاد سمرقند ، ظلمهم وأخذ بلادهم عن غدر .

فأمر الخليفة أن يحكم القاضى « جميع بن حاضر » فى القضية ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم ثم تكون الحرب من جديد ، فإما ظفر عنوة أو صلح عن تراض لاريب فيه .

فكره أهل سمرقند الحرب ، ورضوا بما هم عليه ، وأقروا المسلمين على البلاد ، وذلك بعد أن آمنوا اليهم ورضوا سيرتهم . وهذا عمل لا يعلم التاريخ له مثيلا ، وقد أقدم عليه سيدنا عمر بن عبد العزيز اتقاء لشبهة الغدر ، وحبا للوفاء .

(هـ) على أنه مهما حرص الاسلام والمسلمون على أن يعيشوا فى سلام مع جيرانهم ومن يليهم من الأمم الأخرى فإن من الظروف والأحوال ما قد يجعل الحرب أحيانا ضرورة لابد منها ، تأمينا لسير الاسلام ، ودفاعا عن استقلال المسلمين وكيانهم . وهنا نجد الأسلام لا يجعل الأمر فوضى لا ضابط لها ، بل نراه قد وضع للحرب من النظم والآداب ما يحصر ضررها فى أضيق الحدود .

ذلك ، بأن المسلمين الأوائل ، مستلهمين المثل العليا التى ضربها الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانوا يعرفون حقا أن الحرب شر لا بد منه أحيانا ، دفاعا عن الدين والكرامة القومية وعز المسلمين وكيانهم ـ واذا ـ ينبغى أن يكون لها أسباب تجعلها حربا مشروعة ـ واذا ـ ليس من العدل أن تقتل غير المقاتلين ، ولا أن تخرب ديار الأعداء بلا ضرورة . وهذا غير ما تأمر به التوراة ، التى بين أيدينا .

وفى ذلك يروى سليمان بن بريدة ، عن أبيه ، بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين ، خيرا ، ثم قال : أغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » (١)

وحدث نافع عن عبد الله بن عمر أن أمرأة وجدت في بعض مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم مقتوله ، فأنكر ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان (٢) وروى رباح بن ربيع أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر على أمرأة مقتولة فى بعض الغزوات» (لعلها هى المرأة فى الحديث المذكور قبل هذا) فوقف عليها ثم قال : ما كانت هذه لتقاتل) ثم نظر فى وجوه أصحابه وقال لأحدهم : (الحق بخالد بن الوليد ، فلا يقتلن ذرية ولا عسيفا (أى أجيرا) ولا امرأة) .

وقد سار على نهج الرسول أصحابه رضوان الله عليهم ، فهذا الخليفة الأول أبو بكر الصديق يقول في وصيته لأسامة حين بعثه الى الشام لينتصف من الروم بما فعلوا من قبل بالمسلمين :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ، ص ٤١١ .

(٢) صحيح مسلم ، جـ ٥ ـ ١٣٩ ـ ١٤٠ . وينبغى ان نلاحظ أن الكفار فى ذلك العصر كانوا دائما يناصبون الاسلام والمسلمين العداء الشديد .

تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع (يريد الرهبان) ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له »(١) .

وكذلك كان يفعل سيدنا عمر بن الخطاب . فقد جاء فى كتاب له « لا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله فى الفلاحين » وكان من وصاياه لأمراء الجنود : « ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا . وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات » .

هذا هو الإسلام فى هذه الناحية ، فأين منه ما تفعله دول المدنية الحديثة فى هذا العصر ، من تدمير المدن بما فيها من عشرات الآلاف من الأطفال والنساء والشيوخ العجزة غير المحاربين !

وفى الحرب يكون أسرى ، فماذا يرى الاسلام فيهم ؟ لا شىء الا المعاملة الانسانية فالقرآن يخير ولى الأمر بين أمرين : المن على الأسرى بتخلية سبيلهم لوجه الله دون عوض ، أو إطلاقهم نظير فدية تدفع عنهم وفى هذا يقول الله تعالى : « **فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** » (٢)

ولذلك يرى كثير من العلماء والفقهاء مثل عطاء والحسن وابن عمر ، كراهة قتل الأسير ، فقد سئل عطاء عن قتل الأسير فقال : من عليه أو فاده ، كما سئل الحسن فقال : يصنع به ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسارى (بدر) يمن عليه أو يفادى به .

ومن الحق أنه يجوز قتل الأسير اذا تطلب ذلك الحزم وكان ذنبه لا يغتفر كما حصل مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى حالات قليلة ولكن من الحق أيضا أن هذه الحالات تتسم بالشذوذ وليست هى المعاملة الواجبة في الأحوال العادية بل إن الرسول نفسه كان يوصى بالأسير خيرا ويحسن معاملته الى حد كبير لا نجد فى غير الاسلام ما يقاربه .

---

(١) الغلول : الخيانة فى الغنيمة قبل قسمتها . والغدر . نقض العهد . والتمثيل تشويه القتلى . والنهى عن قتل الأطفال لانهم لا يقاتلون . فيقاس عليهم من الشيوخ والنساء الذين لا يقاتلون .

(٢) سورة محمد وهى من السور المدنية آية ٤ .

ومن المثل لذلك أن ثمامة بن أثال وقع أسيرا فى أيدى المسلمين ، فجاءوا به النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أحسنوا اساره » ، وقال : « اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به اليه » فكانوا يقدمون اليه لبن لقحة الرسول غدوا ورواحا (١)

ودعاه النبى عليه الصلاة والسلام الى الإسلام فأبى ، وقال له : إن ترد الفداء فسل ما شئت من المال ، فأطلق النبى سبيله من غير فداء ، وكانت النتيجة أنه دخل بعد هذا المن فى الاسلام .

وما أكبر الفرق بين هذه المعاملة الإنسانية الرحيمة للأسرى في الإسلام وبين ما رأيناه من معاملة أوربا لأسراها بعد الحرب العالمية الثانية ! لقد رأيت بنفسى عام ١٩٤٥ وما بعده كيف كانت فرنسا تعامل الأسرى الألمان .

لقد كانوا يعاملونهم معاملة الأرقاء ، ويسومونهم الذل ، ويسخرونهم في الأعمال الشاقة التى تقوم بها الآلات والحيوانات عادة ، ويشعرونهم بالذلة والهوان الى درجة أنه كان يعتبر خائنا الفرنسى الذى يتحدث الى الأسير الألمانى ، كما يتحدث الإنسان الى الإنسان .

ورأينا ، أنا وكثير من مواطنى المصريين ، مثل هذا فى ألمانيا عام ١٩٤٨ فى المنطقة التى كانت من نصيب أمريكا فى احتلال ألمانيا وبدا لى أن سائر المانيا كان حالها هذا الحال .

هذا والإسلام ليس من مبادئه أن يدفع المسلم الى الحرب دفعا ، بل إنه ليؤثر للناس العافية والسلم ، ولكن إن وجبت الحرب فلتكن بكل ما نملك من قوة وقديما قال الشاعر العربى :

ولا أتمنى الشر ، والشر تاركى

ولكن متى أحمل على الشر أركب

وفى ذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بعض أيامه التى لقى فيها العدو ينتظر هو وأصحابه ، حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال :

---

(١) اللقحة : الناقة الحلوب .

« ياأيها الناس ! لا تتمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » .

وفى القران الكريم نفسه نجد قوله تعالى (فى سورة الأنفال آية ٦١) : « وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » فالله تعالى أمره يأمرنا بأن نميل الى السلم إن مال الأعداء لها حقا على ألا يكون فى ذلك ما ينال من ديننا أو قوميتنا أو عزتنا وكرامتنا .

(و) وأخيرا ، كان للاسلام ومبادئه الإنسانية العادلة ، وما أخذ به المسلمون أنفسهم من تطبيق هذه المبادىء فى السلم والحرب ـ كان له أثر طيب كبير فى الإسلام والمسلمين والعالم كله ، وهذا الأثر نستطيع هنا أن نشير الى بعض جوانبه .

فقد دخل كثير من أهالى البلاد المفتوحة فى الإسلام راضين مستبشرين حين لمسوا الخير فى أتباعه ، وحين رأوا حسن سيرة المسلمين فيهم مندفعين بتعاليم دينهم التى تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن المنكر والظلم والعدوان . وقد عظم هذا المد الإسلامى فى القرون الماضية حتى صارت هذه البلاد كلها بلادا إسلامية . وإن كانت أكثرية ناسها ترجع ـ وهذا معروف وبديهى ـ الى أصول غير عربية وغير مسلمة .

وكذلك يتمثل هذا الأثر الطيب الكبير فى الشهادات الحقة التى وردت فى كتابات كثير من الغربيين ، بل فى كتابات كثير من رجال الدين المسيحيين أنفسهم لصالح الإسلام والمسلمين (١)

هذا هو ميخائيل الأكبر بطريق أنطاكية اليعقوبى يذكر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، أنها إصبع الله فى الفتوح الحربية وان الله أرسل أبناء اسماعيل من بلاد العرب ليخلصوهم من قبضة الروم الذين لقوا منهم العذاب الأليم .

---

(١) الدعوة الى الاسلام . للسير توماس أرنولد ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وعبد المجيد عابدين . واسماعيل النحراوى . نشر مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٤٧ . ص ٥٣ ـ ٥٤ .

ولما بلغ الجيش الإسلامي وادى الأردن بقيادة أبى عبيدة كتب أهالى هذه البلاد المسيحيون الى العرب يقولون : يامعشر المسلمين ! أنتم أحب الينا من الروم وان كانوا على ديننا ، إنكم أوفي لنا وأرأف لنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ·

هذا ومن اليسير أن نأتى بكثير من أمثال هذه الشهادات الصادرة من الأجانب منا دينا وجنسا ولكنا لا نرى ضرورة للاستكثار منها فإن ذلك أمر معروف للباحثين · فلسنا نريد من ذلك إلا الإشارة الى ما كان لأسس الإسلام ومبادئه وتعاليمه من الأثر الكبير الجميل في تلكم الأزمان ، نعنى الأزمان التى كان من رجالات الاسلام من يفهمها الفهم الحق ، ويطبقها التطبيق الصحيح ·



خاتمة البحث

والآن قد انتهى البحث الى غايته ، وعرفنا كيف كان العالم حين كان يعرف للتدين بالدين الحق قيمته ، وحين جعل للاسلام قيادته ، كما عرفنا ما آل اليه العالم من سوء شمله من أدناه الى أقصاه ، وذلك حين نبذ الدين وراءه ظهريا ، حين جرفه تيار الحضارة المادية التى لا تكاد تعترف للدين والخلق بمجال فى هذه الحياة ٠

وعرفنا كذلك قيمة الاسلام ، وانه دين ودولة ، وان من مقاصده تربية الفرد ، والمجتمع واقرار السلام فى العالم ، ذلك ليعيش الناس جميعا اخوانا متحابين متعاونين على مافيه الخير للجميع ٠

ونعرف مع ذلك كله أن الله تعالى يقول فى كتابه العظيم : «**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**» سورة الرعد آية ١١ ، **كما يقول** : « **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** » سورة محمد آية ٧ وهذا وذاك سنة من سنن الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ٠

من أجل ذلك كله ، نرى أن على مصر ـ بالنيابة عن العالم العربى والاسلامى كله ـ واجبا ثقيلا من الحتم عليها القيام به ، وهو واجب تلقيه على عاتقها زعامتها للعالم الاسلامى وكونها مركزا وسطا بين الشرق والغرب ، وهو واجب تستطيع أن تقوم به بفضل كفاية أبنائها وما وصلوا اليه من ثقافة جامعة شرقية وغربية ٠

ان على مصر أن تجعل من نفسها « معبرا » يقوم بعمل مثالى من أعمال التصدير والاستيراد ، فيصدر الى الغرب أفضل ما عند الشرق من رسالة تجمع بين العقيدة الحقة والشريعة الصالحة والأخلاق والمبادىء الانسانية المثالية ، ويستورد أفضل ما أنتجه الغرب فى عالم الصناعة والفكر والتجارب والكشوف ٠

وان على مصر أن تدرك أنه لا عز لها ولا مجد الا بالدين تأخذ به ، والخلق

تنزل على أحكامه ، والا بالشرق تركن اليه ، وبشعوب افريقيا تخرجهم من الظلمات الى نور الاسلام ، بعد أن تقاسمتهم دول أوربا زمنا طويلا وجعلتهم مجالا حيويا لها .

ان على مصر أن تكافح الالحاد ، وأن تحارب الوباء الخلقى الذى ينشره الأدب الماجن والروايات والقصص الخليعة والأفلام السينمائية التى تدفع بالرذيلة الى الأمام ، هذه العوامل الهدامة للدين والخلق ، والتقاليد الطيبة والمثل السامية .

ان على مصر والبلاد الاسلامية كافة أن تفهم الدين الاسلامى فهما صحيحا ، وأن تأخذ أبناءها به أخذا جادا ، وأن تعمل على نشره بكل سبيل بين الناس جميعا ، وأن يكون ذلك بصفة خاصة بالمثل الطيبة ، والقدوة الصالحة تتمثل فى الداعين لهذا الدين ولما جاء به من خير فى جميع نواحى الحياة .

والله يهدى من يشاء الى الصراط المستقيم ، ويعز الداعين الى دينه الحق الذى أرتضاه لنا وللعالم كله ، ويؤيدهم بروح من عنده .

فهرس الكتاب

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس



دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

موسى، محمد يوسف
الإسلام وحاجة الإنسانية إليه /تأليف
محمد يوسف موسى. ـ القاهرة. المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٨.
٢٣٦ ص؛ ٢٤ سم
١ - الإسلام
أ - العنوان

٢١٠

رقم الإيداع ١٩٩٨٥ / ٢٠٠٨

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر